حكمة يمانية
HEKMAH YEMANYA

عَلى التُّخُومِ

تطوافٌ في الوحي والتَّاريخ والسِّياسة

أنور بن قَاسِم الخُضَرِي

عَلى التُّخُومِ

تَطوافٌ في الوحي والتّاريخ والسِّياسة

حقوق الطبع محفوظة

ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو ترجمته إلى لغة أخرى دون إذن خطي سابق من الناشر.

موقع
حكمة يمانية
اليمن – تعز

الطّبعة الأولى

1447هـ – 2026م

العنوان: على التُخوم . . تطواف في الوحي والتاريخ والسياسة.

تأليف: أنور بن قاسم الخضري.

الصفحات: (242 صفحة) .

الناشِر: حكمة يمانية.

قياس القطع: 17×24 .

رقم المعيار الدولي: 978-625-8990-16-4

INFO@HEKMAHYEMANYE.COM
WWW.HEKMAHYEMANYA.COM
@HEKMAHYEMANY

عَلى التُّخُومِ

تَطوافٌ في الوحي والتّاريخ والسِّياسة

تأليف
أنور بن قاسم الخضري

حكمة يمانية
HEKMAH YEMANYA

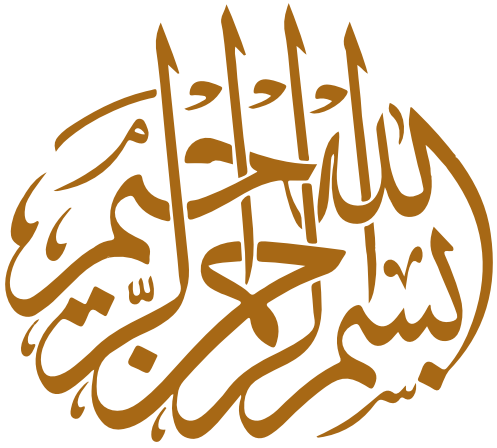
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

لو كان حيًّا لذهبت أهديه كتبي جميعها، وإن كانت دون مقامه العالي ومنزلته الرفيعة، فهو مصدر الإلهام والهداية والرشد، ولا يزال يحتلُّ الصدارة في قلوبنا محبَّة وودًّا وتعظيمًا وإجلالًا. لقد عشت في ظلال سيرته أتمنى لو كنت أحد أصحابه وخدمه المقرَّبين، أنهل مِن علمه وأستقي مِن أخلاقه. وإهداءه هذا الكتاب رغم رحيله هو عرفان بالجميل الذي أهداه إلينا، والهديَّة لديه مقبولة مهما كانت صغيرة لتواضعه الكبير.

إليك أيُّها الحبيب المصطفى.. أهدي هذه السطور

الفهرس

إهداء 5
المقدَّمة 13
الفصل الأوَّل: في الوعي والسياسة 19
الملوك والممالك في القرآن الكريم 21
تمهيد: 21
الملك السَّفَّاك للدِّماء (النُّمرود): 22
الملك السَّالب للحرِّيَّات (فرعون): 23
الملك الغاصب للأموال: 24
الملك المحتلُّ للبلدان (جالوت): 25
مملكة التَّمكين الإلهي (مملكة آل داود): 27
مملكة التَّسخير الكوني (مملكة ذي القرنين): 29
مملكة العدل والتَّعايش (مملكة مصر زمن يوسف): 30
مملكة العقل والشُّورى (مملكة سبأ): 31
الإعجاز السياسي للقرآن: 32
امتلاك الأرض كاملًا.. بين الحقيقة والمبالغة 34
الفقه والسِّياسة.. جدليَّة الماضي والحاضر 39
الإسلاميُّون والوعي بالمصطلحات السياسية 47
تمهيد: 47

مبادئ أوَّلية: 51
اعتبارات في التعامل مع العبارات: 56
عبارات ومفاهيم سياسية لا تتعارض مع الإسلام: 58
– النظام الجمهوري. 58
– الدولة المدنية: 60
– سيادة الشعب: 61
– سيادة الدولة: 63
– سيادة القانون: 64
– حكم الشعب نفسه بنفسه: 65
– الفصل بين السلطات: 66
– المجلس التشريعي/ المجلس النيابي: 67
– حقوق الإنسان: 68
– الحزبية والتعددية الحزبية: 69
– الانتخابات: 71
– التداول السلمي للسلطة: 71
– الثورة الشعبية: 72
ختامًا.. 72
السياسة الشرعية في ظلِّ الأطراف المتشابكة والحسابات المعقَّدة 74
تمهيد: 74
التَّشابك والتَّعقيد في السِّياسة المعاصرة: 75
الدِّيمقراطية وتنازع الإرادات: 77
إدارة الخلافات والتَّباينات: 81

الوعي والإدراك والإحاطة: 85
نقض الدولة أم إصلاحها؟ 87
الفصل الثاني: في التاريخ والسير: 97
قراءة منهجية للخلافات السِّياسية بين الصَّحابة (رضي الله عنهم) 99
تمهيد: 99
وراثة السِّياسة: 101
التَّطلُّع للخلافة: 103
نزعة القيادة والسِّيادة: 105
حفظ المنزلة والمرتبة: 108
القيام بالأمانة وأداءها: 110
السِّياسة ميدان اختلاف لا اتِّفاق: 112
عقيدة وإيمان: 113
التَّشكيك والطَّعن: 116
اعتراف الصَّحابة رغم خلافهم بفضل مخالفيهم: 117
التطلُّعات السياسية عند الصحابة (رضي الله عنهم) 119
تمهيد: 119
تطلُّعات النفوس: 122
الصحابة الذين تطلَّعوا للإمارة: 124
أسباب ودوافع التطلُّع: 145
الخاتمة: 149
الصحابة الكرام والدرس السياسي 151
تمهيد: 151

السياسة في مجتمع الجزيرة قبل الإسلام: 152
الدرس السياسي بعد البعثة والرسالة: 157
الدرس السياسي والسيرة النبوية: 159
الدرس السياسي والخلفاء الراشدون: 160
ختامًا.. 161
معالجة التاريخ.. بين الرِّوائي والمؤرِّخ 162
أحاديث الفتن وآخر الزمان بين الرواية والكتمان..... 168
هل كلُّ ما نطق به الرسول وحي ودين؟ 169
أحاديث الفتن بين الرواية والكتمان: 172
الأمور المانعة مِن بثِّ أحاديث الفتن وآخر الزمان: 177
أحاديث الفتن.. بين الإفراط والتفريط: 185
ختامًا: 188
"عين حمئة".. فتوحات ذي القرنين غربًا 190
تمهيد: 190
لماذا عين؟ ولماذا حمئة؟! 191
البحر الأسود.. والعين الحمئة: 193
الفصل الثالث: مع الواقع والأحداث 197
الوحدة اليمنية.. ضرورة الوجود وحتميَّة البقاء 199
سوريا.. المأساة والأمل والدرس 204
سوريا المأساة: 204
سوريا الأمل: 205
علمتنا سوريا: 207

طوفان الأقصى.. بين فلسطين واليمن 211
الحدث: 211
الدَّوافع: 211
توقيت عملية طوفان الأقصى: 213
الآثار الإيجابية لطوفان الأقصى: 214
الآثار السَّلبية لطوفان الأقصى: 215
الدُّروس المستفادة مِن طوفان الأقصى: 217
المسارات المستقبلية لطوفان الأقصى: 218
انعكاسات أحداث فلسطين على الوضع اليمني: 219
جزاء الصادقين بين يوم الفرقان ويوم الطوفان 221
هل انتصرت المقاومة؟ 225
تمهيد: 225
مَن السائل؟ 225
ما المقصود بالسؤال؟ 227
ماذا وراء السؤال؟ وما دلالات التوقيت؟ 230
مَن المعني بالإجابة؟ 232
هل الحكَّام "عقاب الله"؟! 234
ختامًا.. 240
خاتمة 241

المقدَّمة

الحمد لله الذي خلقنا بيديه، ونفخ فينا مِن روحه، وفتح علينا مِن واسع علمه، وأسجد لنا ملائكته، وكرَّمنا على سائر خلقه، لخلافته في الأرض، وتحمُّل هذه الأمانة، والقيام بهذه المسئولية، ثمَّ أمدنا بالرسالة والهداية لنتمثَّل مشيئته فينا وفي الأرض التي استعمرنا فيها، والصلاة والسلام على جميع أنبيائه ورسله، وفي مقدِّمتهم خاتمهم، سيِّد ولد آدم، الذي أنزل عليه خيرُ كُتُبِه وجعله أكثر الأنبياء تابعًا وأثرًا.

وبعد..

فهذا كتاب "على التخوم: قراءات في الوحي والتاريخ والسياسة"، الذي يضمُّ نخبة مِن المقالات التي تفضَّل موقع "حكمة يمانية" بنشرها على مدار عدَّة سنوات، وهي مقالات جاءت استجابة لمعترك الواقع واشتباك العقل به، وتردُّد الأسئلة وأصداء الحوار، فجال الفكر في فلك الوحي تارة وسجلَّات التاريخ تارة، مازجًا فيها بين منطق العلم وإيحاءات التأمُّل، بلغة سهلة وعرض مبسَّط، كيما تمتلك سيلان الماء ونفاذ الهواء في تضاريس العقول وأدغال النفوس. وهي اليوم في سفر واحد يجمع شتاتها ويؤلِّف نسيجها، تتوزَّع في ثلاثة فصول يجول القارئ فيها بسلاسة ويسر.

الفصل الأوَّل مِنها ضمَّ عنوانات في الوعي والفكر السِّياسي، وهي:

الملوك والممالك في القرآن الكريم.

امتلاك الأرض كاملًا.. بين الحقيقة والمبالغة.

الفقه والسِّياسة.. جدليَّة الماضي والحاضر.

الإسلاميُّون والوعي بالمصطلحات السياسية.

السياسة الشرعية في ظلِّ الأطراف المتشابكة والحسابات المعقَّدة.

نقض الدولة أم إصلاحها؟

والفصل الثاني ضمَّ عنوانات في التَّاريخ والسير، وهي:

قراءة منهجية للخلافات السِّياسية بين الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

التطلعات السياسية عند الصحابة (رضوان الله عليهم أجمعين).

الصحابة الكرام والدرس السياسي.

معالجة التاريخ.. بين الرِّوائي والمؤرِّخ.

أحاديث الفتن وآخر الزمان بين الرواية والكتمان.

"عين حمئة".. فتوحات ذي القرنين غربًا.

والفصل الثالث تطرَّق لقضايا في الواقع والأحداث، توزَّعت على اليمن وفلسطين وسوريا، وهي:

الوحدة اليمنية.. ضرورة الوجود وحتميَّة البقاء.

سوريا.. المأساة والأمل والدرس.

طوفان الأقصى.. بين فلسطين واليمن.

جزاء الصادقين بين يوم الفرقان ويوم الطوفان.

هل انتصرت المقاومة؟

هل الحكَّام "عقاب الله"؟!

إنَّ هذه المقالات خلاصة تأمُّلات ونقاشات، وخبرة تراكمت فيها التجارِب، وعصارة مطالعات شملت الكتب والمؤلَّفات والأخبار والأبحاث، جديدة في الفحوى مهمَّة في المضامين، وتمنح القارئ معرفة ممزوجة بالوجدان خالية مِن الشوائب. وقد جرى مراجعتها وتدقيقها وتحريرها مرَّة أخرى لتكون أتمَّ وأكمل ما يمكن لكاتب أن يقدِّم مِن جهد؛ فالكاتب الذي لا يحترم جمهوره لا يستحقُّ أن يُقرأ له.

ولكلِّ مقال في هذا الكتاب رحم تكوَّن فيه، وقصَّة ترعرع فيها، فهو ابن كاتبه، ونتاج ظروفه التي أحاطت به، والمرحلة التي عاش فيها جيله، فلا انفكاك بينه كمنتج بشري وبين بيئته وزمانه ومكانه. أقول ذلك حرصًا كي لا نُعطي لأفكارنا وخواطرنا وآرائنا قداسة مطلقة، وكأنَّها منزلة مِن عالم الملكوت نقيَّة صافية كاملة معصومة، بل هي اجتهاد نراعي فيه الحقَّ والصدق، والرشد والاعتدال، فما أصبنا فيها فمِن الله تعالى وحده، وما أخطأنا فلنا شرف المبادرة والمحاولة، والله يغفر لنا ما أخطأنا فيه.

لقد ظلَّت الكتابة هي القيد الذي اعتمد عليه عندما يسبح الفكر ويغوص التأمُّل عقب استشكال يواجُهني أو سؤال يستفزُّني، متسلِّحًا بالبحث والقراءة والتنقيب والاطِّلاع، موقنًا أنَّني أُؤَدِّي الواجب الذي يقع عليَّ أمام ذاتي، إذ لا قيمة للسمع والبصر والفؤاد إذا سُخِّر في أغراض العيش دون الحياة، فالعيش يكون بالبدن وهو قدر مشترك بين الإنسان وبقيَّة دواب الأرض، أمَّا الحياة فهي شيء آخر اختصَّنا الله تعالى به، ورتبة أعلى وأسمى من العيش. وقد ألهمنا الله تعالى للكتابة بأن أخبرنا بأنَّ أوَّل شيء خلقه كان القلم، وأنَّه قال له: "اكتب"، فإذا كان الغنيُّ عن الكتابة جعل الكتابة المدخل لهذا الوجود الذي لا يعجزه علمًا وتدبيرًا فإنَّ العبد الضعيف أولى بأن يصطحب القلم والكتاب، وأن يكتب ويورِّث ما كتبه للأجيال التالية، لينال أجر النور والخير الذي يقتبسونه مِنه.

وقد كان لموقع "حكمة يمانية" سبق البدار لفتح نافذة إلكترونية على العالم للكتابة في أبواب متنوِّعة، فكرية وثقافية وأدبية وتاريخية وشرعية، وخصوصًا لرموز اليمن العلمية والفكرية والأدبية، ومِن الأقلام الرصينة والعقول الواعية، حتَّى بات مخزونًا ثريًّا ومحيطًا لا تتراءى أطرافه. ثمَّ بدا للقائمين عليه أن يجمعوا شتات المقالات المنشورة للكاتب في نظم واحد وزبور جامع، فطبعوا عددًا مِن الكتب لأسماء يمانية لامعة، معزِّزين بذلك الساحة ورافدين إيَّاها بعطاء قيِّم هادف.

وكان أن تواصل بي الأخ العزيز والصديق الحبيب الدكتور خالد بريه، مؤسِّس "حكمة يمانية"، ورئيس تحريرها، لأجل جمع عدد مِن المقالات في

كتاب واحد، فأجبته لذلك وإن تأخُّرت في الخطوات. وها هو الجهد يخرج لعالم الكتب بحلَّة قشيبة وتوقيت مناسب.

وهنا أسجِّل شكري الجزيل للدكتور الأديب الملهم، خالد بريه، ولموقع "حكمة يمانية"، على هذه الجهود والمبادرات والتفاني في تقديم موقع يمانيٍّ متميِّز، وحصاد معرفي واسع وثري، ونافذة إلكترونية غاية في الجمال والروعة، وكتب تضيف للمكتبة اليمنية جواهر العقد الفريد والجيل الجديد، متمنيًّا لهم دوام التوفيق والنجاح، والعون والتأييد.

والله حسبنا ونعم الوكيل.

أنور بن قاسم الخضري

إسطنبول- تركيا

23 جمادى الآخرة 1447هـ

الفصل الأول

في الوعي والسياسة

وفيه:

- الملوك والممالك في القرآن الكريم.
- امتلاك الأرض كاملًا.. بين الحقيقة والمبالغة.
- الفقه والسّياسة.. جدليَّة الماضي والحاضر.
- الإسلاميُّون والوعي بالمصطلحات السياسية.
- السياسة الشرعية في ظلِّ الأطراف المتشابكة والحسابات المعقَّدة.
- نقض الدولة أم إصلاحها؟

يفتح هذا الفصل باب النظر في الوعي السياسي من منابعه الأولى، حيث يُستدعى الوحي بوصفه ميزانًا، وتُستقرأ السنن في حركة الملك والسلطان، وتُمحَّص المفاهيم التي تشكّل علاقتنا بالحكم والدولة. وفي صفحاته قراءة تتأنّى، تُميّز، وتضع كل فكرة في سياقها، وتردّ السياسة إلى أصولها المعرفية قبل تنزيلها في الواقع.

الملوك والممالك في القرآن الكريم

تمهيد:

عرض القرآن الكريم لقضايا جوهرية وكبرى في الحياة الإنسانية، وهي قضايا لا تحضر بعيدًا عن المجتمع الإنساني المدني في صورته العمرانية والسُّلطانية، حيث الدُّول والحضارات؛ ذلك أنَّ حياة البداوة حياة بسيطة وهامشية، وغير ثرية بمناشطها وهمومها وقضاياها، إذ تدور حياة الإنسان البدوي حول أمور رتيبة وعادية، قاصرة على المأكل والمشرب والاحتياجات الأوَّلية. وقد بُعِث الأنبياء والرُّسل في عواصم دولهم وحضاراتهم، **يقول تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1]. وإذا كان الإنسان مدنيٌّ بالطَّبع فإنَّ تشكُّل شخصية الإنسان الآدمي في صورة مكتملة لا تكون إلَّا في المدن، حيث يترقَّى في معارج المعرفة والأخلاق والنِّظام والإدارة، ويحقِّق الاستعمار الأمثل للأرض ومواردها وثرواتها.

ولا غرابة أن يتحدَّث القرآن الكريم إذن عن الممالك والملوك، وأن يُقدِّم لنا صورة واضحة لعالم المدينة والسِّياسة والحكم، في أعظم خطاب معرفي علمي يرسم لأتباع النُّبوَّة المحمدية ما سيواجهونه في حياتهم، وهم مكلَّفون بحمل أعظم رسالة، في طريقهم للتَّمكين في الأرض. وهنا يمكن رصد عدَّة نماذج تجلِّي

(1) القصص: 59.

هذه الصُّورة لطبائع الملوك وعوائد الممالك، مِن ذلك: النَّمرود ملك العراق، وفرعون ملك مصر، والملك الظَّالم الذي يغتصب السُّفن، وجالوت الملك المحتل، إضافة إلى مملكة بني إسرائيل، ومملكة ذي القرنين، ومملكة سبأ، ومملكة مصر زمن يوسف. فهذه نماذج يعرضها القرآن في القصص القرآني، بين إشارات عجلى وعرض تفصيلي، بما يناسب كلَّ مقام وهدف.

الملك السَّفَّاك للدِّماء (النمرود):

ترد قصَّة النُّمرود في آية واحدة، وفي معرض الحديث عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتشير إلى نفسية الملوك ونظرتهم لأنفسهم وقدرتهم في العبث بحياة النَّاس وموتهم. وهو أخطر ما يواجهه المصلحون في شخصيَّة الملوك الجبابرة. **فيقول تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[1].

والقرآن في هذه الآية لا يذكر لنا اسم النَّمرود، ولا حجم مملكته، ولا موطن ملكه أو حجم إنجازاته، لأنَّه هنا في معرض نفسيَّة الملوك وقد منحتهم السُّلطة انتفاخة زائدة وشعورًا بالغرور. فأوضح القرآن ذلك في حوار مختصر سريع، وعلى قضيَّة خطيرة جدًّا، ألا وهي أرواح البشر، حيث يرى النُّمرود ذاته ربًّا يتحكَّم بمصير النَّاس مِن حوله، ومِن ثمَّ فلا ينبغي على أحد أن يعترض

(1) البقرة: 258.

سبيله أو أن يطالبه بكرامة النَّاس وحرِّيَّاتهم، والعدل والإنصاف معهم، ومنحهم حقوقهم ورعاية مصالحهم. وهذه مشكلة الملوك عبر التَّاريخ، إذا فتنتهم السُّلطة والقوَّة، وغرَّهم كثرة المال والجنود، حيث تنمسخ أرواحهم إلى شبح متوحِّش يتجرَّد مِن كلِّ قيم الرَّحمة والخير والعدل.

الملك السَّالب للحرِّيَّات (فرعون):

وردت قصَّة فرعون في القرآن الكريم تكرارًا ومرارًا، وفي سياقات متعدِّدة، ومِن خلال أحداث متعدِّدة، تجلِّي حقيقة الطُّغيان كاملة وهي تنتهك حرِّية البشر، وتسخِّر النَّاس في عبودية مذلَّة بشعة، وتصنع مجتمعًا مِن القطيع الأعمى المجرَّد مِن الوعي والشُّعور، وتعمل في مواجهة الإصلاح والتَّغيير، كمنظومة سياسية وعسكرية وأمنية واقتصادية وإعلامية وقانونية. **يقول تعالى:** ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[1]، **ويقول سبحانه:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[2].

ومهما وقفنا عند آيات القرآن الكريم وهي تعرض قصَّة فرعون سنحفر في جبل عظيم يكتنز الكثير مِن المعاني والمفاهيم والصُّور. حتَّى كاد أن يكون القرآن بأكمله حول هذه المنظومة الطُّغيانية العاتية علوًّا وفسادًا. وهذا بهدف أن تمتلك

---

(1) القصص: 4.

(2) غافر: 23-24.

الخبرة الإنسانية قدرًا مِن الوعي بحركة هذه المنظومة الطَّاغوتية، وهي توجِّه وعي المجتمع وتشكِّل علاقاته وتصنع مواقفه ضدَّ رسالة الإصلاح وحملتها.

وعلى خلاف النَّمرود، فإنَّ القرآن الكريم اعتنى لنا بتجلية اسم الملك (فرعون) ووزيره (هامان)، واسم الطَّائفة المستعبدة (بنو إسرائيل)، والشَّخصية الاقتصادية الموالية للطُّغيان (قارون)، لأنَّه في هذا الشَّأن لا يجلِّي الجانب النَّفسي الخفي فقط وإنَّما حركة المجتمع برموزه وشرائحه، فكان لا بُدَّ مِن رصد جانب مِن المشهد بما يلامس واقعية القصَّة، كي لا تستنكر وتهمل.

الملك الغاصب للأموال:

ذكرنا أنَّ النُّمرود يمثِّل صورة الملك وهو يعبث بحياة النَّاس وأرواحهم، وجاءت سورة الكهف لتعرض نموذجًا آخر مِن الملوك الذين يرون حقَّهم المطلق في أموال النَّاس، وإن لم يعتدوا على أرواحهم، حيث يصبح المال النَّفيس ومقدَّرات النَّاس كلًّا مباحًا لنزواتهم ورغباتهم وأطماعهم. وكما هو الحال في تجاهل اسم النَّمرود وبلده تجاهلت سورة الكهف اسم الملك وبلده لتظلَّ الصُّورة قابلة للتَّعميم على كلِّ الملوك الذين يرون في السُّلطة والقوَّة سببًا في الاعتداء على حقوق النَّاس ومصالحهم. **يقول تعالى:** ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾[1].

والعجيب في الآية السابقة أنَّها أشارت أنَّ طبع أمثال هؤلاء الملوك هو

(1) الكهف: 79.

التَّسلُّط على أموال المساكين والضُّعفاء، الذين انصرفوا لأعمالهم بحثًا عن العيش الكريم، فأخذت تلك الأعمال فائض أوقاتهم وألجأتهم إلى الغياب عن أهليهم وبلدهم، فيأتي ذلك الملك ليأخذ ثمرة جهودهم بالغصب. وصور الغصب اليوم متعدِّدة وكثيرة، وربَّما في عصرنا الحالي مقنَّنة لا يستطيع المواطن الاعتراض عليها.

الملك المحتلّ للبلدان (جالوت):

ورد ذكر اسم جالوت وجنوده في القرآن الكريم في معرض الحديث عمَّا حلَّ على بني إسرائيل في مرحلة مِن مراحل تاريخهم، مِن تسلُّط لملك غاشم محتلٍّ، أخرجهم مِن ديارهم وأموالهم، وحرمهم أبناءهم وأزواجهم، حتَّى باتوا مشَّردين في الأرض مع أنبيائهم. ومعاناة الشعوب المحتلَّة الأوطان تتكَّرر عبر التَّاريخ، حين تستحيل أطماع الملك مشروعًا يستهدف الشُّعوب الأخرى بالغزو والعدوان، حتَّى أنَّها لتُغيِّر معادلة المجتمعات: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً [أي احتلالًا وعدوانًا] أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[1].

وقد جاء هذا الاحتلال نتيجة طبيعية لتمزُّق صفِّ بني إسرائيل السِّياسي، فرغم اتِّباعهم تعاليم الإله التَّعبديَّة والتَّشريعية، إلَّا أنَّهم لم يتَّحدوا تحت قيادة واحدة، ما مكَّن أعداءهم مِن غزوهم واحتلالهم وإخراجهم جميعًا مِن أرضهم. وهذا ما دفعهم كي يطلبوا نبيَّهم -في حينه- ليبعث لهم ملكًا يتَّحدوا حوله،

(1) النمل: 34.

وينقادوا لخطَّته، في سبيل استعادة دولتهم المستلبة ووطنهم المحتل: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾[1].

وعندما اتَّحد بنو إسرائيل، وانقادوا لمليكهم، وذهبوا للقتال، وواجهوا جيش المحتلِّ الغاشم.. جالوت وجنوده: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾.. الآيات[2]. وتشير الآيات إلى ضخامة جيش جالوت كثرة، وإلى أيِّ مدى كانت المعركة مختلة الموازين لصالح قوى الطُّغيان والعدوان. غير أنَّ نهاية هذا الملك المعتدي المحتل جاءت على أحد جنود الحقِّ الذين قاسوا آلام العدوان والتَّهجير والتَّشريد، وصدقوا في مطلبهم للإذن بالجهاد، وقبلوا باختيار الله تعالى لشخصيَّة طالوت، وانخرطوا في التَّدريب والاختبار ونجحوا بتجاوزه، ثمَّ انطلقوا لميدان المعركة سعيًّا في تحرير وطنهم وأهليهم بصدق وعزيمة وكفاءة.

في مقابل هذه الصُّور الأربع عرض القرآن الكريم صورًا أربعة أخرى هي:

---

(1) البقرة: 246.

(2) البقرة: 249- 251.

مملكة التمكين الإلهي (مملكة آل داود):

هذه المملكة تأسَّست ابتداء على يد طالوت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والذي قاد معارك التَّحرير واستعادة الوطن مِن أيدي الغاصبين. ثمَّ قام داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ببناء قواعدها وقيمها ونظمها في مجتمع نشط فاعل، **فئة تزرع وترعى:** ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾[1]، **وفئة تتجار وتتشارك:** ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾[2]؛ وفئة تصنع الدُّروع التي علَّمها الله عبده داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3]، فأوَّل احتياجات الدُّول عسكريًّا هي احتياجات الدِّفاع حتَّى تستطيع حماية وجودها مِن أي عدوان خارجي، وهذا يتطلَّب قدرًا مِن الإمكانات المعجزة: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾[4]. كلُّ ذلك مع إجراء القانون على قدر مِن العدالة الصَّارمة، والإنصاف الدَّقيق، حتَّى يشعر الجميع بانتمائهم وولائهم لهذه الدَّولة المدافعة عن حقوقهم، والرَّاعية لمصالحهم.

---

(1) الأنبياء: 78

(2) ص: 22 – 23.

(3) الأنبياء: 80

(4) سبأ: 10 – 11.

ثمَّ جاء عهد الفتوحات والتَّوسع لصالح رسالة الدَّولة السَّامية، وهي نشر التَّوحيد ومحاربة الظُّلم والطُّغيان الذي يحجبه التَّوحيد عن النَّاس، ويسلبهم كرامتهم وحرِّيتهم وحقوقهم. فأخذ مِن أسباب القوَّة والإعداد ما يتناسب مع طموحاته والمدرك مِن الأهداف. وقد ورث سليمان مقام أبيه داود، لا عن استحقاق النَّسب والسُّلالة، ولكن بعهد الله تعالى له، أو باختيار بني إسرائيل إيَّاه، وقد أبدى مع أبيه قدرًا مِن العلم والحكمة والعدالة، كما أشارت آيات القرآن الكريم. فالتَّوريث هنا توريث في سياق الزَّمان لا في سياق العرف الخاصِّ بميراث الآباء والأجداد، **يقول تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[1].

وحريٌّ بمن أوتي العلم والإمكانات والقدرات، والأتباع الصَّادقين والمخلصين، أن ينشر العدل والخير والصَّلاح في العالم، وألَّا يغفل عن شعوب تعيش تحت نير الظُّلم والطُّغيان، وظلام الجهل والخرافة. لذلك قاد سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الجيوش لبسط نور الإسلام في الأرض، انطلاقًا مِن أرض فلسطين شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا.

وإذا كان الله قد آلان لداود الحديد فقد أسال لسليمان النَّحاس، ومنحه مصدر طاقة وحركة متجدِّدة (الرِّياح)، وسخر له عالم الجنِّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ

(1) النَّمل: 15 – 17.

غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ [1].

إنَّ هذه أعظم صور التَّمكين التي يمنحها الله تعالى لعباده المؤمنين إذا ما أخذوا بهدايات الوحي وإرشادات العقل، وعملوا وأخذوا بالأسباب واستغلُّوا السُّنن وسخَّروا الكون المسخَّر لهم أساسًا.

مملكة التسخير الكوني (مملكة ذي القرنين):

في مقام آخر في القرآن الكريم تتجلَّى مملكة أخرى مِن الممالك العادلة الرَّاشدة، إنَّها مملكة ذي القرنين، وهي شَّخصية مجهولة الهُويَّة في القرآن، إذ اختلف فيها المفسِّرون على أقوال عدَّة. غير أنَّ القرآن لم يلتفت كعادته للأسماء والأماكن والأزمنة، بقدر ما جلَّى المعاني العاملة والعابرة للأشخاص والأمكنة والأزمنة والمجتمعات. فذو القرنين أوتي مِن العلم والحكمة ورشاد العقل ما جعله يقيم مملكة عظيمة البنيان، واسعة الأركان، يجد فيها النَّاس الأمان والعدل، وتأمن فيها مِن عدوان الغاشمين وتوحُّش المجرمين. فتأتي الفتوحات ارتدادًا لأصداء هذه الدَّولة الرَّاشدة الحكيمة، فتتهاوى دول الطُّغيان سريعًا إزاء تمكُّنها المادي وعلوُّها القيمي والأخلاقي، فيمتلك هذا الملك في زمن بسيط مساحة شاسعة مِن الأرض تبدأ مِن مطلع الشَّمس على البرِّ إلى مغربها آخر البرِّ المقابل. ويمكن الرُّجوع لهذه القصَّة الخلَّابة في سورة الكهف: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

(1) سبأ: 12.

ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[1]. وما ورد مِن قصَّته ذِكرٌ بسيطٌ لا يشمل كلَّ جوانب النَّجاح والإنجاز الكبير له.

مملكة العدل والتعايش (مملكة مصر زمن يوسف):

في قصَّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يعرض القرآن الكريم كيف أنَّ مصر سادها منطق العدل والعقل فترة، فوجد فيها يوسف فيها محلَّ إقامته وحياته، إذ وجد فيها التَّعامل الحسن، والأعراف الجميلة، والقانون العادل، والاحترام والتَّقدير للمخالف، ومبدأ الثَّواب والعقاب، ومبدأ التَّحقيق والشُّورى، ومبدأ العمل الدُّؤوب والتَّكافل الاجتماعي. وهو ما جعله يسعى للبقاء وخدمة هذا المجتمع، وبيان رسالته التَّوحيدية بكلِّ تروٍّ وسكينة، مِن خلال الأخلاق الحسنة والعمل الصَّالح والنُّصح. إنَّها مملكة لا يظهر فيها الملك إلَّا مشاورًا في رؤيا أهمَّته وكانت مرتبطة بمصير وطنه وشعبه، وفي مقام آخر وهو يلتقي بيوسف ويحقِّق في شأن اتِّهامه ليظهر براءته، ثمَّ ليتيح له العمل في أعلى مستوى مِن الدَّولة مكافأة لنُّصحه.

وهذا ما جنَّب مصر كارثة أوشك أن تحلَّ بهم وتهلك الحرث والنَّسل، حيث أدار يوسف، وهو الغريب الذي لا يسنده نسب ولا جاه ولا مال ولا قوَّة، سوى العلم والخبرة وثقة الملك به، وقبول شعب مصر للعمل تحت إدارته، مرحلة العبور مِن الخطر إلى تحقيق الاكتفاء الذَّاتي والحفاظ على ثروة مصر

(1) الكهف: 83 – 85.

البشرية والزِّراعية.

إنَّها المملكة التي رأى يوسف فيها ضرورة أن يستوطنها أهله، ويغادروا البداوة إلى حضارتها ومدنيَّتها، آمنين على عقائدهم وأخلاقهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾[1]. وهي تستغرق جزءًا لا بأس به مِن سورة يوسف.

مملكة العقل والشورى (مملكة سبأ):

مملكة أخرى كانت على الجاهلية، في الضِّفة المقابلة لمصر وغير بعيد عنها، إنَّها مملكة سبأ التي حكى القرآن الكريم قصَّتها. وهي مملكة يمانية كانت تقوم على الزِّراعة والتِّجارة، وتمكَّنت مِن توحين أرض اليمن في كيان سياسي واحد، وبلغت أوج قوَّتها زمن امرأة مِنهم كانت غاية في الحكمة والرُّشد، وهي الملكة التي أشار لها الهدهد وهو ينقل إلى سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نبأ حضارة سبأ: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾[2].

وبرغم وقوع قوم سبأ في الشِّرك، إلَّا أنَّهم أداروا مملكتهم بأحسن ما يمكن، وظهر ذلك جليًّا في موقف ملكة سبأ مِن رسالة سليمان، وميلها للحلِّ

(1) يوسف: 99.

(2) النمل: 22 – 24.

الدُّبلوماسي والسِّياسي لا للحرب والقتال، ثمَّ سعيها لحلِّ الأمر مِن خلال التَّفاوض المنصف مع هذا الحاكم الذي يتهدَّدهم باحتلال أرضهم، وإخراجهم مِنَّها أذلَّة، متوجِّهة بوفد مِن كبار قومها إليه. وهناك، وفيما هي ترغب مِن استنقاذ مملكتها، رأت حقيقة مملكة سليمان ورسالته تتجسَّد واقعًا عمرانيًّا لا يمكن أن يتحقَّق دون توفيق ربَّاني وعدل قانوني يتوجَّه الجميع في ظلَّه للعمل بحبٍّ وتفان وإخلاص. ما دفعها وقد رأت ما تعجز قدرات البشر عنه إلى تسليم أمرها وقومها بالمطلق لله ربِّ العالمين، والدُّخول في سلطان الله الذي يمثِّله سليمان في الأرض.

الإعجاز السياسي للقرآن:

بهذا العرض المتعدِّد، والقصص المتغايرة، لنماذج الملوك والممالك، يعطي القرآن الكريم للمؤمنين لوحة كاملة وشاملة، ودقيقة وعميقة، ونفيسة وفريدة، ليوغلوا في عالم السِّياسة وعلم الاجتماع والعمران، بمعرفة وخبرة متراكمة، ومناهج للنَّظر والبحث، وأسس وقواعد لتقييم الحكم، ومعايير للقياس والتَّجربة.

إنَّ نفاسة هذا الكتاب المعجز تتجلَّى في مفرداته وألفاظه، وفي آياته وسوره، ثمَّ تتجلَّى في مواضيعه التي يتطرَّق لها عبر هذه الآيات والسُّور مجموعة أو متفرقة، لينحتها في وعي المتلقِّي ضمن سياقات التَّذكير تارة، والتَّنبيه تارة، والتَّوجيه تارة، والاعتبار تارة أخرى. ولو أردنا أن نلتمس فرائد هذه الآيات التي

تتعلَّق بقضايا الملك والحكم وقصص الممالك التي أشرنا إليها لعجزنا عن الإحاطة، وهي التي تمنحنا فضاء في التَّأمُّل وثراء في الخيال، حتَّى أنَّ أفضل كاتب لا يمكن أن يصوغ هذه المعاني والإشارات المتداخلة والمتكاملة والمنسجمة، في أبلغ عبرة وأجمل صورة وأعذب ترنيم، فضلًا أن يحاكيها.

لهذا يبقى القرآن معجزًا متَّى ما توجَّهت له العقول ناظرة إليه بعين التَّصديق والإيمان.

امتلاك الأرض كاملًا.. بين الحقيقة والمبالغة

يدَّعي البعض، سواء مِن أتباع الدِّيانات أو مِن الأمم الأخرى، أنَّ الأرض حُكِمت في فترة مِن الفترات بدولة واحدة، وحاكم واحد. وهذا القول ليس عليه دليل لا مِن شرع، ولا مِن أثر، ولا مِن حسٍّ، ولا مِن أدلة علمية أخرى عمومًا؛ بل هو يُنافي حقائق السُّنن الاجتماعية والطَّبيعة البشرية. وحتَّى في أقوى حالات الدُّول لم تتمكَّن دولة عظمى رغم كلِّ ما تملك مِن حكم الأرض جميعًا، بل مِن حكم قارة كاملة عن بكرة أبيها.

وحقيقة فإنَّ كلَّ ما يروى في كتب التَّاريخ حول هذه القضية هو مِن باب المبالغات، والأخبار التي لا يتوفَّر لها سند ولا يتحقَّق لها إجماع. وهي في أصلها مِن قبيل تفاخر كلِّ شعب بحضارته وعرقه وثقافته في الزَّمن الغابر، بشيء مِن التَّهويل والتَّضخيم. وقد وقع بعض المنتسبين للإسلام في فخِّ هذا الادِّعاء، في ظلِّ فهمهم الخاطئ لأخبار الوحي، وتأويلهم الخاطئ لتعابيره الواردة في بعض القصص.

ويتناسى هؤلاء أنَّ البشرية منذ اختلفت زمن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وما بعده، سارت على خطَّين متوازيين: خطُّ الدُّول الكافرة والفاجرة والظَّالمة، وهو الخطُّ الأكثر حضورًا وانتشارًا وظهورًا عبر التَّاريخ، كما أفادت نصوص الكتاب والسُّنَّة؛ وخطُّ الإيمان والبرِّ والعدل، وهو الخطُّ الأقلُّ حضورًا وانتشارًا وظهورًا

عبر التَّأريخ. **وفي الحديث:** (إنَّكم تُتِمُّونَ سبعينَ أمةً، أنتم خيرها وأكرمها على الله)[1]، ويُقصد بالأمم هنا نلك التي استجابت للرِّسالة وأقامت دولة، فهي إذن أمم محصورة العدد، خلافًا لأمم الأرض الأخرى فإنَّها تتجاوز هذا الرَّقم أضعافًا مضاعفة جدًّا، **وفي الحديث:** (إنَّ أُمَّتي في الأُمَمِ كالشَّعَرَةِ البَيضاءِ في الثَّورِ الأسوَدِ)[2]، كناية عن كثرة الأمم الأخرى مقارنة بأمَّة محمَّد ﷺ.

ومعلوم أنَّ خير أمَّة، وأعظم أمَّة، هي أمَّة محمَّد -عليه الصَّلاة والسَّلام، وهي أطول الأمَّة بقاء وأوسعها انتشارًا، ورغم ذلك فإنَّ ملكها لم يبلغ، ولن يبلغ، الأرض كاملة.

ومشكلة هذا الفريق الذي يخطئ التَّأويل هو فهمه للفظة "الأرض"، والتي تأتي في النُّصوص بدلالات مختلفة، فيظنُّ أنَّ المراد بها كلَّ الأرض، ولا يعي أنَّ "الأرض" حيث أطلقت في القرآن الكريم أو السُّنَّة المطهَّرة أوِّلت بحسب سياقها. **فقول قوم فرعون لفرعون:** ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[3]، لا ينصرف للأرض التي قال الله عنها: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾[4]، فتلك تشير

---

(1) **أخرجه:** الترمذي، رقم: (3001)، وابن ماجه، رقم: (4288)، وأحمد، رقم: (20049)، والدارمي، رقم: (2802)، بلفظه.

(2) البخاري، رقم: (6529).

(3) الأعراف: 127.

(4) الأعراف: 137.

لأرض مصر وهذه تشير لأرض الشَّام. وربَّما أطلقت الأرض في خطاب الشَّارع وأريد بها الأرض المعهودة في وعي المتلقِّي أو خبرته، **فقوله تعالى**: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]، يشير في وعي الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ إلى مكَّة، حين كانوا مستضعفين بها قبل الهجرة.

وعليه فإنَّ مصطلح "الأرض" الوارد في بعض الرِّوايات، فيما يخصُّ أنَّ هناك مَن (ملك الأرض)، وهم: سليمان بن داود وذو القرنين، ونمرود وبخت نصَّر، وهي روايات مِن حيث السَّند موقوفة أو مرفوعة، وهي مِن حيث الحكم عليها إمَّا ضعيفة أو موضوعة[2]. والمشكلُ فيها النَّصُّ على أنَّه (لم يملك الأرض -كلَّها- إلَّا أربعة)، أو (الملوك الذين ملكوا الأرض أربعة)، أو (أوَّل ملك مَلَكَ في الأرض، شرقها وغربها)، وهو ما جعل البعض يفهم مِنها بأنَّ المقصود بكلِّ الأرض، شرقها وغربها، الكرة الأرضية أجمع، وهذا يخالف التَّاريخ وما ورد في النَّصوص الشَّرعية مِن أخبار.

فإنَّ سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ورث مملكة داود، والتي هي مملكة بني إسرائيل،

---

(1) الأنفال: 26.

(2) مِنها ما ورد في مستدرك الحاكم، ومصنَّف ابن أبي شيبة، رقم: (31916)، عن مجاهد، وأخرجه الثَّعلبي، في تفسيره: (6/ 190)، والطَّبري، في تفسيره: (1/ 120)، و(4/ 571)، وابن أبي حاتم الرَّازي، في تفسيره، رقم: (15689)، وابن الجوزي، في المنتظم: (1/ 295)، وغيرهم، بألفاظ عدَّة.

ومعلوم أنَّ ملك بني إسرائيل لم يبلغ كلَّ الأرض، بل كان في الشَّام وما حولها إلى حدود مملكة سبأ جنوبًا. ولا يدَّعي بنو إسرائيل أنَّهم حكموا كلَّ الأرض، ولا هو ثابت في كتب التَّاريخ عن غيرهم مِن الأمم، إذ لو وقع لتظافرت وتواترت عليه أخبار الأمم.

كما أنَّ ذا القرنين لم يحكم كلَّ الأرض، فقد بلغ ملكه ما حكى الله عنه، وفق ما مكَّنه فيه مِن أسباب أخذ بها؛ وجعل القرآن لحدود ملكه أمارات وعلامات ينتهي عندها. كما أنَّه لم يتغلَّب على أرض يأجوج ومأجوج، وهم مِن جملة أمم الأرض الظَّاهرة التي شكا مِنها قوم دخلوا في سلطانه.

وأمَّا نمرود فقد حكم أرض العراق وما جاورها، فلمَّا خرج مِنها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهاجر مِنها وقصد مصر، وجد بمصر دولة أخرى وملكًا آخر. وله قصَّة في مصر مأثورة في كتب الحديث، مروية عن الرَّسول ﷺ[1]، وكيف أنَّ ملك مصر وهبه هاجر (أمُّ إسماعيل). فعُلم أنَّ مصر لم تكن تحت ملك نمرود، ولو كانت جميع الأرض في سلطان نمرود لما كان لهجرة إبراهيم إلى مصر والشَّام معنى.

وأمَّا بُختَ نَصَّر فهو كنمرود حكم أرض الرَّافدين والشَّام، وما حولهما، ولم يعرف عنه تاريخيًّا أنَّه حكم الأرض جميعًا. فإنَّ الاستيلاء على معظم الأرض يتطلَّب قدرة فائقة وزمنًا طويلًا تنقطع دونه الآجل في الزَّمن القديم.

---

(1) انظر: البخاري، رقم: (3358)، ومسلم، رقم: (2371).

ولو صحَّت تلك المرويَّات، فإنَّها تصدق على أرض الشَّام وما حولها، وهي الأرض التي تتحدَّث عنها الكتب السَّماوية باعتبارها موطن الصِّراع بين قوى الإيمان والكفر. فلا يبعد أن يكون الأربعة قد حكموها، ولكنَّ ذلك لا يمنع أن يكون قد حكمها غيرهم، سواء مِن المؤمنين أو مِن الكافرين؛ خاصَّة وأنَّها كانت تجمع بين: أهميَّة الموقع الجغرافي، ووفرة مياهه وخصوبته إذ هي مشبعة بالأنهار والبحيرات العذبة بين دجلة والفرات شرقا والنيل غربا، كما أنَّها تمثِّل أرضًا مقدَّسة تنبعث فيها النُّبوَّات المناهضة لدول الاستكبار والطُّغيان. لهذا، عندما تحوَّلت خلافة المسلمين إلى الملك تحوَّلت عاصمتها إلى دمشق ثمَّ بغداد، ثمَّ القاهرة.

الفقه والسِّياسة.. جدليَّة الماضي والحاضر

كما أنَّ الثَّقافات الأخرى لديها جدليَّاتها حول علاقة الفكِّر بالسِّياسة، أو الثَّقافة بالسِّياسة، فإنَّ ضمن جدليَّاتنا التَّاريخيَّة -نحن المسلمون- جدليَّة علاقة الفقه بالسِّياسة، وهي جدليَّة بدأت منذ عهد النُّبوَّة. ففي السِّيرة أنَّ رسول الله ﷺ، عندما توجَّه لبدر، نزلَ منزلًا، فجاءه الحباب بن المنذر بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزَلكَه اللهُ ليس لنا أن نتقدَّمه، ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرَّأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل هو الرَّأي والحرب والمكيدة). فقال: يا رسول الله، فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالنَّاس حتَّى نأتي أدنى ماء مِن القوم، فننزله ثمَّ نغوِّر ما وراءه مِن القُلبِ، ثمَّ نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً، ثمَّ نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله: (لقد أشرت بالرَّأي)[1]. فقد كان رسول الله يجمع بين مكانة النَّبيِّ الموحى إليه، ومكانة القائد السِّياسي المجتهد في مهمَّته، ومِن ثمَّ فربَّما التبست بعض تصرُّفاته ما بين الوحي الإلهي والرَّأي البشريِّ. وهذا الأثر العظيم يُظهر كيف أنَّ هناك دائرة للوحي لا ينبغي تجاوزها عند وضوحها وبيانها، ودائرة للرَّأي لا دخل

(1) **القصة لها أصل مشهور**، مقبول، متداول عند عامَّة أهل السير، ولم يستنكره أحد مِن أهل العلم، وإن لم يثبت لها سند صحيح، انظر: حول صحة قصة مشورة الحباب بن المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم بدر، الإسلام سؤال وجواب، في: 1/ 9/ 2019م، على الرابط التالي:
https://2u.pw/b9RFQ

للنَّصِّ فيها بأيِّ وجه مِن الوجوه، وإنَّما هي اجتهاد بشري قابل للصَّواب والخطأ، إذ لا تنسب القابليَّة للصَّواب والخطأ للوحي.

وحركة النَّاس في الحياة تتردَّد بين أمرين، فتكون تارة أقرب لطرف أكثر مِن الآخر، أو ضمن دائرته التي لا ينبغي أن يُعتدى عليها؛ وهذان الأمران اللَّذان تتردَّد حركة النَّاس بينهما هما: الوحي الإلهيُّ والرَّأي البشري. وإذا كان اشتغال الفقه حول القطب الأوَّل، فإنَّ اشتغال السِّياسة حول القطب الثَّاني، وبين القطبين مدارج مِن الالتقاء والتَّقاطع لا شك.

وفي السُّنَّة النَّبويَّة جاء الفقه مقرونًا بالدِّين كلِّه، كما ورد عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، في دعائه لعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (اللَّهُمَّ فقِّهه في الدِّين)[1]؛ وهذا يشمل فقه مقاصده وغاياته، وقواعده وأحكامه، وأخلاقه وحركته، وسنن تلك الحركة. فكان عبد الله بن عباس في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذو حظوة ومكانة، لما يعلم مِنه مِن فقه الدِّين، لذلك كان ابن عباس مِن أهل مجلس الشُّورى عنده، وليس الفتيا فحسب.

هذا المفهوم الواسع للفقه اختُزِلَ مع توسُّع علوم الدِّين وتشعُّبها في فقه الفتوى؛ فالفقه في العرف الاصطلاحي، لدى واضعي العلوم الإسلاميَّة، هو العلم بالأحكام الشَّرعيَّة العمليَّة (التَّكليفيَّة) المستنبطة مِن أدلَّتها التَّفصيليَّة؛ أمَّا الفقه في الاصطلاح الشَّرعيِّ (الكتاب والسُّنَّة) فهو بمفهومه اللُّغوي، أي الفهمُ،

(1) البخاري، رقم: (143).

وإدراك غرض المتكلِّم مِن كلامه، واستنباط المعاني الدَّقيقة مِنه، سواء تعلَّق بالأحكام العمليَّة أو غيرها. **يقول تعالى:** ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾[1]، **وفي الحديث عنه** عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (نضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ منَّا حديثًا فحفظَهُ حتَّى يبلِّغَهُ، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هوَ أفقَهُ مِنهُ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ ليسَ بفقيهٍ)[2]. **وفي الصَّحيحين**، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به مِنَ الهُدَى والعِلمِ كَمَثَلِ الغَيثِ الكَثِيرِ أصابَ أرضًا، فكانَ مِنها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ فأنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكَثِيرَ، وكانَت مِنها أجادِبُ أمسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ فَشَرِبُوا وسَقَوا وزَرَعُوا، وأَصابَت مِنها طائِفَةً أُخرَى إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللهِ ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللهُ به، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَم يَرفَع بذلكَ رَأسًا، ولَم يَقبَل هُدَى اللهِ الذي أُرسِلْتُ بِهِ)[3]. فالفقه في هذه النُّصوص ورد بمفهومه اللُّغويُّ لا الاصطلاحي المحدث.

وإذا كان "الفقه" في اصطلاح الفقهاء هو مجموعة المسائل والأحكام الَّتي وصلت للمُكلَّفين عن طريق الوحي، أو استنبطت مِنه بالاجتهاد، فإنَّ الدَّائرة العمليَّة للفقه ضاقت عن مدلولها الأعمِّ إلى مدلولها الأخصِّ. كما أنَّ دائرة

---

(1) النساء: 78.

(2) صحيح أبي داود، رقم: (3660).

(3) البخاري، رقم: (79)، ومسلم، رقم: (2282).

العبادات هي أكثر دوائر الفقه اعتمادًا على النَّصِّ، إذ مبناها على التَّوقُّف، وأقلُّها حضورًا للقياس، أمَّا بقيَّة أبواب الفقه فتتدرَّج مِن هذه الرُّتبة مع النَّصِّ لصالح الدَّائرة الأوسع، والَّتي مدارها الإباحة والقياس، والقياس وجه مِن وجوه الرَّأي لكنَّه يتقيَّد بالنَّص المرجع.

وتحت وطأة انحراف الحكم عن وظائف الخلافة وأدوار الإمامة إلى سطوة السُّلطة واستبداد الرَّأي وتعطيل الشُّورى، انشغل الكثير مِن العلماء بأبواب الفقه الخاصِّ "الاصطلاحي"، مُعرضين عن السِّياسة، وانشغلوا بنصوص الوحيِّ، واهتمُّوا بجوانب الفتوى، في حين كان الحكم والقضاء يتسرَّب شيئًا فشيئًا مِن دائرة الشَّرع، حتَّى جاء مِن يسعى لتطبيق القوانين الوضعيَّة المستوردة.

لقد قدَّم الخلفاء الرَّاشدون التَّطبيق الأمثل للسِّياسة باعتبارها دائرة الرَّأي الأوسع حضورًا، والأسرع تحوُّلًا، والأكثر نموًّا، مع بقاء إعمالهم للوحي مرجعيَّة عليا ومصدرًا للأحكام والقوانين الشَّرعيَّة المتعلِّقة به. فجمعوا بين عقليَّة السِّياسي وعقليَّة الفقيه، بين الرَّأي والوحي، بين الشُّورى والشَّرع، في انسجام متكامل ونسيج واحد متآلف. ولأنَّ الخلفاء الأربعة كانوا على قدر عالٍ مِن الإيمان والوعي والإدراك والتَّأهل القيادي والمكنة الفقهيَّة فقد جاءت سياساتهم وأقضياتهم وفتاويهم واجتهاداتهم النَّظريَّة غاية الهداية والرُّشد. ثمَّ انفصل الحكم عن الوحي، أو كما عبَّر عنه ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالاصطلاح القرآني: "الكتاب عن الحديد"، **ويقصد بذلك** أهل السِّياسة والقوَّة عن أهل الفقه والكلمة. هذا الانفصال كان على مستوى الواقع والشُّعور والوعي والبنية

النَّفسيَّة والشَّخصيَّة، حيث بات للسِّياسة رجالها وللفقه رجاله.

مع التَّحوُّلات والتَّغيُّرات، وشدَّة إحكام أهل السُّلطة على الحكم وإقصاء العلماء أو انسحابهم عن السِّياسة، بدأ مفهوم الفقيه ينصرف لمفهوم وظيفيٍّ ضيِّق. فالفقيه إنسان منكبٌّ على علوم نظريَّة، وحِلَقِ الدَّرس، وحِفظِ المتون، وقراءةِ الكتب، يبحث في بطون المؤلَّفات عن إجابات لأسئلة حول الحكم الشَّرعيِّ التَّعبُّديِّ، والجيِّد مِن الفقهاء مَن يطَّلع على أحوال النَّاس ويدرك واقعهم، ويتفقَّه في السُّنن البشريَّة والاجتماعيَّة والنَّفسيَّة ممَّا يتعلَّق بمدارات اهتماماته، ليعرف حقيقة الواقع الَّذي يُفتي فيه وينزِّل الأحكام عليه، ونظرته إلى عوائدهم وأعرافهم وطبائعهم ولغاتهم وظروفهم مِن جهة تأثيرها على التَّصوُّرات والأحكام ليعرف مقاصدهم ومفاهيمهم المرجعيَّة لهم خارج أطر الشَّرع. لذلك أكَّد الأئمَّة على هذا الجانب مِن المعرفة في شخصيَّة الفقيه. غير أنَّ الفقيه انسحب مِن المعرفة –والوعي– بحركة المجتمع المسلم، تحوُّلًا وتغيُّرًا، وتدافعًا واشتباكًا، ونهوضًا وإخفاقًا، وضعفًا وقدرة، واجتماعا وتشتُّتًا، وتقدُّما وتخلُّفا، وسنن هذه الحركة وما ينبغي إزاءها.

إنَّ عقليَّة الفقيه تتشكَّل في ضوء النُّصوص، بينما تتشكَّل عقليَّة السِّياسي في ضوء الواقع، وفي حين تكون طبيعة الفقيه صارمة تكون طبيعة السِّياسي مرنة. ومتى غلب أحد الأمرين على صاحبه انزاح مِن ميدان إلى ميدان، ومتى جمع بين الأمرين جمع بين الهداية والرُّشد. **وفي الحديث، الصَّحيح المشتهر**: (فإنَّه مَن يعِش مِنكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ المهديِّين

الرَّاشدين تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ)[1]. فالهداية استنادها للوحي، والرُّشد استناده للرَّأي، وبهذا يصبح قوام الأمَّة المسلمة في حياتها على "النَّقل الصَّحيح والعقل الصَّريح"، وبهما يقوم شأنُّها مجدَّدًا كما قام في العهد الأوَّل.

جاء عن عبد الرَّحمنِ بن عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّه قال لعمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد بلغته مقولة في الحجِّ فأراد أن يخطب بالنَّاس في الحجِّ: "يا أمِيرَ المؤمنينَ.. إنَّ الموسمَ يجمعُ رعاعَ النَّاسِ وغوغاءَهم، وإنِّي أرى أن تُمهِلَ حتَّى تقدمَ المدِينَةَ، فإنَّها دارُ الهجرةِ والسُّنَّةِ والسَّلامَةِ، وتَخلُصَ لأهلِ الفِقهِ وأَشرافِ النَّاسِ وذَوِي رَأيِهم". فقال عمرُ: "لَأَقُومَنَّ في أوَّلِ مَقامٍ أقومُه بالمدينة"[2]، فميَّز عبد الرحمن بن عوف بين الفقه والرأي في دلالة على أهمِّية كليهما.

وقد أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عندما أحاط الأحزاب بالمدينة، أن يخفِّف عن المسلمين وطأة الحرب، وذلك بالتَّصالح مع غطفان، على أن يرجعوا إلى ديارهم ولا يُحارِبوا، على أن يعطيهم رسول الله ثلث ثمار المدينة؛ فلمَّا أراد أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: "يا رسول الله.. أمرًا تحبُّه فنصنعه، أم شيئًا أمرَك الله به لا بُدَّ لنا مِن العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟". قال: (بل شيئًا أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلَّا لأنَّني رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالَبُوكم مِن كلِّ جانب، فأردتُ أن أكسرَ عنكم شوكتهم إلى أمر ما)[3]. **هذا الأثر** فيه أنَّ كبار الصَّحابة –

(1) **رواه** الترمذي وأبو داود وابن ماجة؛ انظر: الصحيح المسند، للوادعي، رقم: (938).

(2) البخاري، رقم: (3928).

(3) سيرة ابن هشام: ج3/ 903– 904.

مكانة، مِن المهاجرين والأنصار- كانوا يميِّزون بين منطق الوحي الَّذي لا اعتراض عليه، ومنطق الرَّأي الَّذي يتيح الاعتراض، بل والرَّفض، وهو ما أظهره زعيما الأوس والخزرج، في ذلك المقام. وهي صورة مقابلة للاتِّباع غير الرَّاشد الَّذي وقع فيه بعض الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فأنكره الرَّسول ﷺ عليهم، ووجَّههم للمسار الصَّحيح فهمًا وعملًا: (إن كانَ شيئًا مِن أمرِ دُنياكم فشأنُكم بهِ، وإن كان مِن أمرِ دينِكُم فإليَّ)[1].

هذا التَّمييز بين القضايا الدُّنيويَّة الصِّرفة وبين القضايا الدِّينيَّة الصِّرفة ليس مِن قبيل التَّمييز بين متناقضات أو متضادَّات، لكنه فصل اختصاص وتمييز بين مجالات لكلٍّ مِنها أطرها النَّاظمة والحاكمة. وسعي البعض إلى خلق تناقض وتضادٍّ بين شئون الدُّنيا والدِّين، هو كسعي البعض إلى جعل الشأنين شأنًا واحدًا مِن قبل غلاة الالتزام والتَّديُّن، حين يفقدون الهداية والرُّشد.

ولا شكَّ أنَّ محدثات فرق (الخوارج)، و(التَّشيع)، و(التَّصوُّف)، و(الكلام)، والحكَّام، أثَّرت في جدليَّة علاقة النقل بالعقل، والوحي بالرَّأي، والدِّين بالدُّنيا، والشَّريعة بالحياة، مِن خلال مفاهيم ومصطلحات وتقريرات أضرَّت كثيرًا بميدان المعرفة أوَّلًا، وميدان الفهم والفقه ثانيًا، ثمَّ ميدان التَّطبيق والتَّنزيل ثالثًا. وأنَّ ردود الأفعال بين هذه التَّيَّارات ولَّدت أفكارًا وآراء متطرِّفة باتِّجاه ما خلقته هذه الفرق مِن تطرُّفٍ سابق. وأيُّ تأصيل وتقعيد لا يعود

(1) ابن ماجة، رقم: (2019)؛ وهو في مسلم، **ولفظه**: (أَنتم أَعلمُ بأمرِ دنيَاكُم)، رقم: (2363).

للأصلين (الكتاب والسُّنَّة)، والعقل السَّليم الصَّريح، وتطبيقات الرَّسول ﷺ، وصحابته، وخاصَّة الخلفاء الرَّاشدين، لقضايا السِّياسة والفقه، سيقع متأثِّرًا بكثير مِن المحدثات الَّتي دخلت على النُّظم المرجعيَّة للمعرفة والوعي الإسلاميِّين.

الإسلاميُّون والوعي بالمصطلحات السياسية

تمهيد:

نتيجة للجمود الفقهي، والتعصُّب المذهبي، والسلوك التقليدي، لعقود أو ربَّما قرون، عاشت فيها الأمَّة الإسلامية حالة مِن التخلُّف والجهل، انسدَّت عليها آفاق التجديد والتوليد والابتكار وصناعة الأفكار وإثراء الآراء، حتَّى صحت على غزو الشعوب الأوربِّية لبلدانها واحتلالها لتلك البلدان. ولم يكن المفاجئ للأمَّة الإسلامية في هذا الغزو ذلك التفوُّق في المعدَّات والأجهزة والوسائل المادِّية، والذي فاق إمكانيات الأمَّة ووسائلها، وإنَّما كان المفاجئ تلك القفزات التي حقَّقتها شعوب أوربَّا الهمجيَّة والمتخلِّفة والمتعصِّبة والجاهلة في مستوى النظم والإدارة والعمران والعلوم والمعرفة والثقافة. لهذا، في حين انهزمت شعوب المنطقة ماديًّا أمام زحف جيوش الغزاة، انهزمت كثير مِن النخب أمام ذلك التفوُّق الذي حقَّقته أوربَّا ماديًّا وعمرانيًّا وإداريًّا، وعلى صعيد الأفكار والعلوم والمعرفة والثقافة؛ فابتليت الأمَّة بهزيمتين: هزيمة عسكرية (وإن ظلَّت الشعوب نافرة مِن فكر المحتل وثقافته)، وهزيمة نفسية (وإن كانت النخب لم تدخل في صراع عسكري).

ولأنَّ ثقافة الغالب تهيمن وتسود فإنَّ العالم الإسلامي واجه تسرُّبًا لكثير مِن الأفكار والعقائد والتصوُّرات والنظم والسلوكيَّات. وقد تنوَّع الموقف مِن هذا

الوافد الأجنبي حدَّ المسافة بين تطرُّف وتطرُّف مقابل، فإمَّا قبول أعمى أو رفض أعمى. وظلَّ مبدأ الصراع والنزاع منسحبًا مِن الميدان العسكري إلى الميدان السياسي والاقتصادي والفكري والثقافي والمعرفي. فقد كان التوجُّس والرفض، نتيجة الهجوم العدواني للأوربِّيين على شعوب المنطقة، هو المبدأ السائد، خصوصًا في ظلِّ النفور الديني والأخلاقي وتباين اللغة والقوميَّة. وظلَّت دائرة القبول المطلق ضيِّقة جدًّا، وإن وُجِدت رعاية ودعمًا وتشجيعًا مِن المحتلِّ الغازي. وبين مساري القبول المطلق والرفض المطلق كانت هناك شريحة تنقد وتقيِّم وتنتقي، وإن تفاوتت جهودها بين ميدان وآخر، ووقت وآخر، وبلد وآخر.

وللأمانة، ولأنَّ بعض المفاهيم السياسية التي أقبل بها المحتلُّ الأوربِّي -في القرنين المتأخِّرين- كانت تمسُّ مصالح أصحاب السلطة والنفوذ والثروة فإنَّ كثيرًا مِن هؤلاء أخذوا موقف العداء المطلق للثقافة والفكر والعلوم والمعرفة الوافدة، لا مِن منطلق ديني، ولكن مِن منطلق الإبقاء على مصالحهم المتعلِّقة بالسلطة والنفوذ والثروة، وحمايتها مِن وعي الشعوب الإسلامية أن تنتفض عليهم. ولعلَّ بعضًا مِن هذه القوى دعم حركات التحرُّر والاستقلال لا مِن منطلق حقيقة التحرُّر والاستقلال للشعوب ولكن مِن منطلق ألَّا يزاحمه المحتلُّ في سلطانه ونفوذه وثرواته. وهذا القول ليس دفاعًا عن الاحتلال الأجنبي الذي ارتكب أعظم صور الإبادة والجرائم والتدمير والنهب والسلب، ولا غمطًا لوجود شريحة مِمَّن كان جهادهم ومقاومتهم للمحتلِّين الغزاة خالصة لوجه الله وبدافع ديني وقيمي، وإنَّما هو إيضاح لبعض الوقائع التي قد تخفى مع غبار المعركة.

ورغم خروج المحتلِّين، والإعلان عن قيام دول مستقلَّة في العالم العربي والإسلامي، إلَّا أنَّ ارتباط الأنظمة الحاكمة، والنخب الثقافية والفكرية والقوى الحزبية بالمحتلِّين ظلَّ قائمًا، وظلَّت معركة التحرير والاستقلال تدور بأشكال أخرى.

لكن، وفي ظلِّ حالة الصراع تاهت الكثير مِن العقول في زحمة الخصومات مِن ناحية، والمواقف المتطرِّفة مِن ناحية أخرى، والتي كانت مواجهة أصحابها مكلفة جدًّا، وأصبحت غير قادرة على التمييز العادل والمتوازن للأفكار والرؤى والآراء والعلوم والمعارف الوافدة إلينا، إذ أنَّ النفور مِنها، والشكَّ فيها، كانا سيِّدا الموقف النفسي مِنها. ولا زالت الأنظمة الحاكمة الخبيثة تحاول أن تحارب الجيِّد والمفيد مِن هذه الأفكار والرؤى، بما في ذلك الأحزاب والقوى المتضرِّرة مِنها كذلك؛ وإن قبلت الأخذ بالعلوم والمعارف الطبيعية والمادية والتقنية الجامدة التي لا تتَّصل بوعي الشعوب وحركتها وضميرها ووجدانها، وإن قبلت أيضًا بالأخذ بالقوانين التشريعية المزاحمة للشريعة في القضايا التفصيلية للمجتمع المتَّصلة بقضايا الزواج والطلاق والميراث والمعاملات الاقتصادية، أمَّا المفاهيم الكبرى في السياسة التي تسقط هيمنتها واستبدادها واحتكارها للسلطة والثروة، وهضم حقوق وحرِّيات الشعوب فهي تحاربها بكلِّ الوسائل، تارة باسم الدين وتارة باسم الوطنية وتارة باسم الأمن.

ورغم مرور عقود مِن خروج المحتلِّين الأجانب، ورغم جهود الشعوب لإسقاط الأنظمة المستبدَّة بكلِّ صورها وأشكالها، إلَّا أنَّها لم تتمكَّن مِن التغيير

لأنَّ وعيها ومِن ثَمَّ سلوكها الصادر مِن هذا الوعي لا يزال ضعيفًا ومرتبكًا ومتردِّدًا. فلا زال هناك صوت يتحدَّث باسم الدين يعيق نهضة شعوبنا، ويُسهم في تخلُّفها وبقائها أسيرة الميراث التاريخي والفقه التقليدي الجامد دون تجديد واجتهاد، وكأنَّه الدين الذي لا ينبغي إحداث شيء فيه. خصوصًا على المرحلة التالية للخلافة المهديَّة الراشدة، والمؤسِّسة للأحكام الملكية السلطانية بكلِّ ما فيها مِن غلو في الحاكم، أو جمود على شكل الدولة وهيكلها.

وإنَّ معركة الوعي السياسي بعد تحقُّق الإيمان والعبودية لله تعالى، وإخلاص النيَّة له، أعظم قضايا الأمَّة ومعاركها أهميَّة، لأنَّ قيامها بكلِّ أوامر الله تعالى الخاصَّة والعامَّة في نفسها، وفي مَن يدخل تحت سلطانها مِن أهل الملل الأخرى، وفي العالم الخارجي المتَّصل بها، لن يتمَّ دون أن تكون أمَّة خلافة مهديَّة راشدة، لا بالصورة الأولى بالضرورة، ولكن بصورة تعبِّر عن العصر الحديث بكلِّ ما طرأ على الحياة مِن تغيُّر وتطوُّر وتحوُّل.

والابتداء في هذا الوعي يأتي مِن قبل تحرير العقل المسلم مِن الجمود القاتل، والظاهرية المارقة، والتقليد الأعمى، والتعصُّب المضل، وإنكار ما لدى الآخرين مِن حقٍّ وصواب مهما بدت براهينه وعلاماته وأدلَّته. وإنَّما استجاب لدعوة محمَّد ﷺ أقوام حرَّروا عقولهم ممَّا ساد في قومهم مِن الظنون والأوهام والتصوُّرات والأفكار واستمعوا للقرآن الكريم، وهو بذاته كان خطابًا للعقول والضمائر، بيِّن الألفاظ ثري المعاني محكم النظم وافر البراهين شامل الرؤى، فلما رأوه يوافق مقرَّرات العقول وبدهيَّاتها، والفطر السليمة ومسلَّماتها، ويطرح

الأدلة ويناقش الآراء، آمنوا بصدقه وبكونه حقًّا منزلًا مِن عند الله. وأعرض عن الرسول ﷺ قوم جعلوا أصابعهم في آذانهم، فرفضوا الاستماع لكلام الله، أو استمعوا له وجحدوا ما فيه مِن الحقِّ والصواب، لأنَّه خالف ما هم فيه.

وفي هذه السطور اليسيرة، أعرض باختصار غير مخلٍّ وعرض غير مملٍّ بعض الأمور المهمَّة المتَّصلة بالوعي السياسي وما يتعلَّق به مِن عبارات ومصطلحات.

مبادئ أوّلية:

هنا جملة مِن المبادئ التي لا ينبغي الخلاف عليها أو إهمالها في نظرتنا لقضايا الوعي السياسي، وخصوصًا بما يستجدُّ في عالم السياسة ممَّا هو مِن مكتسبات البشر وتجاربهم وخبراتهم واجتهاداتهم؛ أمَّا ما كان صادرًا مِن الشرع، محكمًا واضحًا بيِّنًا ثابتًا فهذا المرجع والأساس والمعيار.

1 – **أصحاب الملل والأديان الأخرى ليسوا على باطل مطلق**، لا حقَّ فيه، ولا هدى، ولا عدل، ولا خُلُق، ولا خير. فإنَّ الباطل المطلق لا تقوم به مصالح الدنيا فضلًا عن مصالح الآخرة:

هذه الحقيقة يجب التسليم بها والعمل بمقتضاها، فحكمنا على كفر غير المسلمين، لا يعني أنَّ ما هم فيه باطل محضٌ وشرٌّ محض وخطأ محض، وهذا ما قرَّره الشرع وأقوال العلماء. فقد شهد الله تعالى لأهل الكتاب بما هم عليه مِن ارتباط بالرسل والرسالات والكتب، وشهد الرسول ﷺ لما للعرب –رغم

شركهم- مِن الفضائل والمحاسن. وهكذا جرت سنَّة الخلفاء وأئمَّة الإسلام مِن العلماء والفقهاء. فمتى عرف المسلم ذلك عرف أنَّه يتشارك مع بقيَّة البشر معانٍ مختلفة، وأنَّ لديهم مِن الأمور ما يمكن أن يستفيد مِنها، طالما أنَّها لا تناقض أصول الإسلام أو تضادَّ أحكامه أو تعارض أخباره. وقد شهد عليه الصَّلاة والسلام بعدل النجاشي رغم كونه على غير شريعته. واستحسن قضاء هانئ بن يزيد بن نهيك (أبو شريح)، وقد كان يحكم بين الناس في الجاهلية فيرضون بحكمه حتَّى كنِّي بـ(أبي الحكم).

وإذا تقرَّر هذا المبدأ وجب تقرير المبدأ التالي وهو..

2- **الإسلام جاء بالعدل والإنصاف مع كلِّ أصحاب الأديان والملل**، والاعتراف بما لديهم مِن حقٍّ وصواب وعدل:

فإنَّ الإقرار بما لدى الخصوم والمخالفين مِن حقٍّ بيِّن وصواب ظاهر وعدل واضح مِن لوازم الهداية والبصيرة والرشد، ولا ينكرها إلَّا ضال أعمى سفيه. لهذا أمر الله تعالى المؤمنين بقبول الحقِّ ممَّن جاء به، والتقيُّد بالعدل ممَّن صدر عنه، والشهادة للمصيب مهما كان خلافنا معه. ومتى لمس غير المسلمين هذا العقل والعدل والإنصاف مِن المسلمين عرفوا أنَّهم طلَّاب حقٍّ وحملة رسالة وأصحاب ضمير وخلق. ومتى وجدوا الجحود بما عندهم مِن حقٍّ أو عدل أو خلق أو صواب نفروا مِن الإسلام.

3- **الإسلام لا يمانع مِن قبول الحقِّ والصواب والعدل ممَّن جاء به، ولو كان شيطانًا:**

فهذا يَهوديٌّ أتى النَّبي ﷺ فقال: إنَّكم تندِّدونَ، وإنَّكم تُشرِكون، تقولـون.. ما شاءَ اللهُ وشئتَ، وتقولون والكعبةِ؛ فـأمرَهُمُ النَّبي ﷺ، إذا أرادوا أن يحلِفـوا أن يقولـوا: "وربِّ الكعبـةِ"، ويقولـون: "مـا شـاءَ اللهُ ثـمَّ شـئتَ"[1]. **وجـاء في الحديث** أنَّ طُفَيل بن سَخبَرَةَ، أخو عائشةَ لأُمِّها، رأى في المنام كأنَّه مرَّ برهط مِن اليهود، فقال: مَن أنتُم؟ قالوا: نحن اليهود. قال: إنَّكم أنتم القوم لولا أنَّكم تزعُمون أنَّ عُزيرًا ابنُ الله. فقالوا: وأنتم القوم لولا أنَّكم تقولون ما شاءَ اللهُ وشاءَ محمَّد. ثمَّ مرَّ برهط مِن النَّصارى. فقال: مَن أنتم؟ قالوا: نحن النَّصارى. فقال: إنَّكم أنتم القوم لولا أنَّكم تقولون المسيحُ ابن الله. قالوا: وإنَّكم أنتم القوم لولا أنَّكم تقولون ما شاء الله وشاء محمَّد. فلمَّا أصبح أخبر بها مَن أخبر، ثمَّ أتَى النبيَّ ﷺ فأخبرَهُ، فقال: (هل أخبَرتَ بها أحدًا؟). قال: عفَّانُ. قال: (نعم). فلمَّا صلَّوا خطَبَهم فحمِد الله وأثنَى عليه، ثمَّ قال: (إنَّ طُفَيلًا رأى رؤيا فأخبر بها مَن أخبرَ مِنكُم، وإنَّكم كنتُم تقولون كلمة كان يمنَعُني الحياءُ مِنكم أن أنهاكم عنها، قال: لا تقولوا ما شاءَ اللهُ وما شاءَ محمَّد)[2]. **وفي الحديث الآخر**: (وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)[3]، أي فيما لديهم مِن أمور لا تناقض الإسلام ولا تخالف نصوصه ومعانيه. **وقال** ﷺ: (صدقك وهو كذوب)[4]، عن الشيطان الذي أخبر أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن تأثير آية الكرسي على المسلم إذا قرأها قبل

(1) النسائي، رقم: 3782.

(2) مسند أحمد: (34 / 296 – 297)، وانظر: ابن ماجه، رقم: 2118.

(3) البخاري، رقم: (3461).

(4) البخاري، رقم: (3275).

نومه. والشيطان إنَّما عرف أثرها مِمَّا لمس مِنها في خبرته؛ وقد قبل رسول الله قوله وشهد بصدقه، وإنَّما أخذناها عنه لتصديق النبيُّ له لا لقوله في ذاته.

4- **الإسلام لا يمانع الإفادة مِن أخذ الخبرة والتجربة الإنسانية في الأمور غير العقدية والتعبُّدية والتشريعية:**

فإذا كان الاعتراف بما لدى الآخرين مِن الحقِّ والصواب يشمل الدين والدنيا، فإنَّ الاعتراف بنجاحاتهم الدنيوية ممَّا حقَّه التجربة والخبرة الإنسانية وأخذها مِنهم والإفادة مِنها أولى، إذ مدار هذه الأمور على الإباحة والجواز المطلق، ما لم يثبت في تجربتنا وخبرتنا عكس ذلك، فتردُّ لا لأنَّها صدرت عنهم، ولكن لأنَّ اختبارنا لها أثبت عدم نفعها وضررها بالنسبة لنا. وقد امتدح رسول الله "حلف الفضول"، وهو تجربة تمَّت في عهد الجاهلية تتغيَّا نصرة المظلوم مِن خلال إيجاد حلف رادع للظالم، يقوم على مبدأ ردِّ الحقوق إلى أهلها.

5- **الإسلام لا يهدم كلَّ أحوال المجتمعات** بل يبني على مكارمها وفضائلها ومحاسنها، ويتمِّم عليها ويكمِّلها ويصحِّح وجهتها:

وفي الحديث: (إنَّما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق)[1]، وقد جاء رسول الله وأهل المدينة يُؤبِّرون النخل (أي يلقِّحونه)، فقال: (لو لَم تَفعَلُوا لَصَلُحَ)، فخَرَجَ شِيصًا، فلمَّا رأى رسول الله ذلك قال: (ما لِنَخلِكم؟)، قالوا: قُلت كذا

(1) مسند أحمد، رقم: (8952).

وكذا، قال: (أَنتم أَعلَمُ بأَمرِ دُنيَاكُم)[1]، فردَّ شئونهم إلى خبرتهم السابقة. ولمَّا طاف رسول الله على قبائل العرب في الحجِّ يطلب نصرتهم، وأعجبه أخلاق بعضهم نهض قابضًا على يد أبي بكر، وقال: (يا أبًا بكر أيَّة أخلاق في الجاهلية ما أشرفها! بها يدفع الله عَزَّوَجَلَّ بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم)[2]. فأين هذا ممَّن يرى في المجتمعات الجاهلية شرًّا محضًا وخطأً محضًا؟!

6 - **دين الإسلام يتكوَّن مِن عدَّة دوائر:**

فدائرة العقيدة والإيمان والعبادة والحلال والحرام دائرة الأصل فيها التوقُّف على الوحي (النقل)، وتحكيمه في القبول والردِّ، والتصحيح والتخطئة، والإثبات والنفي. وهناك دوائر أخرى مدارها على الاجتهاد البشري القائم على إعمال (العقل) مِن خلال: الاعتبار والقياس والاستحسان وموازنة المصالح والمفاسد والتعلُّم بالتجربة والإفادة مِن الخبرة وإعمال الشواهد والقرائن، والخلط بين هذه الدوائر ممَّا يؤثِّر على حركة الفقه وعمليَّة الاجتهاد وقضايا التجديد، حتَّى تعطَّلت قدرة العقل المسلم على الهضم والتحليل والنقد والتقييم والإنتاج والتوليد، وأصبح كثير مِن المسلمين لا يشرب إلَّا مِن هواه، مصرًّا على أنَّه المعبِّر الأوحد عن الدين الحقِّ والرأي الصواب.

7 - **السياسة في الإسلام أوسع أبوابه تطوُّرًا وتغيُّرًا** لهذا فمدار السياسة في الإسلام الاجتهاد والتجديد:

(1) مسلم، رقم: (2363).

(2) دلائل النبوة للبيهقي: (2/ 427).

إنَّ الإسلام يقوم على ركيزتين: الحفاظ على الثوابت ومراعاة المتغيِّرات، إذ هو دين للحياة الإنسانية، وهي بدورها تسير في حركتين مركزية ثابتة وفرعيَّة متغيِّرة. وكما الشجرة فإنَّ الساق الثابتة أصل محصور والفروع المنتشرة لا حصر لها، وكذلك الإسلام يستوعب الفروع بردِّها لأصول عامَّة وقواعد كلِّيَّة، ولولا هذا المسلك لخرجت كثير مِن الأمور عن مرجعيَّته. فحتَّى دائرة الإباحة والحلِّ هي أوسع الدوائر حضورًا في فقه الشريعة، خصوصًا كلَّما ارتبط الأمر بأمور الحياة المتشعِّبة والمتحوِّلة. والسياسة هي محلُّ الرأس مِن الجسد في المجتمع، وطالما أنَّ المجتمع ينمو ويتطوَّر وتتطوَّر حركته وأنشطته فكذلك هي السياسة فضاء متحرِّك نشط متجدِّد.

اعتبارات في التعامل مع العبارات:

وهذه الاعتبارات مستفادة مِن كلام أهل العلم وأقوالهم حول الجدال في الألفاظ والدلالات والمعاني والمصطلحات، ولن أسهب في شرحها ونقل الأقوال عليها. وهي:

1 – الأصل في العبارات النظر إلى معانيها ودلالاتها لا إلى ألفاظها الظاهرة فقط.

2 – العبارات قد تحتمل عدَّة معاني بحسب الثقافات والسياقات التي تنشأ فيها أو تنتقل لها.

3 – العبارات قابلة للأفهام المتعدِّدة والتأويلات المختلفة.

4 – مِن العبارات ما يحكمها قصد القائل، ومِنها ما يحكمها ألفاظها ونظمها واستخدامها.

5 – العبارات المشاعة التي تعدَّدت تفسيراتها لا يلزم أحد فيها بتفسير دون آخر.

6 – العبارات المحتملة للحقِّ والباطل، والصواب والخطأ، إذا شاعت لزم المغالبة فيها لا إهمالها بالمطلق.

7 – عادة الناس التجديد في عباراتهم وتنوُّع عباراتهم.

8 – العبارات المحدثة قد تكون حقَّة وقد تكون باطلة، وقد تكون صوابًا وقد تكون خطأ.

9 – لا مشاحَّة في الاصطلاح، أو اللفظ، أو العبارة، أو التسمية.

10 – العبارات التي لا أصل لها في الدين، إن كانت تمسُّ أمور الدين التي مدارها على التوقُّف يتوقَّف فيها، وينظر لمدى اتِّفاقها مع الشرع أو مخالفتها له، فإن كانت مِمَّا يُعارض معاني الدين ومفاهيمه معارضة صريحة واضحة رفضت، وإن كانت لا تعارض الدين ومعانيه ومفاهيمه نُظِر إلى جدواها وفوائدها، فإن كانت صالحة أخذ بها وإن كانت مضرَّة تركت.

11 – الأصل في الأمور الدنيوية تجدُّد التعابير والمصطلحات فيها.

12 – التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ وعبارات متعدِّدة مِن كمال العقل وثراء اللغة.

13 – التمييز بين المعاني المختلفة بعبارات مختلفة مِن تمام التصوُّر ودقَّة الفهم وسعة اللغة.

عبارات ومفاهيم سياسية لا تتعارض مع الإسلام:

إنَّ تميُّز الإسلام ليس في أنَّه يعارض كلَّ ما عند البشر ويبطله، بل تميُّزه في أنَّه يجمع كلَّ الحقِّ الذي تفرَّق عندهم، وكلَّ الصواب الذي اختلفوا عليه، ويضع المعايير والموازين الشرعية والعقلية واللغوية والعرفية للحكم والفصل، كلٌّ في مجاله واختصاصه. وهذا يشمل العقائد والأخبار والشرائع والقيم والأخلاق والآداب. ومِن ثمَّ فما نطرحه هنا مِن عبارات ومصطلحات حديثة في عالم السياسة اليوم لدى المجتمعات الإنسانية سنطرحه مِن حيث ما يمكن أن يحتمله مِن حقٍّ وصواب ومنطق عقلي وخبرة صحيحة.

– النظام الجمهوري:

واعتبار رأي الناس مقدَّر في الشرع، خصوصًا فيما يمسُّ شئونهم ومصالحهم الموكولة لهم. إذ الشرع ينظر لهم باعتبارهم عقلاء مكلَّفون لهم الاختيار، وبموجب الاختيار تكون عليهم المسئولية. وإهدار آراء النَّاس، ومنعهم مِن الوصول لإراداتهم، والتعبير عن خياراتهم، إنَّما هو نهج الملوك المستبدِّين أو الغلاة المتنطِّعين. وإذا كان الله تعالى ترك الدخول في هذا الدين ابتداءً لقرار الناس واختيارهم، لم يأمر بإكراههم عليه، وهو الذي فيه نجاتهم في الآخرة، فكيف بشئونهم الدنيوية التي حمَّلهم مسئوليَّتها؟!

ومع قيام ثورات شعبية ضدَّ ملوك أوربَّا الطاغين الظلمة توجَّهت شعوبها إلى "النظام الجمهوري"، ويُقصد به النظام غير الملكي. فالحاكم يكون مِن عامَّة الناس، يختارونه وينتخبونه، ويصبح رئيسًا لهم على أجل معيَّن، ولا يُعطى في يده سلطة مطلقة بلا حدٍّ ولا رقيب ولا حسيب، ولا يحقُّ له أن يتصرَّف في الشعب والوطن كمالك مطلق، ولا يحقُّ له أن يورِّث السلطة لأحد مِن قرابته أو أبنائه. ولو أجرينا مقاربة لهذا النموذج لوجدناه في عهد الخلافة الراشدة، حيث لم يوصف أحد مِن الخلفاء بالملك، ولا نال سلطة مطلقة، ولا أحال السلطة لميراث لقرابته وأبنائه.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بيعة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّها كانت بموافقة "جمهور الصحابة"، وأنَّه لم يتخلَّف عنه إلَّا القليل جدًّا مِن الصحابة. **وكذلك الأمر** بشأن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إنَّما كانوا خلفاء بمبايعة جمهور الأمَّة لهم وإجماعهم عليهم. وإنَّ إحدى مرجِّحات الأقوال في علوم الفقه والتفسير والشريعة الإجماع، أو قول الجمهور عند كثير مِن العلماء. وقد مال رسول ﷺ في كثير مِن القضايا التي لا نصَّ فيها لرأي غالبية الصحابة، حتَّى في رؤاهم المنامية، أي أنَّه أخذ برأي الجمهور مِنهم.

ولفظة "جمهور" و"جماهير" لفظة معهودة في التراث الأدبي والتاريخي والديني، تشير إلى غالبية الناس. ولم يأت في حقِّها ذمٌّ لذاتها، بل استخدمت في التعبير عن واقع وحال الناس. وتحميل هذا المصطلح معانٍ ودلالاتٍ فوق حمولته، ممَّا يصرفه عن مقصوده مِن التعنُّت والعنت، والتكلُّف المذموم،

خصوصًا أنَّه دلَّ على معنى صحيح في ذاته، وهو عدم قبوله نظام "الملك" كمبدأ للحكم.

والقول بأنَّ النظام الجمهوري يصادم الإسلام، لمجرَّد أنَّ هذا الوصف غير معهود في نصوص الشرع وكتب التراث، قول المقلِّدة الظاهرية، وإلَّا فإنَّ كثيرًا مِن الألفاظ الحادثة في السياسة اليوم والتي شاع استخدامها لم ترد في نصوص الشرع، كالحكومة، ووزارة الخارجية، ووزارة الداخلية،.. ومعانٍ كثيرة ابتكرت للتعبير عن مناصب أو وظائف أو اختصاصات. وكذلك تسمية الدول الإسلامية بالمملكة والسلطنة لم يُعهد في عهد الصحابة ولا التابعين. فإن كان ولا بدَّ مِن نبذ المصطلحات لما يلحقها مِن معانٍ باطلة فإنَّ "الملك" في الإسلام حرف لنظام الحكم فيه عن الخلافة، فليكن أوَّل ما يجب إسقاطه، فإن قيل له وجه مِن الصواب، قيل في النظام الجمهوري مثله، بل هو أقرب لنموذج الحكم في الإسلام في توكيل الاختيار والانتخاب للأمَّة.

- الدولة المدنية:

الدولة كيان يحقُّ إلحاق الوصف به، وقد كان لدى فقهاء الإسلام توصيف لـ"الدار" بما يلائمها. ولفظ "المدني" لفظ عربي، يشير إلى طبيعة الإنسان التي لا يمكنه القيام بمفرده وإنَّما بالاجتماع مع غيره، فهو "مدنيٌّ بالطبع" كما ينصُّ علماء الإسلام. وقد كان أوَّل وصف ليثرب بعد قيام المجتمع الإسلامي فيها "المدينة"، لما قام فيها مِن تعايش بادئ الأمر بين المسلمين وأهل الكتاب وبقايا أهل الشرك. وظلَّ هذا الوصف لصيقًا بها إلى يومنا هذا لا ينفكُّ عنها.

ومصطلح "الدولة المدنيَّة" له استخدامات عدَّة في العرف السياسي والقانوني، وفي الخطاب الإعلامي والحقوقي، وفي الثقافة والفكر، حتى بات يشير على معانٍ عدَّة، بعضها حقٌّ، وبعضها مباح، وبعضها منكر. فمَن قصد بهذا المصطلح الدولة التي لا تقيم للدين وزنًا أو للشريعة اعتبار خرج بمفهوم مناقض لدين الإسلام وشريعته. أمَّا بمفهوم أنَّها دولة غير كهنوتيَّة (ثيوقراطية يحكم فيها الحاكم لكونه متَّصفًا بصفات التقديس أو ببعضها، أو لكون الإله اختاره ونسله لهذا الأمر)، أو غير عسكريَّة، أو غير شمولية، فهذه جميعًا معانٍ صحيحة ولا غبار عليها. فالدولة في الإسلام دولة رشد، لا دولة الجنود المتغلِّبين، ولا الطائفة أو الفئة المتغلِّبة، ولا دولة السلالات المقدَّسة، ولا دولة الزعامات المؤلَّهة.

فعند العموم ينبغي وضع هذا المصطلح في سياقه، فإذا ورد ما يشير إلى خروجه عن المعاني الصائبة والصحيحة ردَّ ورفض، كأيِّ مصطلح تتعدَّد التأويلات له.

- سيادة الشعب:

نسبة السيادة لفرد أو كيان أو شعب في إطار المعنى العرفي الذي لا يخرجه للتقديس والتأليه مأذون به، وقد جاء في الصحيحين عنه ﷺ: (قوموا إلى سيِّدكم)[1]، وفي الأثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أبو بكر سيِّدنا وأعتق سيَّدنا بلالًا"[2].

(1) البخاري، رقم: (3043)، ومسلم، رقم: (1768).

(2) البخاري، رقم: (3754).

ويُقال: المرء سيِّد نفسه إذا كان حرًّا. والمقصود بمصطلح "سيادة الشعب" إلغاء مفهوم الملكية التي تمنح السيادة المطلقة لفرد أو أسرة أو سلالة على الناس. وإذا كان علماء الأمَّة عبَّروا عن الحاكم بأنَّه أجير أو وكيل أو نائب عن الأمَّة، فإنَّهم بذلك عبَّروا عن صاحب الحقِّ في السيادة وإن لم يصرِّحوا بهذا المصطلح، فالأجير والوكيل والنائب لا يتصرَّف إلَّا في حدود ما فوِّض فيه، وأوكل إليه، وأُنيب له، وصاحب الشأن هم الأمَّة أو الشعب.

وقد خاطب الله تعالى في التكاليف العامَّة "الأمَّة"، وأقامها مقام المكلَّف والمسئول عن تلك المهام، في الدعوة والجهاد والحسبة وغيرها، لأنَّها صاحبة الشأن. **وقد جاء في الصحيح**، أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، عندما بلغه أنَّ هناك رجال يتحدَّثون أنَّه لو مات عُمَرُ بايعوا فلانًا: "إنِّي -إن شاء الله- لقائم العَشِيَّة في الناس، فمُحذِّرُهم هؤلاء الذين يُرِيدُون أن يَغصِبُوهم أُمُورهم"، وأضاف: "مَن بَايَعَ رَجُلًا عن غيرِ مَشُورَةٍ مِن المُسلمين فلا يُبَايَعُ هو ولا الذي بايعه تَغِرَّةً أن يُقتَلَا"[1]. فعمر يرى أنَّ اختيار الحاكم وانتخابه حقٌّ أصيل للأمَّة، أو الشعب بمفهومنا اليوم.

يقول سيِّد قطب: "ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولَّى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم -هم رجال الدِّين، كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يُعرف باسم الثيوقراطية، أو الحكم الإلهي المقدَّس! ولكنَّها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن

(1) البخاري، رقم: (6830).

يكون مردُّ الأمر إلى الله وفق ما قرَّره مِن شريعة مبيَّنة"[1]. وحيث أنَّ الشريعة فوَّضت أتباعها بإقامة دولتهم، وإقامة دينهم، فهم سادة على أنفسهم بهذا الدين وفي ظلال تلك الدولة، لا سيادة لأحد عليهم.

فإذا أتى مَن جعل سيادة الشعب مضاهاة لسيادة الله تعالى، وأحال الشعب إلى مشرِّع وحاكم مِن دون الله، ردَّ عليه هذا الفهم وذلك التأويل، ونوزع في المصطلح للصواب الذي فيه؛ فإنَّه لو ترك كلِّ مصطلح صحيح لتأويل فاسد لم يبق لأهل الحقِّ مصطلح يختصُّون به.

- سيادة الدولة:

يُقال في سيادة الدولة، أو ما كان يعبِّر عنه فقهاء الإسلام بسلطان الدولة، ما يُقال في سيادة الشعب، وسيادة الدولة هي تجسيد لسيادة الشعب على وطنه، وهي الهيئة المعبِّرة عن تلك السيادة في صيغة سياسية شاملة. وكما قرَّر ميثاق الأمم المتَّحدة، والمعاهدات والاتفاقات الدولية، والقانون الدولي، فإنَّ سيادة الدولة حقٌّ أصيل لا ينبغي منازعته مِن الدول الأخرى. ومتى ذهب هذا الحقَّ عمَّت الفوضى وساد الهرج والعدوان. وقد اعتبر الإسلام سلطان الدول على شعوبها وإن كانت كافرة، وأجاز لدولة الإسلام التعاقد والتعاهد مع هذه الدول باعتبارها طرفًا ندًّا، ما لم تكن محاربة للإسلام وأهله. كما أنَّه جعل للخارج إليها مِن المسلمين أحكامًا خاصَّة إذ أنَّه يدخل إلى سلطان غير سلطان

(1) معالم في الطريق: ص68.

المسلمين. ومِن ثمَّ نجد أن شعوب العالم وحكوماتها توافقت وتواطأت على هذا المبدأ، وهذا النوع مِن التوافق والتواطؤ معتبر في نظر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ هو صادر عن بصيرة العقلاء في كلِّ الممل والنحل والأديان والمذاهب، وكان يستشهد به في محلِّه[1].

- سيادة القانون:

القانون لفظ أعجمي، يشير إلى النظم والتشريعات التي تحكم جمعًا مِن الناس، أو مجالًا مِن مجالات المعرفة والعلوم، أو المهن والأعمال. وقد جرى استخدامه في التراث الإسلامي وتوظيفه للدلالة على معنى النظام والقواعد والأحكام المحكمة. ولم ينظر للفظ باعتباره كفرًا في ذاته. وإنَّما ورد الإشكال عقب الاحتلال الأجنبي لبلاد المسلمين عند فرض قوانين غير المسلمين على أهل الإسلام، فكان القانون بهذا المعنى نقيض الشريعة. فما كان مناقضًا

(1) **يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذلك أنَّ الله تعالى خلق الإنسان يعلمُ الأمور الضرورية بغير اختياره، كما قد يجهل بعضها، وخلقه بفطرته يخبر بما يعلمه، إلَّا لعارض يغيِّره عن فطرته، وكذلك خلَقَه بفطرته يريد العدل والمصلحة إلَّا لعارض، فهو وإن كان ظلومًا جهولاً فذاك في كثير مِن الأمور، أمَّا أن تكون أمَّة مِن الأمم تجهل كلَّ شيء، أو تكذب في كلِّ شيء، أو تظلم في كلِّ شيء، فهذا لا يتَّفق أبدًا، فإنَّ اجتماع بني آدم في الدنيا، وهو الاجتماع الفطري الطبيعي الذي لا يعيشون بدونه، لا يُتصوَّر مع هذا الإنكار" أي إنكار الضروريات؛ بيان تلبيس الجهمية: (2/ 333). **ويقول أيضًا:** "إنَّ الناس لا يتَّفقون على ضلالة، فإنَّه إذا كان إجماع المسلمين وحدهم لا يكون إلا حقًّا فإجماع جميع الخلق الذين مِنهم المسلمون أولى ألَّا يكون إلَّا حقًّا"، بيان تلبيس الجهمية: (4/ 521).

للشريعة مِن القوانين كان كفرًا في نظر علماء المسلمين؛ فالإشكال لم يكن في اللفظ ذاته وإنَّما للتشريعات المضاهية للشريعة التي كان يحملها. ولهذا سعى بعض علماء الإسلام في زمن الدولة العثمانية إلى تقنين الشريعة؛ أي تحويلها مِن نصوص دينية وفقهية إلى نصوص محكمة مفصَّلة مترابطة بحسب القضايا والمواضيع والمجالات. ومِن ثَمَّ فلم يكن لديهم مانع مِن أن يطلق على الشريعة الإسلامية بهذه الصيغة قانونًا. فإذا كان الأمر كذلك فإنَّ سيادة القانون (إذا قصد به الشريعة وما يوافقها) أمر لا غبار عليه، بحيث لا يخرج أحد لنسبه أو مكانته أو جاهه عنها، ويكون الجميع خاضعون له كنظام عامٍّ للمجتمع. وعندها فلا مشاحاة أن يقال (سيادة الشريعة) و(سيادة القانون) طالما أنَّ القانون المعمول به معبِّر عن الشريعة ومقاصدها وأحكامها.

- حكم الشعب نفسه بنفسه:

يوصف الله تعالى بأنَّه الحكم وأنَّ له الحكم، ولكن القرآن الكريم والسنَّة النبوية استخدما هذا الوصف على المقامات المناسبة، فوصفت الرسول ﷺ بأنَّه حاكم وحكم، ووصفت الخليفة بأنَّه حاكم، والقاضي بأنَّه حاكم. ذلك أنَّ الشريعة لا تعبِّر عن ذاتها بذاتها، وإنَّما يُعبِّر عنها أهلها الحاملون لها المعنيون بإنفاذها، في الفقه والفتيا والقضاء والحسبة والجهاد والدعوة والسياسة. ومفهوم حكم الشعب نفسه بنفسه ينفي جواز قهره مِن قوَّة أجنبية خارجة عليه، أو فرض ما لا يرتضيه مِن دين وشريعة، أو منعه مِن حقِّ اختيار حكَّامه وإدارة

الشورى في شئونه ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، فأمرهم بالأساس لهم، هم مَن يتشاور فيه، ويخرج فيه بالقرار والرأي والاختيار.

فإن جاء مَن يؤوِّل هذه العبارة على وجه فاسد يقتضي نفي مرجعية دين الله وشريعته للمسلمين رُدَّ عليه هذا التفسير والمعنى والتأويل، وأُبقِيَ المعنى الصحيح على التأويل الصحيح مستخدمًا ودالًّا، كي لا يفهم الخصم جواز أن تخضع الشعوب لحكم المحتلِّين أو الأقليَّات أو الجبابرة المستبدِّين، مسلوبة الإرادة والقرار.

- الفصل بين السلطات:

جاءت الشريعة بوظائف عدَّة ومقامات عديدة، فالحاكم والقاضي والمحتسب والمفتي والمعلِّم والداعية وغيرها. وجعلت لكلِّ وظيفة اختصاصًا ومهامًّا وصلاحيَّات؛ ما يشير إلى التمييز بينها على الوجه الذي ينظم حركة المجتمع وأدوار المسئولين عليه فيه. بل لقد بلغ الاهتمام بهذه المقامات ببعض الأصوليين إلى دراسة مقامات الرسول ﷺ في البلاغ والبيان، لما لكلِّ مقام مِن اعتبارات ولوازم تختلف عن الأخرى. **ومع تطوُّر وتوسُّع العلوم والوظائف** وكثرة أفراد المجتمع اعتنى المسلمون بتمييز الوظائف وبيان اختصاصها، وإيكال كلٍّ مِنها لفرد أو هيئة. وهو ما يُعرف اليوم بمبدأ (الفصل بين السلطات)، وهو مبدأ يُعبِّر عن تفكيك مفهوم السلطة إلى مكوِّنات بما لا يُتيح لفرد أو هيئة أن تمتلك السلطة المطلقة في شئون الناس، فتكون هي الخصم

والحكم، والمعلِّم والمفتي والمحتسب، والقاضي والغريم، لما قد ينشأ مِن استغلال أو توظيف مضرٍّ بمقاصد السلطة التي وضعت لإقامة العدل ودفع الضرر وجلب المصالح.

وابتكار هذه العبارة للدلالة بالأساس على حقيقة وجدت تاريخيًّا وعمل بها إنَّما هو تحصيل حاصل، وإعطاء الأمور مسمَّى يختصر شرحها ويحدِّد دلالتها.

- المجلس التشريعي/ المجلس النيابي:

في الإسلام هناك دائرتان مِن التشريع، تشريع ديني وتشريع دنيوي. **فأمَّا التشريع الديني** فهو ما جاءت به الشريعة اختصاصًا، وعبَّرت عنه نصوص القرآن الكريم والسنَّة النبوية، ويلحق بها الأقوال والاجتهادات المعبِّرة عنها تفسيرًا أو تأويلًا أو تنزيلًا أو استنباطًا. **وأمَّا التشريع الدنيوي** فهو ما ترك للناس أن يجتهدوا فيه لأنفسهم على أساس مِن التشريع الديني؛ وسواء صدرت عن الخبرة والمعرفة العقلية، أو الأعراف أو التقاليد السائدة، أو العقود والاتِّفاقات البينية، أو القوانين المنقولة عن الغير.

وفي الثقافة الإسلامية تمثِّل (الشورى) مصطلحًا معبِّرًا عن قرارات وآراء واختيارات الأمَّة في مصالحها الخاصَّة والعامَّة. ومِن ثمَّ فإنَّ (الشورى) إحدى أبرز تجليَّات وعي الأمَّة وحضورها في الاهتمام بقضاياها وشئونها. وقد كان الخلفاء الراشدين يديرون (الشورى) بصور شتَّى بحسب القضايا والأحوال.

ومع تطوُّر الدولة الحديثة وحاجة الشعوب إلى وجود كيان يحافظ على سيادة الشعب وتمثيله ابتكر الفكر السياسي ما أطلق عليه بـ(السلطة التشريعية)، كي تكون منازعة للسلطة التنفيذية، ومشرفة عليها، ومراقبة لها، ومحاسبة إيَّاها. فهي أشبه بدائرة (أهل الشورى) أو (أهل الحلِّ والعقد) الذين يرجع المجتمع إليهم، ويثق في نزاهتهم وعقولهم وسلوكيَّاتهم. وقد يطلق على هذه الهيئة وصف (مجلس النوَّاب)، وهو وصف لا غبار عليه، لأنَّهم ينوبون الأمَّة في اختصاصاتهم، كما ينوب الحاكم الأمَّة في اختصاصاته. غير أنَّ الإشكال عند البعض في توصيفه بـ(المجلس التشريعي)، ويزول الإشكال إذا تقيَّد (مجلس النوَّاب) فيما يصدره مِن قوانين بمرجعية الإسلام وشريعته، ويصحُّ أن يطلق عليه بالمجلس التشريعي بمفهومه اللغوي لا الشرعي؛ لأنَّ ما يصدره مِن قوانين ونظم ولوائح وقرارات يطلق عليها في اللغة تشريعات. ومِن ثمَّ فلا مشاحة في الاصطلاح، لأنَّه لا يقصد به هنا التشريع المضاهي للحقِّ الإلهي. وقد استخدم بعض العلماء في حقِّ الرسول والعالم وصف "مُشرِّع" مِن قبيل التوسُّع في المفهوم لا تحويله.

- حقوق الإنسان:

إثبات الحقوق للإنسان أمر لا غبار عليه، شرعًا وعقلًا وعرفًا. وقد جاء الإسلام لينتظم حقوق العباد جميعًا، ودون تجاهل لأحد مِنهم، في أطرها الفئوية وفي أطرها العامَّة. **والحديث عن حقوق الإنسان** لا ينبغي أن يثير حفيظة المسلم العاقل، لأنَّ الإشكال ليس في المصطلح وإنَّما في ترجمة كلِّ حضارة

وثقافة وشريعة له. وكما أنَّ دول العالم ترفع مصطلح "العدل" شعارًا رغم الترجمة الخاطئة له واقعًا، والتكييف السيء له، دون أن يدفعنا ذلك لإنكار مصطلح "العدل"، فحقوق الإنسان مِن هذا القبيل. وما هو مطلوب مِن الأمَّة هو أن تظهر صياغتها الإسلامية لهذه الحقوق، سواء ما كان مِنها طبيعيًّا، وما كان شرعيًّا، وما كان في سلطان دولة الإسلام وما كان خارجه، للأفراد والمجتمعات. ومثله مفهوم ومصطلح "الحرِّيات"، الخاصَّة والعامَّة. فإنَّ الإسلام جاء لتحرير البشر، سواء بدخولهم في الدين أو دخولهم في سلطانه ودولته. والحرِّية قيمة ممدوحة في الإسلام، في مقابلة العبودية الاضطرارية أو في مقابلة العبودية الاختيارية للبشر. وإنَّما يؤجر ويقبل إيمان الإنسان بخروجه مِن تلك العبوديات ودخوله في عبوديَّة الله تعالى اختيارًا وقبولًا مِنه ورضًا.

- الحزبية والتعددية الحزبية:

الحزبية مصطلح يعبِّر عن الجماعة مِن الناس يجمعهم أمر يميِّزهم عن غيرهم في مجتمعهم. وله دلالة لغوية وعرفية، والإسلام استخدمه في محلِّ المدح (حزب الله)، واستخدمه في محلِّ الذمِّ (حزب الشيطان)، في دلالة على أن المصطلح في ذاته لا إشكال فيه، وإنَّما الإشكال فيما تعلَّق به مِن حقٍّ وباطل، أو خير وشر، أو هدى وضلال. وقد اعتبر الإسلام تحزُّب المجتمع ضدَّ بعضه البعض أمرًا محرَّمًا ومذمومًا. لكنَّه سكت عن تحزُّب المجتمع في المباحات أو المنافسات، لأنَّ التحزَّب في هذه الحالة تعبير عن وضع طبيعي أو اختيار متقبَّل. فما كان مِن التحزُّب معبِّرًا عن التنوع المفيد والهادف بحيث يجتمع كلِّ

أصحاب اختصاص ومهنة وهدف ووظيفة لخدمة احتياجاتهم وتلبية متطلَّباتهم وتحقيق غاياتهم فهو أمر طبيعي. أمَّا التحزُّب ضدَّ الآخرين، لإلحاق الضرر بهم، أو الإساءة إليهم، أو انتهاك حقوقهم، أو العدوان عليهم، فهذا منهي عنه، وهو المشار إليه في القرآن حال الذمِّ.

ولا مانع في الإطار السياسي أن يتنافس أبناء المجتمع في تشكيل أنفسهم في هيئة أحزاب لتقديم برامج خدمية للمجتمع والتنافس على النجاح فيها. كما قد يتنافس أصحاب المهن والأعمال والمصالح. فالتنافس في الخير أمر مشروع، بكلِّ وسائله المباحة. وخير ما يتنافس المجتمع التنافس في القيام بشئونه ومصالحه العامَّة التي يقوى وينتفع ويترقَّى بها.

وإنَّه يذمُّ تحزُّب أهل الصلاح ضدَّ بعضهم، على سبيل القطيعة والصدام والبغي، كما يذمُّ التحزُّب على معانٍ مخالفة للدين أو على تكالب على الدنيا وشهواتها. وسواء كان هذا التحزُّب بصفة قانونية أو صفة عفوية، فوصف التحزُّب قد يتحقَّق واقعًا وإلَّم يقرُّ ويرخَّص قانونًا.

وقد جعل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأمر مِن بعده في ستَّة مِن الصحابة، كلٌّ مِنهم صالح للخلافة، فتنازل بعضهم وتمسَّك بعضهم بحقِّه في المنافسة للوصول إلى السلطة. وكان المرجِّح بين الشخصيَّتين اللَّتين تمسَّكتا بحقِّهما في المنافسة (عثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) هو اختيار المجتمع.

- الانتخابات:

في الإسلام تختار الأمَّة الحاكم وتبايعه، ومفهوم البيعة منحه التفويض والتعاقد الذي يمكِّنه مِن مزاولة سلطته، وهذا المفهوم يقابله اليوم مع تطوُّر الوسائل والأساليب العملية (الانتخابية)، فهي تُعطي نتيجة اختيار المجتمع لممثِّليه، سواء في السلطة التشريعية أو التنفيذية (الرئاسية)، ويعلم الجميع أنَّه بموجب الانتخاب والدستور تؤول السلطة لأوفر المرشَّحين اختيارًا (أصواتًا). فكأنَّ مواد الدستور والقانون قد نابت عن البيعة التي تلي الاختيار باعتبارهما يسمِّيان الفائز مستحقًّا بالمنصب محلَّ الانتخاب. ومِن ثَمَّ فالانتخابات اليوم ليست إلَّا شكلًا مِن أشكال إدارة الشورى وتعبير المجتمع عن اختياره.

- التداول السلمي للسلطة:

نصَّ علماء الإسلام على أنَّ البيعة عقد بين طرفين (الأمَّة) و(الحاكم)، وأنَّ المنشئ له أساسًا (الأمَّة) لأنَّها الأصل الثابت والمالك للقرار والاختيار، والحاكم طارئ وأجير عندها. وإذا قبلت (الأمَّة) أن تأخذ بمبدأ تحديد مدَّة السلطة كان لها ذلك، لأنَّها صاحبة الشأن، وليس لأحد أن يفتئت عليها، أو أن يفتئت على الشريعة، فإنَّ الشريعة هنا أناطت الأمر للأمَّة ﴿وأَمرُهُم شُورَى بَينَهُم﴾، ومسألة السلطة ليست مِن مسائل العبادات التي الأصل فيها التوقُّف بل مدارها على المعاني والمقاصد والمهام والمصالح والتغيُّرات. ومَن أجاز للأمَّة -وربَّما فرض عليها- طاعة المتغلِّب بفقهه فحريٌّ به أن يقرَّ بحقِّ الأمَّة أن تُقيِّد ما تريد طالما وأنَّ الفقه معتبر في هذه المسائل.

- الثورة الشعبية:

يستشهد كثير مِن المعارضين لثورات الشعوب ضدَّ حكَّامها الظلمة المتجبِّرين بثورة الرعاع والهمج على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دون مراعاة لفوارق القياس، ولا اعتبار لتأصيل المبدأ مِن حيث هو قبل تعميم المثال وحصر الصورة فيه. فعثمان توفَّرت فيه شروط الولاية والأهليَّة، وقد انتخب مِن عموم الأمَّة، وحكم بالإسلام وشريعته، وله سابقته وتاريخه في الإسلام ونصرته، وقد زكَّاه الرسول ﷺ؛ في حين أنَّ الثائرين عليه هم مِن الهمج والرعاع الذين لم يوافقهم كبار الصحابة والتابعين على ما هم عليه، وكانوا فيما ادَّعوه على عثمان كذبة مفترين، أو متحاملين في أمور له فيها سعة للاجتهاد، أو مبالغين في أخطاء لا تستدعي الثورة عليه، فهو في كلِّ الأحوال بين الأجر والأجرين والعفو. ولو كانت الثورة في ذاتها محرَّمة أو مجرَّمة في الشريعة لذكر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذلك، ولنبَّهوهم إليه، أو قاتلوهم عليه كما قاتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخوارج، لكنَّ اعتراض الصحابة لم يكن على مبدأ الثورة مِن حيث هو، وإنَّما على ثورة أولئك الهمج الرعاع على عثمان، ومَن ادَّعى أنَّ الصحابة أنكروا مبدأ الثورة في ذاته تحريمًا وتجريمًا فعليه بالدليل.

ختامًا..

إنَّ أزمة العقول المسلمة اليوم أزمة في الفهم والاستنباط والتنزيل والتطبيق، وهو حصيلة الجمود والتقليد والتعصُّب الذي ضاعت فيه جهود وأوقات

لمناصرة قضايا فرعية وهامشية وقابلة للاجتهاد والخلاف. كما أنَّها أزمة انعكست عن حال العداوة مع القوى الغربية المحتلَّة التي اعتدت وأجرمت في حقِّ المسلمين، وعن حال الالتباس في وجود معانٍ صائبة لدى الغرب وهو مَن هو في إلحاده وكفره وانحلاله وفساده وإجرامه. وهي معاني نبَّه القرآن الكريم والسنَّة النبوية على عدم جعلها حاجزًا بيننا وبين أنَّ نأخذ الحقَّ والصواب والنافع ممَّن أتى به.

هذه خلاصة للتنبيه، قلتها نصحًا للأمَّة، قد يتصدَّى لها العجلون الذين لا يُعيدون النظر ولا يتعمَّقون في التفكير ولا يحسنون التأمُّل، لكنَّها ستبلغ الراشدين الذين يهتدون بهدي القرآن والسنَّة، وتعي عقولهم ما يقرؤون وما يسمعون.

والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

السياسة الشرعية في ظلِ الأطراف المتشابكة والحسابات المعقدة

تمهيد:

الحياة المعاصرة اليوم باتت في حالة مِن التَّشابك والتَّعقيد بحيث فقدت بساطتها ووضوحها، وما عادت أيُّ ظاهرة في الحياة البشرية ممكنة الدِّراسة والتَّحليل بعيدًا عن كلِّ ما يكتنف تلك الحياة مِن ترابط وتداخل؛ وبالتَّالي وفي سبيل فهمها يحتاج الباحث إلى الإلمام والإحاطة بتلك الأبعاد والسِّياقات المتَّصلة بتلك الظَّاهرة، والنَّظر إلى مدى تشكيلها للظَّاهرة أو تأثيرها على حجمها ونوعها ومسارها.

والسِّياسة هي إحدى الظَّواهر البشرية التي باتت اليوم معقَّدة ومتشابكة حدَّ الإشكال والتضخُّم، وما عادت هي تلك المسألة المرتبطة بالحاكم وجلسائه وحاشيته، وجنده وقوَّاته، وشعبه وأرضه، فالحاكم اليوم لم يعد إلَّا فردًا في كيان مؤسَّساتي ضخم اسمه الدَّولة، وهو كيان بات متوغِّلًا في حياة الأفراد والجماعات وشئونهم إلى درجة تحكُّمه بهم وسيطرته عليهم، مِن مولدهم وحتَّى وفاتهم. وهذا الكيان يضمُّ شبكات مِن المصالح والتحالفات والمنافع والمحسوبيَّات.

هذه الحقيقة ينبغي استحضارها واستشعارها ونحن نتناول أيَّ قضيَّة أو حدث أو ظاهرة سياسية اليوم، بشيء مِن التَّحليل أو التَّفسير أو التَّقييم أو النَّقد،

إذ لا يمكن فهمها أو تصوُّرها مجرَّدة مِن أجزائها وتفاصيلها وارتباطها بكلِّ ما يحيط بها؛ فالحكم على الشَّيء فرع عن تصوُّره، وطالما أنَّ تصوُّر الأمور المركَّبة صعب فلا ينبغي اقتحامه دون أدوات علمية وموضوعية لخلق ذلك التَّصوُّر.

التشابك والتعقيد في السِّياسة المعاصرة:

الحياة البشرية على الأرض شهدت تطوُّرات عدَّة، وتغيُّرات مختلفة، وتقدُّمًا كبيرًا شمل جميع الجوانب، وفَرَضَ ذلك كسرُ الحواجز المكانية والزَّمانية والسِّياسية والاجتماعية، بل والفكرية والثَّقافية، وفتحُ حالات مِن الامتزاج والتَّداخل بين الظَّواهر والأمور والأحداث، بحيث أصبح العالم في حالة سيولة شديدة. وهذا بدوره شمل السِّياسة، فقد أصبحت السِّياسة المعاصرة ظاهرة تحتاج إلى الكثير مِن التَّفكُّر والتَّأمُّل والنَّظر، خصوصًا في حالة الاشتباك، أي في ظلِّ الحروب والصِّراعات والنِّزاعات، أو في ظلِّ التَّنافس والتَّسابق؛ وسواء كان ذلك على صعيد الدُّول أو الأحزاب والحركات السِّياسية أو الشُّعوب.

فإذا أردنا أن نناقش حدثًا في بلد ما فإنَّنا مضطرُّون لمناقشة السِّياقات الاجتماعية والاقتصادية والثَّقافية، فضلًا عن العوامل السِّياسية المحلِّية والإقليمية والدُّولية، بالإضافة إلى الأطراف ذات العلاقة أو المستفيدة مِن الحدث، والمصالح المتقاطعة معها، والمخاطر المتَّصلة بها؛ وقد يستدعي ذلك

عودة إلى دراسات تاريخية أو جغرافية أو سكَّانية. وهذا خلاف ما يجري، إذ يغلب على الكثير مِنَّا التَّناول البسيط، والنَّظرة السَّطحية، والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أيِّ تقارير أو دراسات أو أبحاث أو بيانات أو معطيات واقعية. وهو مسلك مريح للكثير مِن النَّاس، خاصَّة أنَّهم يرغبون في تأييد ما يقرِّرونه إزاء فكرة ما أو قضية ما، ويرون أنَّ مِن المخاطرة استدعاء المنطق العلمي والمعرفي لتناول الحدث، إذ قد لا يساعد على توظيفه وتجييره.

وإذا كان المفتي أو القاضي أو الفقيه يتعامل مع محيط محدود، وقضيَّة أحادية، فإنَّ السِّياسي يتعامل مع محيط شاسع، وقضية شائكة، فهو أكثر مدى في النَّظر والتَّأثير مِن مفتٍ وقاضٍ وفقيه، ويتحمَّل مِن أعباء الإدراك والإحاطة أضعاف أضعاف ما يتحمَّله الفقيه. وإذا كان المفتي والقاضي والفقيه يتعامل مع قضايا مفكَّكة، تنتهي بانتهاء الفتوى أو الحكم أو الاستباط، فإنَّ السِّياسي يتعامل مع قضايا مترابطة، كلُّ واحد مِنها متَّصل بما قبله، وما يحُفَّه، وبما بعده، في تسلسل مستمرٍّ متتابع. وإذا كانت المآلات في الإفتاء أو القضاء أو الفقه معتبرة في تلك القضايا الجزئية المفكَّكة، فإنَّ المآلات في السِّياسة ركنًا أصيلًا في التَّعامل المستدام مع وقائعها وأحداثها.

إذنَّ حسابات السِّياسة معقَّدة، وأيُّ تشريع أو سياسة أو قرار أو خطَّة تصدر عن الدَّولة تمسُّ جميع قوى المجتمع، وتنعكس غالبًا على كثير مِن مناحي النَّشاطات الإنسانية، وتتقاطع فيها مصالح ومخاوف العديد مِن القوى. وأذكر فيما أذكر أنَّ أحد العاملين في الحقل السِّياسي، وبالأخص في مجلس النُّوَّاب،

تحدَّث ذات مرَّة كيف أنَّ تشريعًا ما تراعى فيها فئات متعدِّدة وشرائح مختلفة وأطرافًا ذات العلاقة، وفي حال غاب أيُّ طرف منها عن الاهتمام والرِّعاية في القانون سيكون القانون مختلًّا ومرفوضًا مِن قبله. وعلى هذا فقس الأمور، سواء على صعيد أداء مجلس النُّوَّاب أو الحكومة أو رئاسة الدَّولة، وعلى صعيد القضايا الدَّاخلية أو الخارجية.

الدّيمقراطية وتنازع الإرادات:

الظَّنُّ بأنَّ السِّياسة مجال التقاء الإرادات واتِّفاقها وتعاونها ظنٌّ خاطئ، وناشئ عن تبسيط للأمر أو رؤية سطحيَّة، وفي أحسن الأحوال عن استحضار للمجتمع المثالي (أكان ذلك المجتمع إسلاميًّا أو غير إسلامي). والحقيقة هي أنَّ السِّياسة ميدان تنازع وتصارع وتغالب على مدار التَّاريخ، لا بين الدُّول، بل وبين كلِّ أطراف الحقل السِّياسي، سواء كانت عصائب قبلية، أو جماعات دينية، أو إثنيَّات عرقية، أو فئات مصلحية، أو تيَّارات فكرية. وحركة التَّاريخ، وتعاقب الدُّول، إنَّما هي ترجمة فعلية لهذا التَّنازع والصِّراع والتَّغالب، حتَّى على مستوى الأسر الحاكمة ذاتها في أضيق أحواله.

إسلاميًّا، وفي مرحلة عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة، تأسَّس المجتمع الإسلامي الأوَّل على معاني وقيم ومبادئ الدِّين الرَّباني المنزل؛ ومع انحسار الجيل الأوَّل ودخول شعوب متعدِّدة الثَّقافات ومختلفة المذاهب في الإسلام أو تحت دولته، ومع تحوُّل الحكم مِن نظام شوروي إلى نظام ملكي وراثي، بدأت تنحسر قوَّة "الدِّين المنزَّل" لصالح قوَّة "الدِّين المؤوَّل"، كما أشار إلى ذلك

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ. هذا التَّحوُّل أثَّر على طبيعة انتماء المجتمع المسلم للمعاني والقيم والمبادئ الأولى، وعلى مدى تلاحم المجتمع وتآلفه، إذ يفقد النَّاس مِن التَّوفيق والخير على قدر ما يفقدون مِن الهدى والحقِّ.

شيئًا فشيئًا، دخل منطق الصِّراع والتَّنازع والتَّغالب على الأمَّة، وكانت السُّلطة والدَّولة مبتدأ الخلاف، وأكثر ما جرِّد السَّيف لأجله، وسفكت الدِّماء عليه. فأصبح في المجتمع المسلم كيانات متعدِّدة تنصب فيما بينها الولاء والعداء على الاختلاف، وترى مصلحتها في الإضرار بالآخرين، وتُقدِّم مطامعها على ضرورات الاجتماع. وهو تصديق لما أخبر رسول الله ﷺ عنه مِن الخلاف والفرقة، وضرب الأمَّة بعضها لرقاب بعض. واستمرَّ هذا الحال قرونًا مِن الزَّمن، دون أن يُوجد العقل المسلم حلًّا لهذا التَّنازع والصِّراع والتَّغالب، نظرًا لتسليمه المطلق بنظرية "المتغلِّب" التي صبغت التَّاريخ القديم، وأهملت مبدأ "الشُّورى" في وقت مبكِّر مِن صعود الإسلام كصيغة لإيجاد رؤية مشتركة ومتَّحدة.

وما جرى في المجتمع المسلم، سبقته إليه مجتمعات سابقة، كفارس والروم وأهل الكتاب. كما أنَّه لحق بالمجتمعات الغربية التي تدين بالنَّصرانية، إذ فشت فيها كلُّ عوامل التَّنازع والصِّراع والحروب الدَّاخلية، بصيغ طائفية وقومية وطبقية، حتَّى كادوا أن يهلك معظمهم في حروب عنيفة؛ لكن صدقت فيهم فراسة عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين وصفهم بأنَّهم: "إنَّهم لأحلمُ النَّاسِ عند فِتنة، وأَسرعُهم إفاقة بعد مُصِيبة، وأوشَكُهم كَرَّة بعد فرَّة، وخيرُهم لمسكِين

ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأَمنَعُهم مِن ظُلم الملُوكِ"[1]. وهذه الفراسة أشبه بتحليل علمي لخصائص المجتمع الرُّومي الذي ورد النَّصُّ حوله، والتي تعدُّ أوربَّا موطنًا له.

فقد عمد الأوربِّيون إلى فكرة النِّظام الدِّيمقراطي الذي تتعدَّد فيه الكيانات السِّياسية الممثِّلة للمجتمع، وتتشكَّل بصورة علنية ورسمية، لتعبِّر عن وجهات النَّظر المختلفة، والآراء المتباينة، والمصالح والهوِّيَّات الخاصَّة، بحيث تتحرَّك في الفضاء العام بشكل سلمي وفي إطار التَّنافس والتَّدافع، تحت سقف الهُوية وفي إطار دستور متَّفق عليه بين غالبية الشَّعب، بعيدًا عن العنف والقتال. وبرغم ما لحق هذه التَّجربة والخبرة البشرية مِن سوء نتيجة بُعدها عن مبادئ الحقِّ الإلهي والعدل الرَّباني في كثير مِن جوانبها، إلَّا أنَّها قابلة للتَّكييف والتَّحسين والتَّعديل، كما أنَّ النُّظم الملكية في دولة الإسلام تجاوزت ظلم وفساد النُّظم الملكية في الدُّول الطَّاغوتية، وأصبحت امتدادًا للخلافة الإسلامية، وإن نزلت عن مرتبتها ومكانتها الشَّرعية. فالملكيَّات في التاريخ الإسلامي لم تكن بسوء الملكيَّات في الأمم والملل الأخرى. وهذا يمكن أن يكون مع النظم الديمقراطية.

إنَّ استبقاء استحضار المجتمع المثالي وما يلائمه مِن نُظُم حاكمة في مجتمع مفكَّك ومنقسم على نفسه يؤدِّي إلى استعصاء إنزال الحلول المثالية على الواقع، ما يدفع إلى العجز عن تطبيقها كلِّية أو تطبيقها بتعسُّف متطرِّف قد لا يدوم.

(1) مسلم: 2898.

ومَن قرأ أحاديث الفتن وتوجيه الرَّسول ﷺ لأصحابه للتَّعامل معها، وترتيبه – عليه الصَّلاة والسَّلام– الحلول على قدر السِّياق والحال والقدرة، يعلم يقينًا أنَّ هدي النَّبيِّ ﷺ هو اتِّباع الحلول الممكنة والمناسبة والقابلة للتَّطبيق، ثمَّ الانطلاق مِنها لمعالجة الواقع باتِّجاه المثال المنشود حسب القدرة والاستطاعة. ومَن ظنَّ أنَّ التَّجاوب مع حال مجتمع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هو ذاته التَّجاوب مع حال مجتمع التَّابعين رَحِمَهُمُ اللَّهُ، هو ذاته مع الأجيال المتعاقبة حتَّى المجتمعات الأخيرة التي أشار الرَّسول ﷺ إلى أمراضها العميقة وأزماتها الكبرى وآفاتها المتعدِّدة، فقد أخطأ؛ **وقد كان عمر بن عبدالعزيز يقول:** "تُحدَث للنَّاس أقضية بقدر ما أحدثوا مِن الفجور"[1]؛ وهذا مِن فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وممَّا يُستأنس به في هذا المقام، أنَّه وبرغم المؤاخاة التي شرعها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار إلَّا أنَّ التَّمايز بين الفريقين ظلَّ باقيًا في واقع الحال، ذلك أنَّ النَّاس لا يمكن أن ينخلعوا عن جذورهم. وقد برز هذا التمايز في موقفين: عقب تقسيم غنائم معركة حنين، وفي سقيفة بني ساعدة عقب وفاة الرَّسول ﷺ. **ففي الحادثة الأوَّلى** أثَّر تقسيم الغنائم ومنح مسلمة الفتح الجزء الأكبر مِنها، في نظرة بعض الأنصار للأمر مِن باب التمايز بينهم وبين قريش كعشيرة للرسول، وهو ما دفع الرسول لتطمينهم وتفسير الأمر لهم وتأكيده أنَّه لولا الهجرة لكان رجلًا مِن الأنصار. **وفي الحادثة الثَّانية** حاول الأنصار تنصيب

(1) **وهي تنسب له ولغيره**، انظر: سياسة عمر بن عبدالعزيز في سنِّ الأنظمة، د. عبدالعزيز بن سطام آل سعود، مجلة الجمعية الفقهية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض– السعودية، العدد (12)، مارس 2012م: ص22– 28.

خليفة مِنهم، أو في أقلِّ الأحوال تقاسم السُّلطة مع قريش رأسًا برأس "مِنَّا أمير ومنكم أمير"، وهذا تأكيد مِنهم على أهميَّة معالجة إدارة السُّلطة في ظلِّ وجود مكوِّنين في المجتمع المسلم الأوَّل (مهاجرون وأنصار).

صحيح أنَّ المبادئ والقيم والمعاني الإيمانية ظلَّت هي المرجع والحاكم في تلك الأمور، وحسمت ذلك النزاع على قاعدة "لا ضرر ولا ضِرار"، والعدل والتشارك والوحدة الجامعة، لكنَّ بروز تلك المشاعر والمساعي دليل على أنَّ طبيعة البشر لا يمكن إلغاؤها بالمطلق، ولكن معالجتها كي لا تستحيل إلى مسار خاطئ. وما صدر عن الرعيل الأوَّل يتوقَّع صدور مثله أو أكثر حدَّة مِنه في مَن أتى بعدهم. وما صراع القيسية واليمانية أو العدنانية والقحطانية إلَّا بواكير هذا النوع مِن النزاعات.

إدارة الخلافات والتباينات:

رغم دعوة الإسلام إلى الاجتماع والتَّآلف والوحدة، إلَّا أنَّ هذه الدَّعوة تتأسَّس على فرضية واقعية وهي أنَّ المجتمع البشري قائم على التَّنوُّع والتَّعدُّد والاختلاف، **وعليه** فإنَّ الإسلام يقدِّم علاجه لهذه القضايا لا على أساس إعدامها فهذا لا يمكن، وإنَّما على أساس معالجتها للوصول إلى صيغة أمتن مِن التَّعايش والتَّعاون والشَّراكة.

وكما يقرُّ الإسلام بحقيقة الاختلاف يضع العلاج له: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾[1]، **وكما يقرُّ**

(1) الشورى: 10.

بحقيقة التَّنازع يضع العلاج لها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، **وكما يقرُّ بحقيقة الصِّراع يضع العلاج له:** ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾[2]. وهذه الآيات وغيرها، بالإضافة إلى الأحاديث النَّبوية، ترسم ملامح إدارة الخلافات والنِّزاعات والصِّراعات في المجتمع الإسلامي مِن منطلق إمكانية وقوعها، وضرورة معالجتها. أمَّا آلية إدارة ذلك فيعود فيه للإفادة مِن تراكم الخبرات منذ العهد النَّبوي، ثمَّ الخلافة الرَّاشدة، ثمَّ التَّاريخ الإسلامي، حيث تشعَّبت الخلافات، وتراكمت النِّزاعات، وامتدَّت الصِّراعات، وأصبحت الأمَّة فرقًا وطوائف وجماعات وأحزابًا وشيعًا.

ومِن البؤس والجمود الوقوف في تقييم واقع المسلمين اليوم على حالة الأماني، أو التَّصوُّرات المثالية، والقفز على الواقع، وتقديم حلول لا تستجيب لاحتياجات الحال وضرورات الظُّروف، بدعوى العودة إلى الماضي المشرق والصُّورة المثالية للمسلمين قديمًا. ومع تفهُّم صدق النَّوايا، وحسن الظَّن، بمَن يطرح هذا الطَّرح، إلَّا أنَّ مِن المقرَّر شرعًا أنَّ ما يصلح لزمان ومكان ومجتمع قد لا يصلح لغيره، خصوصًا فيما كان أصله التَّحوُّل والتَّغيُّر والتَّبدُّل لا الثَّبات والسُّكون. **وفي الصَّحيحين**، أنَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "لو أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ

---

(1) النساء: 59.

(2) الحجرات: 9.

رأَى ما أحدَثَ النِّساءُ لَمَنَعَهُنَّ المسجدَ، كما مُنِعَت نساءُ بني إسرائيل"[1]. وهذا مِن فقهها بصلة التَّشريع بأحوال النَّاس.

وقد قدَّم رسول الله ﷺ نهجًا حكيمًا ورشيدًا في إدارة الخلاف، حتَّى قبل بعثته، إذ تروي كتب السِّيرة أنَّ قريشًا عند تجديدها بناء الكعبة اختلفت على مَن يتولَّى وضع "الحجر الأسود" في مكانه، ودبَّ بينهم نزاع، فقد أرادت كلُّ قبيلة مِن قريش أن تنال شرف وضع الحجر في موضعه، حتَّى كادوا أن يقتتلوا فيما بينهم، فجاء أبو أميَّة بن المغيرة المخزومي واقترح أن يحكِّموا بينهم أوَّل مَن يدخل عليهم مِن باب المسجد الحرام، فوافقوا على ذلك، فإذا برسول الله ﷺ أوَّل الدَّاخلين، وما إن رأوه حتَّى هتفوا: هذا الأمين.. رضينا. وما إن انتهى إليهم حتَّى أخبروه الخبر، فقال لهم: هلمَّ إليَّ ثوبًا. فأتوه به، فوضع الحجر في وسطه، ثمَّ قال لهم: لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية مِن الثَّوب ثمَّ ارفعوه جميعًا. ففعلوا، فلمَّا بلغوا به موضعه، أخذه بيده الشَّريفة ووضعه في مكانه[2]. فمن كان هذا رشده ووعيه قبل بعثته فإنَّه بعد هداية الوحي وتمام النِّعمة أكثر قدرة على إدارة الخلاف والنِّزاع والصِّراع.

وإذا كانت آيات القرآن الكريم، وتربية الرَّسول لأصحابه، قد عملت على تضييق مساحات الخلاف والنِّزاع والصِّراع بين الصَّحابة، فإنَّه وبقدر غياب تأثير آيات القرآن الكريم وتربية الرَّسول ﷺ للمجتمعات المسلمة اليوم تتَّسع

(1) انظر: البخاري، رقم: (869)، ومسلم، رقم: (445).

(2) انظر: السيرة لابن هشام: (1/ 197).

مساحات الخلافات والنِّزاعات والصِّراعات، ويصبح مِن الضَّروري امتثال "الثوب" الذي أمسكت به قبائل قريش في إبقاء القواسم والمصالح المشتركة بين جميع الأطراف للوصول إلى مرجع للتَّحاكم والصُّلح والاتِّفاق. **وفي هذا يقول ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ كلَّ طائفة مِن بني آدم لا بُدَّ لهم مِن دين يجمعهم، إذ لا غنى لبعضهم عن بعض، وأحدهم لا يستقلُّ بجلب منفعته ودفع مضرَّته، فلا بُدَّ مِن اجتماعهم، وإذا اجتمعوا فلا بُدَّ أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كلَّهم، وذلك محبَّتهم له، وفي دفع ما يضرُّهم، وذلك بغضهم له، فصار ولا بُدَّ أن يشتركوا في محبَّة شيء عام وبغض شيء عام، وهذا هو دينهم المشترك العام، وأمَّا اختصاص كلٍّ مِنهم بمحبَّة ما يأكله ويشربه وينكحه، وطلب ما يستره مِن اللِّباس، فهذا يشتركون في نوعه لا في شخصه، بل كلٌّ مِنهم يحبُّ نظير ما يحبُّه الآخر لا عينه، بل كلٌّ مِنهم لا ينتفع في أكله وشربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر بل بنظيره"، **ويضيف**: "وإذا كان كذلك، فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم، والأمور التي تضرُّهم يحتاجون أن يحرِّموها على نفوسهم، وذلك دينهم، وذلك لا يكون إلَّا باتِّفاقهم على ذلك، وهو التَّعاهد والتَّعاقد، **ولهذا جاء في الحديث**: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)"[1].

إذن، لا بُدَّ للنَّاس مِن قواسم ومشتركات، تشمل المصالح المطلوبة والمخاطر المدفوعة، وهي ما أسماها بـ"الدِّين المشترك"، ومفهوم الدِّين هنا

(1) انظر كلامه في رسالة له بعنوان: قاعدة في المحبَّة.

مـرتبط بالخـضوع لا الـدِّين التَّعبُّـدي، باعتبـار أنَّهـم ملتزمـون بهـذه الأمـور، وخاضعون للوازمها ومقتضياتها، مِن التَّعاون والنُّصرة لتحقيقها. وهذه القواسم المشتركة ينبغي أن توضع في دستور جامع مانع، يشكِّل طبيعة العلاقات بين الأفراد بكونهم مواطنين، وبين المجتمع والسُّلطة التي سيفوِّضونها وينيبونها في إدارة شئونهم باعتبارهما ركني الدَّولة.

الوعي والإدراك والإحاطة:

هذه المعاني الحسنة وردت في القرآن الكريم، وارتبطت بقدرة الإنسان على معرفة ما حوله، وهي تشير إلى ضرورة عمق التَّفكير وبُعد النَّظر وشمولية العلم، فالحياة دار مركَّبة مِن الأسباب والسُّنن، والوقوف على ظاهرها مخاطرة، وإغفال سيرورتها مغامرة. والمؤمن الذي فرض الله تعالى عليه الاستزادة مِن العلم والهدى، وقراءة السُّنن الكونية والآيات القرآنية، بحاجة إلى أن يفعِّل العقل الذي منحه الله تعالى إيَّاه للوصول إلى استحقاقات الخلافة في الأرض، فإنَّ الخلافة لا تعطى لخامل وجامد وقاعد، بل لا بُدَّ أن يكون الإنسان همَّامًا وحارثًا كما هي طبيعته. **مِن هنا** يفترض بالمؤمن في هذا الزَّمن وهو يتعامل مع ميدان السِّياسة المعاصرة أن يبذل المزيد مِن القدرات والطَّاقات والوقت لاستيعابها بكلِّ ما فيها، دون تقصير أو خلل، عندها فقط سيتمكَّن مِن التَّجاوب معها بشكل صحيح وصولًا إلى مبتغاه في قيام الحقِّ والعدل الممكن لمثله في زمانه وظروفه.

وإذا كان الغرب قد تفنَّن في خوض غمار علوم السِّياسة والاجتماع حتَّى تمكَّن مِن أَزِمَّة التَّأثير وقيادة العالم، فإنَّ الواجب علينا كمسلمين أن نُفيد فيما سبقونا إليه، بقدر مِن الوعي، لأنَّ هذه العلوم ليست حكرًا على شعب أو ثقافة أو بلد، بل هي حقٌّ مشاع يمنحه الله تعالى لعباده، فمِنهم مِن يوظِّفها في الخير ومِنهم مَن يوظِّفها في الشَّر. **وقد أنزل الله تعالى** على أهل بابل ملائكة يعلِّمون النَّاس طرق السِّحر لإبطالها، فأفاد مِنها أقوام للخير وأفاد مِنها أقوام للشَّرِّ، وعلَّم نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صنع السَّفينة، وداود صنع الدُّروع، فجاء مِن بنى السُّفن وصنع الدُّروع للبغي والعدوان والطُّغيان. وعلوم السِّياسة والاجتماع مِن العلوم المشاعة التي مدارها على الخبرة والتَّجربة، خلافًا لعلوم العقيدة والعبادة وشرائع الحلال والحرام فإنَّ مدارها على الوحي والنَّصِّ والدِّين المنزل.

نخلص ممَّا سبق إلى أنَّ سياسة اليوم بحاجة إلى عقل إسلامي مبتكر ومبدع، يقف على طبيعة التَّشابك والتَّعقيد الحاصل اليوم برؤية جديدة وخطَّة ملائمة وجهد مضاعف، كي نقلِّل الخسائر ونضاعف المكاسب لنا ولمجتمعاتنا المنهكة.

نقض الدولة أم إصلاحها

الدولة كيان تمثِّله سلطة بشرية، وبالتالي فيصِّح عليها مِن الأمراض والاختلالات والانحرافات ما يصحُّ في البشر. وبرغم أنَّ الدولة أمر ضروري لأيِّ اجتماع بشري مهما كان رشده وصلاحه، إلَّا أنَّ الدولة قد تستحيل إلى طغيان جاثم على صدر المجتمع، يكتم أنفاسه ويعيق حركته ويتسبَّب في فنائه، فيكون بقاؤها خطر جسيم وضرر فادح.

وقد عرض القرآن الكريم علينا نماذج لطغيان السلطة في شخص فرعون والنمرود وغيرهم؛ وهي نماذج قابلة للتكرار في أيِّ مجتمع، وإن كان مسلمًا، ذلك أنَّ الانحراف غالبًا ما يدخل إلى الحكَّام نتيجة كبرهم وغررهم وانغماسهم في ملذَّات الدنيا، مع ما في أيديهم مِن القوَّة والمال[1]. والنَّاس تبع لملوكهم. وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾[2]. لهذا، قال رسول الله ﷺ: (أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ عند سُلطَانٍ جَائِرٍ)[3]؛ وجعل المتصدِّر لجهاد الحاكم الجائر سيَّد الشهداء، فقال

(1) انظر: مسار الانحراف السياسي في الأمة، أنور بن قاسم الخضري، مجلة البيان، 2012م، على الرابط التالي: https://www.albayan.co.uk/Article2.aspx?id=2046

(2) غافر: 47.

(3) رواه النسائي في سننه، وصحَّحه الشيخ الألباني وشعيب الأرناؤوط، والوادعي في كتابه الصحيح المسند، رقم: (518).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (سيِّدُ الشُّهداءِ حمزةُ بن عبدِالمطَّلبِ ورجلٌ قام إلى إمَامٍ جائرٍ فأَمَره ونهاه فقتله)[1].

وهذا فقه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فإنَّهم أنكروا على أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعلى عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعلى عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعلى علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعلى معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفي **صحيح مسلم**، أنَّ أَوَّل مَن بَدَأَ بالخُطبة يوم العِيدِ قبل الصَّلاة مَروان بن الحكم، فقام إليه رجل فقال: الصَّلاةُ قبل الخُطبة! فقال مروان: قد تُرِكَ ما هُنالِك. فقال أبو سعيد الخدري: "أمَّا هذا فقد قَضَى ما عليه، سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَليُغَيِّرهُ بيَدِهِ، فإن لَم يَستَطِع فَبِلسانِهِ، فإن لَم يَستَطِع فَبِقَلبِهِ، وذلكَ أضعَفُ الإيمانِ)"[2]. وقد أثبت رسول الله الإنكار عليهم، وجعله طريق السلامة، فقال: (سَتَكُونُ أُمَراءُ فَتَعرِفُونَ وتُنكِرُونَ، فمَن عَرَفَ بَرِئَ، ومَن أنكَرَ سَلِمَ، ولَكِن مَن رَضِيَ وتابَعَ). قالوا: أفَلَا نُقاتِلُهُم؟ قال: (لا، ما صَلَّوا)[3]. **وسبب ذلك** أنَّهم على غير هدي الرسول، وإن ظلُّوا متمسِّكين بالإسلام، **ففي الحديث، عن** جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال لكعب بن عجرة: (أعاذَكَ اللهُ مِن إمارة السفهاءِ)، قال: وما إمارةُ السفهاءِ؟ قال: (أمراءٌ يكونون بعدي، لا يهتدُون بهديي، ولا يستنُّون بسُنَّتي،

---

(1) **الحديث** عن، جابر بن عبدالله، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (رقم: 4884)، والديلمي في الفردوس، رقم: (3472)، باختلاف يسير؛ وصحَّحه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: (374).

(2) مسلم، رقم: (49).

(3) مسلم، رقم: (1854)

فمَن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظُلمهم فأولئك ليسوا مِنِّي ولست مِنهم، ولا يَرِدُون عليَّ حَوضي، ومَن لم يُصدِّقهم بكذبهم ولم يُعِنهم على ظُلمِهم فأولئك مِنِّي وأنا مِنهم، وسيرِدُون عليَّ حَوضي)[1].

وقد دخل هذا الانحراف مبكِّرًا في الأمَّة، بعد أن تحوَّلت الخلافة إلى ملك عضوض ثمَّ ملك جبري. **وفي الحديث:** (لتُنقضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُروةً عُروةً، فكلَّما انتقَضَت عُروةٌ تشبَّثَ النَّاسُ بالَّتي تَليها. وأوَّلُهنَّ نقضًا الحُكمُ، وآخرُهنَّ الصَّلاةُ)[2]. **وأورد البخاري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بشأن رجلين مِن أهل اليمن، أحدهما يُقال له "ذُو عَمرٍو"، كانوا مِن زعماء القبائل ووجهاء الناس. وفيه أنَّ ذو عمرو قال لجرير: "يا جَرِيرُ.. إنَّ بكَ عَلَيَّ كَرَامَةً، وإنِّي مُخبِرُكَ خَبَرًا، إنَّكُم مَعشَرَ العَرَبِ لَن تَزَالُوا بخَيرٍ ما كُنتُم إذَا هَلَكَ أمِير تَأَمَّرتُم في آخَرَ، فَإِذَا كَانَت بالسَّيفِ كَانُوا مُلُوكًا، يَغضَبُونَ غَضَبَ المُلُوكِ، ويَرضَونَ رِضَا المُلُوكِ"[3]. **وعند مسلم:** (خِيارُ أئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُم ويُحِبُّونَكُم، وتُصَلُّونَ عليهم ويُصَلُّونَ علَيكم، وشِرارُ أئِمَّتِكم الَّذِينَ تُبغِضُونَهم ويُبغِضُونكم، وتَلعَنُونَهم ويَلعَنُونكم). قالوا: قُلنا: يا رَسولَ اللهِ.. أفَلا نُنابِذُهم عند ذلك؟ قال: (لَا.. مَا أَقَامُوا فِيكُم الصَّلَاة، لَا.. مَا أَقَامُوا فِيكم الصَّلَاة، أَلَا

---

(1) مسند أحمد: (3/ 321)؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرناؤوط، والوادعي في الصحيح المسند، رقم: (245).

(2) مسند أحمد: (36/ 485)؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرناؤوط، والوداعي في الصحيح المسند، رقم: (490).

(3) البخاري، رقم: (4359).

مَن ولِيَ عليه والٍ فَرَآهُ يَأتي شيئًا مِن مَعصِيَةِ اللهِ، فَليَكرَه ما يَأتي مِن مَعصِيَةِ اللهِ، ولا يَنزِعَنَّ يَدًا مِن طاعَة)[1]؛ وهذا في حال لم يروا كفرًا بواحًا، فقد بايع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، وعلى (ألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَهُ، إلَّا أن تَرَوا كُفرًا بَواحًا عِندَكُم مِن اللهِ فيه بُرهانٌ)[2].

والشريعة تراعي النسبة والتناسب، فإذا كانت قد أوجبت الإنكار على الأفراد مِن العامَّة حفاظًا على جناب الدين وأخلاق المجتمع وسلامته، مع كون ذنوبهم محدودة الأثر موكولة للسلطان، فإنَّ الإنكار على الحكَّام مِن باب أولى، فإنَّ منكراتهم تعمُّ المجتمع وتطمُّ الدين، إذ لهم مِن الأبواق والسحرة مَن يلبِّس الحقَّ بالباطل، بل مَن يجعل الباطل حقًّا والحقَّ باطلًا. لهذا جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: (أَيُّهَا النَّاسُ.. إنَّما أَهلَكَ الَّذِينَ قَبلَكم أنَّهُم كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الحَدَّ)[3].

ومع افتراق السلطان عن القرآن، والحديد عن الكتاب، وتحوُّل الحكم مِن خلافة راشدة تأخذ بالشورى وتستمع للآراء وتقبل النقد والإنكار، إلى ملك عضوض ثمَّ جبري، وبروز مَن تعنَّت في الإنكار حتَّى كفَّر الحاكم والمحكوم، واستحلَّ دماء الأمَّة برَّها وفاجرها، وصالحها وطالحها، افترقت مذاهب العلماء والمصلحين مذاهب شتَّى، مِن زمن التابعين إلى عصرنا الحديث.

---

(1) مسلم، رقم: (1855).

(2) البخاري، رقم: (7055)، ومسلم، رقم: (1709).

(3) البخاري، رقم: (3475)، ومسلم، رقم: (1688).

فقوم والوا الحكَّام، وانحازوا لهم، في الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والبدعة والسنَّة والطاعة والمعصية، حتَّى جعلوا كلَّ منكر عليهم مبتدعًا آثمًا، وخارجيًّا واجب القتل. **وقوم قاربوا الحكَّام**، وعملوا في مصالح المسلمين العامَّة، وسعوا في إنكار ما يسعهم، وسكتوا عمَّا ظنُّوا عجزهم عن تغييره، وأصلحوا فيما أمكنهم، لكنَّهم لم يعينوا على باطل أو ظلم أو فساد. **وقوم فارقوا الحكَّام**، فلم يأتوهم ولم ينكروا عليهم، وشغلوا أنفسهم بالعلم والدعوة والوعظ والتذكير، فرضوا بالسلامة وارتادوا مراتعها، وتركوا للحكَّام وأعوانهم العبث بالدين وتضييع مصالح الأمَّة. **وقوم وقفوا أمام انحراف الحاكم**، فتكلَّموا بالنصح وأظهروا الإنكار، وعارضوا الحاكم حتَّى أصابهم مِنه أذى وتعذيبًا وعسفًا، لكنَّهم لم ينزعوا يدًا مِن طاعة، ولم يسعوا في حثِّ الناس على مقاومة الحاكم أو الخروج عليه. **وقوم واجهوا** الانحراف، فسعوا إلى الثورة على الحكَّام، وحثُّوا المجتمع على حمل السيف ومقاومة الباطل والضلال، واستعادة الكرامة والحقوق، وإنكار المظالم والمفاسد. ولكلِّ فريق مِن هؤلاء سلف مِن التابعين، والعلماء، والدعاة، لا ينكر ذلك عالم بالسير والتاريخ.

وقد مضت الأمَّة في صراع دائم بين أرباب السلطة ودعاة الإصلاح، ابتداء مِن وقوف معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضدَّ سلطة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، بعد أن

---

(1) مثَّل امتناع سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الدخول في بيعة أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شكلًا مِن أشكال الاعتراض السلمي على السلطة الشرعية "ولاة الأمر"، ولم يوصف بأنَّه خارجيٌّ. ومثَّلت الثورة على عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوَّل ثورة شعبية على السلطة الشرعية "ولي =

بويع له بالخلافة، طلبًا في دم عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كحقٍّ له، وانتهاء بالأحداث التي شهدتها الدولة العثمانية أواخر عهدها مِن مطالب للإصلاح. وبرغم ذلك، لم يبق لأرباب السلطة دولتهم، إذ جرت عليهم سنن الإدالة والتغيير.

ومِن الطبيعي أن ينتهي الانحراف الناشئ في المسار السياسي إلى خروج الحاكم على:

1 – مهمَّة الزعيم الطبيعية حتَّى لدى الحيوان، مِن الحفاظ على الرعية والدفاع عنهم إزاء كلِّ معتد أجنبي، وإيرادهم موارد الرخاء والأمان.

2 – مهمَّة الحكم المتعارف عليها في أعراف البشر جميعًا، إلى مهمَّة مناقضة لها، فعوضًا أن يكون الحاكم حامي حمى الشعب (يدافع عن كرامته وحقوقه ومصالحه)، وحمى الوطن (يدافع عن أمنه وثرواته ووحدته وسيادته)، يكون معتد عليها ومتعد لها، وسببًا للشرور والأضرار والمخاطر والتهديد على شعبه ووطنه.

= الأمر"، بغض النظر عن تحاملها وبهتانها عليه، ولم يوصف أصحابها بأنَّهم خوارج. ومثَّل امتناع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومَن معه، عن الدخول في طاعة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رغم إقراره بخلافته وعدم منازعته عليها، أوَّل شكل مِن أشكال الامتناع المسلَّح عن السلطة الشرعية "ولي الأمر". وهي أمثلة تأسَّست في زمن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمَن أتى بغير منهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في التعامل مع هذه النماذج، وصفًا وسلوكًا، كان مبتدعًا وخارجًا على إجماعهم.

3 – مهمَّة الحكم المكلِّف بها بمقتضى الرسالة الربانية، بحفظ الدين والأخلاق وأداء الأمانة وإقامة العدل والإصلاح في الأرض، إلى ضدِّ ذلك، مِن إضاعة الدين والأخلاق، وخيانة الأمانة، ونشر الظلم والإفساد في الأرض.

4 – إرادة الشعب ومشورته وإجماعه، معطِّلًا لتلك الإرادة، مانعًا لتلك المشورة، مفرِّقًا لكلمتهم، ومشتِّتًا لجمعهم، مستبدًّا بالرأي، مورِّثًا للسلطة.

5 – مقتضى التعاقد الدستوري الذي يشكِّل أساس الشرعية لوصوله للسلطة.

وفي حين شكَّلت الدولة الحديثة في الغرب، بل والدول التي حذت حذوها، نقلة في بناء السلطة وتعزيز مشاركة الشعب والخضوع لإرادته والحفاظ على مصالحه والقيام بخدمته، أخذ حكَّام العرب مِن الدولة الحديثة الشعارات والشكليَّات فيما ظلَّت ممارساتهم على خلاف مصالح أوطانهم وشعوبهم، فيما يأخذون مِن الدين غطاء ساترًا لعوراتهم ولأجل ذر الرماد في العيون. فجمعت الدولة الحديثة في العالم العربي بين مساوئ الماضي وانحرافاته وبين مساوئ الحاضر، إذ اتَّخذت بعض الأنظمة مِن العلمانية نهجًا عنيفًا لها، وأحالت الجيوش مِن مؤسَّسة دفاع وحماية إلى عصابة قمع وترهيب وتعذيب. وخلال أكثر مِن نصف قرن مِن ظهور الأنظمة العربية المستقلَّة عن الاحتلال الأجنبي لا يزال الجهل والتخلُّف والفقر والتوهان والنزاع والاستبداد هو النتاج المحافظ عليه على الدوام، وبشكل تصاعدي. كما أنَّ الأنظمة التي رفعت شعار السيادة

والاستقلال تقود اليوم دول وشعوب المنطقة إلى كلِّ أشكال الخضوع والتبعية والاحتلال، **ويمكن تلمُّس ذلك مِن خلال:**

1 – ربط الدول العربية باتِّفاقيَّات ومعاهدات مضرَّة بأوطانها وشعوبها لصالح الدول الأجنبية، والدخول في تحالفات ضدَّ بعضها البعض.

2 – رهن اقتصاد الدول العربية للدول الأجنبية، ومنحها كافة الامتيازات التي تجعلها متحكِّمة باقتصاديَّات الشعوب.

3 – منح الدول الأجنبية قواعد عسكرية وتمكينها مِن تدريب الجيوش وتموينها والاتِّصال بقياداتها وعناصرها دون أي احتياطات، ما يمثِّل اختراقًا أمنيًّا كبيرًا لهذه الدول.

4 – تنفيذ إملاءات الدول الأجنبية تحت لافتات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو تعليمية أو صحِّية.

5 – التنسيق الأمني الكامل والشامل والمفتوح مع أجهزة الدول الأجنبية في سبيل محاربة العلماء والدعاة والمصلحين والمجاهدين والمقاومين.

6 – الاستقواء بالدول الأجنبية على الشعوب، وترك المجال لها في قتلهم أو قصفهم أو اعتقالهم أو تدمير عمرانهم ونهب ثرواتهم.

وهنا يأت السؤال المهم: أما وقد آل وضع كثير مِن الأنظمة إلى هذا الواقع المأساوي هل الواجب على الشعوب نقض هذه الأنظمة واستبدالها بأخرى أم إصلاحها؟!

قد يظنُّ البعض أنَّ هذا السؤال حديث، والحقيقة هو أنَّ هذا السؤال طرح منذ قرن تمامًا، وكانت هناك اتِّجاهات ذهبت لنقض هذه الأنظمة ومواجهاتها وكانت هناك اتِّجاهات ذهبت لإصلاحها، غير أنَّ الغالب عاد بخفَّي حنين، فلا مشاريع النقض غالبًا نجحت، ولا مشاريع الإصلاح غالبًا نجحت، لأنَّ هذه الأنظمة مرعيَّة مِن القوى الأجنبية، وهي حريصة على ألَّا تصلح وعلى ألَّا تنقض، أي أنَّها تريد ديمومتها أو استبدالها بأسوأ مِنها إذا لم يمكن الحفاظ عليها؛ وهو ما جرى بعد ثورات الربيع العربي التي انطلقت عام 2011م في احتجاجات سلمية لنقض الأنظمة دون مواجهات مسلَّحة، كما جرى في عقود الثمانينيَّات والتسعينيَّات مِن القرن الماضي.

وبالتالي، ينبغي إعادة دراسة واقع هذه الأنظمة والدول دراسة دقيقة، وموضوعية، ومستندة إلى كافَّة البيانات والمعلومات والحقائق، خصوصًا فيما يتَّصل بوظائفها ومهامها وأدوارها، وعلاقاتها بشعوبها، وبالدول الأجنبية المحتلَّة، ومعرفة نقاط ضعفها وقوَّتها، ثمَّ وضع المشروع الأنسب لها، بحسب طاقة وإمكانية شعوبها ووعيها، مع مراعاة المخاطر التي تحيط بكلِّ بلد وشعب على حدة. فكثيرًا ما كانت المشاريع السابقة نتاج عواطف غير عقلانية، أو رؤى شرعية منبترة عن فقه الواقع، أو ردَّات فعل قادت إليها سلوكيَّات الأنظمة ذاتها عداء أو احتواء.

الفصل الثاني

في التاريخ والسير

وفيه:

- قراءة منهجية للخلافات السِّياسية بين الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .
- التطلعات السياسية عند الصحابة (رضوان اللّه عليهم أجمعين).
- الصحابة الكرام والدرس السياسي.
- معالجة التاريخ.. بين الرّوائي والمؤرِّخ.
- أحاديث الفتن وآخر الزمان بين الرواية والكتمان.
- "عين حمئة".. فتوحات ذي القرنين غربًا.

في دروب التاريخ الإسلامي تتقدّم القراءة حين تُحمل بروح الإنصاف ودقّة المنهج، فتُمحَّص الروايات، ويُستحضر السياق، ويُفرَّق بين المقام والواقعة. هناك تُقرأ سِيَر الصحابة وأحداث الخلاف والفتن قراءةً واعية، تستخرج العبرة، وتصون الحرمة، وتُقيم ميزان الفهم على وفاءٍ لا يفرّط ولا يتهوّر.

قراءة منهجية للخلافات السّياسية بين الصّحابة (رضي الله عنهم)

تمهيد:

يمثِّل الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، بمجموعهم، المجتمع الإنساني الذي أحاط بالرَّسول ﷺ، على سبيل الإيمان به وبرسالته، والانتماء لدينه، والولاء له. وهذا المجتمع الذي أحاط بالرَّسول الكريم كان مجتمعًا متنوِّعًا ومتباينًا، وإن كان معظمهم مِن المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية، فقد كانوا موزَّعين على بيئات اجتماعية وطبيعية متعدِّدة، ما بين حضر وريف وبدو، وما بين بيئات جبلية وأخرى سهلية وثالثة صحراوية، وما بين بيئة تجارية وأخرى زراعية وثالثة رعوية، وما بين بيئة متصالحة وأخرى متنازعة، وما بين مجتمع عَرَفَ نظام الدَّولة، كما هو في جنوب الجزيرة وشمالها، وآخر ظلَّ في فلك القبيلة. وهذا التَّنوُّع الكبير في البيئات يصاحبه ضرورة تنوُّع في الثَّقافات والعادات والسُّلوكيات، والطَّبائع الشَّخصية. والاكتفاء في النَّظر للصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مِن خلال الرُّؤية الدِّينية، بعيدًا عن هذا التَّنوُّع، يُحدِث نوعًا مِن القصور في الوعي، وبالتَّالي الضَّعف في استيعاب حركة مجتمع الصَّحابة وتفاعلاته وظواهره السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية.

إنَّ أكثر ما أكَّده القرآن الكريم لأتباع الرُّسل، وهو يخاطبهم عن رسُلهم وأنبيائهم، هو حقيقة بشريَّتهم، وأنَّهم بشر مِن جملة البشر، مِن النَّاحية الطَّبيعية، لكنَّهم مِن النَّاحية الشَّرعية خيرة الأنفس في زمانهم، ولهذا اختارهم الله تعالى

لحمل رسالته وتبليغها للنَّاس، قولًا وفعلًا، بيانًا وبناءً. وعلى هذا الأساس فتزكية الله للأنبياء تقوم على اعتبار أنَّ الله اختارهم على العالمين لفضلهم وصفاتهم التي تميَّزوا بها، لا على تميُّز طينتهم البشرية وأنسابهم السُّلالية، **يقول تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[1]. وهذه القضية سعى القرآن الكريم في ترسيخها سدًّا لباب الغلو في الأنبياء، وقطعًا لدابر الجفاء عنهم، وهي ذاتها ما ينبغي استصحابها في شأن أصحاب الرَّسول ﷺ، فلا ينبغي أن تضيع الرُّؤية إليهم بين نظرات الغلو المفرطة ونظرات الجفاء المنفرطة، وذلك حتَّى يمكن الاستفادة مِن سيرتهم على قدر كبير مِن الوعي والفهم والفقه، إذ أنَّ معاني الاقتداء والاعتبار والاتِّعاظ لا يمكن أن تتحقَّق مِن سيرتهم دون هذه الرُّؤية المتوازنة الرَّاشدة.

وفهم الخلافات السِّياسية بين الصَّحابة لا يخرج عن تلك الرُّؤية التي سبق وأشرنا لها، إذ هي نتاج للمجتمع الإنساني والحراك البشري، مع بقاء أنَّ شخصيَّات الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانت في أسمى صور المجتمع الإنساني والحراك البشري، وإن وقعوا في نوع مِن الاجتهادات أو التَّأويلات الخاطئة. **ومِن هنا يمكن الحديث عن القراءة المنهجية للخلافات السِّياسية بين الصَّحابة.**

---

(1) الكهف: 110.

وراثة السياسة:

إحدى أهمِّ وظائف الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- سياسة مجتمعاتهم، لتحقيق كرامتهم الإنسانية، والقيام على مصالحهم الدِّينية والدُّنيوية، وضمان حقوقهم وحرِّيَّاتهم والدِّفاع عنها. **قال** ﷺ: (كانت بنو إسرائيلَ تَسُوسُهم الأنبياء، كلَّما هلك نبيٌّ خلَفَه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بعدي، وستكون خلفاء فتكثُرُ)، قالوا: فمَا تأمرنا؟ قال: (فُوا ببَيعةِ الأوَّلِ فالأوَّلِ، وأعطوهم حقَّهم فإنَّ اللهَ سائلهم عمَّا استرعاهم)[1]. **ومِن ثمَّ** فالسِّياسة إحدى وظائف النُّبوَّة التي يرثها أصحاب النَّبي عنه، وهذا ما فهمه الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِن القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبوية، وهم أفقه الأمَّة وأوعاها لخطاب الوحي. ومِن ثمَّ فالحرص عليها هو مِن الحرص على القيام بمهام النُّبوَّة ذاتها، بعد موت النَّبي وغيابه. ولهذا فإنَّ الصَّحابة تنافسوا عليها، لأنَّها مِن ميراث النُّبوَّة، لكنَّهم لم يتقاتلوا عليها، أو يتخاصموا ويتعادوا لأجلها. فحتَّى خلاف معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن في صلبه تَنازعًا على السُّلطة، وإنَّما التَّنازع على قضية دم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والقصاص ممَّن قتله، وهو المحفوظ والثَّابت والظَّاهر، في الرِّوايات التَّاريخية لما جرى بينهم. فلم يثبت إطلاقًا ادِّعاء معاوية لأحقِّيته بالخلافة، أو طلبه عليًّا أن يتنازل عنها له، بل غاية ما طلب معاوية القصاص مِن قتلة عثمان، والأخذ بثأره، قبل انعقاد الأمر لمن بعده.

---

(1) متفق عليه.

قال ابن حزم، في كتابه (الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحل): "ولم ينكر معاوية قطُّ فضل علي، واستحقاقه الخلافة، لكنَّ اجتهاده أدَّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود مِن قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على البيعة، ورأى نفسه أحقَّ بطلب دم عثمان...، وإنَّما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط، فله أجر الاجتهاد في ذلك، ولا إثم عليه فيما حُرِمَ مِن الإصابة كسائر المخطئين في اجتهادهم، الذين أخبر رسول الله ﷺ أنَّ لهم أجرًا واحدًا، وللمصيب أجرين". **وقال أبو المعالي الجويني**: "ومعاوية وإن قاتل عليًّا فإنَّه كان لا ينكر إمامته، ولا يدَّعيها لنفسه، وإنَّما كان يطلب قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ظانًّا أنَّه مُصيب، وكان مخطئًا"[1]. **وقال ابن تيمية**: "ومعاوية لم يدِّع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل عليًّا، ولم يُقاتل على أنَّه خليفة، ولا أنَّه يستحقُّ الخلافة، ويقرِّون له بذلك. وقد كان معاوية يقرُّ بذلك لمن سأله عنه. ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا عليًّا وأصحابه بالقتال، ولا يعلوا. **بل لمَّا رأى علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه أنَّه يجب عليهم طاعته ومبايعته، إذ لا يكون للمسلمين إلَّا خليفة واحد، وأنَّهم خارجون عن طاعته، يمتنعون عن هذا الواجب، وهم أهل شوكة، رأى أن يقاتلهم حتَّى يؤدُّوا هذا الواجب، فتحصل الطَّاعة والجماعة. وهم قالوا: إنَّ ذلك لا يجب عليهم، وأنَّهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأنَّ عثمان قُتِل مظلومًا باتِّفاق المسلمين، وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا امتنعنا ظلمونا واعتدوا علينا، وعلي لا يمكنه دفعهم، كما لم يمكنه الدَّفع عن عثمان، وإنَّما

(1) لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة: ص١٢٩.

علينا أن نبايع خليفة يقدر على أن ينصفنا، ويبذل لنا الإنصاف"[1].

فإذا أوَّل ما ينبغي إدراكه أنَّ الصَّحابة نظروا للسِّياسة كميراث نبوي ينبغي القيام به، وأنَّه مِن الأمور التي يجب قيامهم بها. فلم ينظروا للسِّياسة كوسيلة لمكاسبهم الخاصَّة، ومطامعهم الشَّخصية، ونزعاتهم الشَّهوانية، كما يفعل أهل الفجور والطُّغيان. وعلى هذا فلم يجر بينهم خصومة أو عداء أو قتال صراعًا على السُّلطة، بل اتَّحدت كلمتهم ضدَّ المرتدِّين مع اختلاف فئاتهم، وفي مواجهة الكفَّار.

التطلع للخلافة:

إذا تقرَّر لدينا أنَّ السِّياسة وظيفة مِن وظائف النُّبوَّة، وأنَّ الخلافة عليها بما تمنح الإنسان مِن سلطة تمنحه منزلة يمكنه معها تحقيق أعظم الأعمال وأجلَّ الغايات، مِن الدَّعوة، والحسبة، والقضاء، والجهاد، وإقامة العدل بين الخلق، وإيصال الإحسان إلى أهله، فقد كانت همم كبار الصَّحابة تتشوَّف لبلوغ هذه المنزلة. فإنَّ دأب الصَّحابة كان التَّنافس على أعظم الأعمال وأجلِّ الغايات، وخاصَّة مِنهم السَّابقين وأصحاب الشَّأن مِنهم. **وقد حكى لنا القرآن الكريم كيف أنَّ يوسف** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حرص على مقام الولاية لإيصال النَّفع إلى الخلق. **وفي الحديث عن** أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (سبعة يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: إمام عادِل، وشابٌّ نشأ في عبادةِ الله تعالى، ورجل

(1) مجموع الفتاوى: ج35/ 73.

قلبُه مُعلَّق في المساجد، ورَجُلان تحابَّا في الله.. اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أَخافُ الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالِيًا ففاضت عيناه)[1]. فأعظم النَّاس وأجدرهم أن ينال رضا الله، وأن يظلَّه تعالى في ظلِّه يوم القيامة، (إمام عادل)، فالحرص على هذا المقام أجدر ممَّا هو دونه. وقد قرَّر أهل العلم في ضوء نصوص الشَّرع أنَّ أعظم النَّاس أجرًا أنفعهم للنَّاس، ويدخل في هذا أصالة وابتداء الإمام العادل.

فتطلُّع بعض الصَّحابة للخلافة هو تطلُّع للقيام بأعظم الواجبات والأعمال، وأنفعها للخلق، وأكثرها ثوابًا، وأوسعها أثرًا. **وفي الحديث عن** سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: (لأُعطينَّ الرَّاية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله)، فبات النَّاس يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها، فلمَّا أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: (أين علي بن أبي طالب؟)، فقيل: هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه فأُتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبَرِأَ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الرَّاية، فَقالَ عَلِيٌّ: يا رَسولَ اللهِ، أُقَاتِلُهُم حتَّى يَكونُوا مِثلَنَا؟ فقال: (انفذ على رسلك حتَّى تنزل بساحتهم، ثمَّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم مِن حقِّ الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك مِن أن يَكونَ لكَ حمُر النَّعم)[2].

(1) متَّفق عليه.

(2) البخاري، رقم: (4210).

ففي الحديث أنَّ الصَّحابة رجا كلُّ مَن حضر مجلس الرَّسول أن ينال شرف هذا المقام وتطلَّعوا له.

نزعة القيادة والسِّيادة:

شتَّان بين شهوة التَّسلُّط والطُّغيان ونزعة القيادة والسِّيادة عند الإنسان، فالأولى استجابة للشَّهوة التي تدعو الإنسان للبطش والإجرام والبغي والعدوان، إذ غاية ما يريده تحقيق مصالحه وتلبية مطامعه، أمَّا نزعة القيادة والسِّيادة فهي استجابة للطَّاقات الرُّوحية والعقلية والأخلاقية التي تدفع الإنسان للقيام بمسئوليات النَّاس ونفعهم، وإصلاح شئونهم، وريادة مسيرهم إلى معاني التَّمكين والنَّصر والعزَّة والفلاح. ومَن خلط بين المعنيين لمجرد اشتباه الأمرين في الصُّورة لم يميِّز بين الحقِّ والباطل، وأئمَّة العدل وأئمَّة الجور، والسَّاعين في الإصلاح في الأرض والمفسدين في الأرض. قال ابن تيمية: "وأمَّا سؤال الولاية فقد ذمَّه ﷺ، وأمَّا سؤال يوسف، وقوله: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1]، فلأنَّه كان طريقًا إلى أن يدعوهم إلى الله، ويعدل بين النَّاس، ويرفع عنهم الظُّلم، ويفعل مِن الخير ما لم يكونوا يفعلوه، مع أنَّهم لم يكونوا يعرفون حاله، وقد علم بتعبير الرُّؤيا ما يؤول إليه حال النَّاس، ففي هذه الأحوال ونحوها ما يُوجب الفرق بين مثل هذه الحال، وبين ما نُهي عنه"[2].

(1) يوسف: 55.

(2) مختصر الفتاوى المصرية: ص564.

وأيُّ قراءة لما ورد عن الصَّحابة في باب السِّياسة وطلب الرِّئاسة إنَّما يأتي في هذا الإطار، إذ أنَّ الإسلام لا يمنع مِن هذه النَّزعة القيادية والسِّيادية، بل يوجِّهها ويرشدها ويهذِّب سلوك الإنسان في طريق نيلها، أو حتَّى بعد بلوغها. وكمثال حيٍّ للصُّورتين نورد أمثلة على هذا وذاك.

مِن ذلك ما جاء عن عبيدالله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، قال: بلغنا أنَّ مسيلمة الكذَّاب قدم المدينة، فنزل في دار بنت الحارث، وكان تحته بنت الحارث بن كريز، وهي أمُّ عبد الله بن عامر، فأتاه رسول الله ﷺ، ومعه ثابت بن قيس بن شمَّاس، وهو الذي يُقال له "خطيب رسول الله"، وفي يد رسول الله قضيبٌ، فوقف عليه فكلَّمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلَّيت بيننا وبين الأمر، ثمَّ جعلته لنا بعدك. فقال النَّبي ﷺ: (لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتكه، وإنِّي لأراك الذي أُرِيتُ فيه ما أُرِيت، وهذا ثابت بن قيس، وسيجيبك عنِّي)، فانصرف النَّبيُّ. قال عبيدالله بن عبد الله: سألت عبد الله بن عبَّاس عن رؤيا رسول الله ﷺ التي ذكر، فقال ابن عبَّاس: ذُكِر لي أنَّ رسول الله قال: (بينا أنا نائم أريت أنَّه وُضِع في يدي سواران مِن ذهب، ففظعتهما وكرهتهما، فأُذن لي، فنفختهما فطارا، فأوَّلتُهما كذَّابين يخرجان). فقال عبيدالله: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة الكذَّاب[1]. ويؤثر أنَّ مسيلمة عاد إلى اليمامة وادَّعى النُّبوَّة، ثمَّ أرسل إلى رسول الله ﷺ يقول له: "مِن مسيلمة رسول الله إلى محمَّد رسول الله.. ألا إنِّي أوتيت الأمر معك، فلك نصف الأرض ولي نصفها،

(1) البخاري، رقم: (4378).

ولكنَّ قريشًا قوم يظلمون".

وقد جاء في الحديث أنَّ العباس بن عبد المطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بعد أن خرج مِن عند رسول الله ﷺ في مرضه الذي قُبِض فيه، فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا، وإنِّي والله لأَرى رسول الله ﷺ سوف يُتوفَّى مِن وجعه هذا، إنِّي لأَعرِفُ وُجُوه بني عبدالمـُطَّلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمَن هذا الأمرُ، إن كان فِينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال علي: إنَّا واللهِ لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يُعطِينَاها النَّاس بعده، وإنِّي والله لا أسألُها رسول اللهِ[1]. فالعبَّاس وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا متطلِّعين للأمر، وفي حين أراد العبَّاس سؤال الرَّسول إيَّاها، أبدى علي حكمة في التَّعامل وترك الأمر لتشاور المسلمين، والتزم عدم سؤالها والسَّعي لها، لما يعلمه مِن النَّهي عن ذلك، ولما قد ينشأ مِن حرمان الرَّسول إيَّاهم كاحتمال وارد، كما في حديث أبي سعيد عبد الرحمن بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا عبد الرحمن بن سمُرَةَ.. لا تَسأَل الإمارة، فإنَّك إن أُعطِيتَها عن غير مسألة أُعِنت عليها، وإن أُعطِيتَها عن مسألة وُكلت إليها)؛ وحديث أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: (إنَّكم ستحرِصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة)[2].

وقد عقَّب الله تعالى بعد قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا

(1) البخاري، رقم: (4447).

(2) البخاري، رقم: (7148).

يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ بقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1]، فيما يُظهر أنَّ الفريق الذي لا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا لهم العاقبة في الدُّنيا، إذ مطلع الآية يشير لشأن الآخرة، فيما قد يسأل المرء: فما لهم في الدُّنيا؟ فجاء الرَّدُّ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾، **كما جاء على لسان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه:** ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[2].

حفظ المنزلة والمرتبة:

إنَّ مما جُبِل عليه بنو آدم حفظهم لمنازلهم ومراتبهم التي تنزلهم إيَّاها أحسابهم، مِن الأخلاق والأفعال والمواقف، وألَّا تنزع عنهم طالما أنَّهم يقومون بواجبات تلك المنزلة والمرتبة. وفي هذا الإطار تأتي الإشارة إلى سليمان بوصفه (آل داود) تعبيرًا عن الامتداد المنهجي والسِّيري، في **قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[3]، **فإنَّ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ**

---

(1) القصص: 83.

(2) الأعراف: 128.

(3) سبأ: 10 – 13.

سار في ملكه بسيرة والده، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾[1].

ومما ثبت في السِّيرة النَّبوية، أنَّ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يقدِّم القبائل لرسول الله ﷺ، في مواسم الحجِّ، ليعرض نفسه عليهم ليقبلوا دعوته أو يقوموا بحمايته، كان يعدِّد مآثر ومفاخر كلِّ قبيلة، عارضًا أنسابها وأحسابها ومنزلتها في العرب، لأنَّ أمر حمل دعوة الرَّسول أو الدِّفاع عنه يحتاج لسند قوي، وقوم ذوي شوكة، وهذا لا يتأتَّى دون تصدُّر القبيلة لعظائم الأعمال ومكارم الأخلاق كابرًا عن كابر، بحيث يستشفُّ مِن تاريخها وسيرتها مدى إمكانية قيامها بمسئولية استضافة الرَّسول ﷺ، والدِّفاع عنه.

ونظرًا لما تميَّزت به قبيلة قريش مِن مكانة ومنزلة جاء في الحديث: (النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيشٍ في هذا الشَّأنِ، مُسلِمُهُم تَبَعٌ لِمُسلِمِهِم، وكافِرُهُم تَبَعٌ لِكافِرِهِم)[2]، والمقصود بالنَّاس هنا العرب. ذلك أنَّ قريشًا كانت تتميَّز بالمكانة الاجتماعية والدِّينية والاقتصادية، ما جعل العرب تنظر لها بعين التَّقدير والاحترام والتَّبجيل في ذلك الزَّمان، فلا تتقدَّمها.

وقد أُثِر أنَّ رسول الله ﷺ، حين اشتدَّت وتيرة المعركة على المسلمين يوم حنين، وكادوا أن يُهزموا، وفرَّ الكثيرون عنه، قال: (أنا النَّبيُّ لا كذب، أنا ابن

(1) النمل: 15 – 16.

(2) البخاري، رقم: (3495).

عبدالمطَّلب)، وابنُ عمِّه، أبو سُفيان بن الحارث بن عبدالمُطَّلِب، يَقُودُ به بغلته. وقد قال ابن إسحاق في هذا الشَّأن: "وكان عبدالمطَّلب مِن سادات قريش، محافظًا على العهود، متخلِّقًا بمكارم الأخلاق، يحبُّ المساكين، ويقوم في خدمة الحجيج، ويُطعم في الأزمات، ويقمع الظَّالمين، وكان يُطعم حتَّى الوحوش والطَّير في رؤوس الجبال..، وكان رئيس بني هاشم وبني المطَّلب في حرب الفجَّار، شريفًا شاعرًا، ولم يدرك الإسلام".

وفي السِّيرة، عندما أسلم أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قبيل فتح مكَّة، وجاء إلى رسول الله ﷺ، قال العبَّاس للرَّسول: يا رسولَ اللهِ.. إنَّ أبا سفيان رجل يحبُّ الفخر، فاجعَل لَهُ شيئًا. قال: (نعَم، مَن دخلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه داره فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن)[1].

القيام بالأمانة وأداءها:

لقد أدرك الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ المسئوليَّات والمهام والوظائف الدِّينية والدُّنيوية أمانات، **والله تعالى يقول:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾[2]، وهم مخاطبون بأداء الأمانات والقيام بها، قبل غيرهم، خاصَّة مِنهم السَّابقين للإيمان، والذين اعتنى رسول الله ﷺ بتربيتهم وتوعيتهم وتأهيلهم للقيام بهذه

(1) مسلم، رقم: (1780).

(2) النساء: 58.

المسئوليَّات، والأجدر أن يقوموا بها مِن غيرهم. ولهذا كان مِن كلام أبي بكر في السَّقيفة أنَّ يرشِّح لخلافة الرَّسول عمر بن الخطَّاب وأبا عبيدة عامر بن الجرَّاح، وجعل عمر بن الخطَّاب العهد مِن بعده في ستَّة، هم مِن أخصِّ النَّاس بالرَّسول وأقربهم إليه، وأكثرهم حملًا للمهام والأعمال التي وكَّلهم بها.

وعندما رشَّح عمر بن الخطَّاب السِّتَّة للخلافة بعده، وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، فوَّض سعد ما له في ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، والزُّبير إلى علي بن أبي طالب، وطلحة إلى عثمان بن عفَّان، فقال عبد الرحمن بن عوف لعلي وعثمان: أيُّكما يبرأ مِن هذا الأمر، فنفوِّض الأمر إليه ليولي أفضل الرَّجلين الباقيين، فسكت عثمان وعلي، أي أنَّهما كانا حريصين على ألَّا يخرجا مِن الاختيار، خلافًا للأربعة الآخرين الذين تنازلوا عنها لإخوانهم.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُلتُ: يا رسول الله.. ألا تستعملني؟، فضرب بيده على مَنكبي، ثمَّ قال: (يَا أَبَا ذَرٍّ.. إنَّك ضعيف وإنَّها أمانة، وإنَّها يوم القيامة خزي وندامة، إلَّا مَن أخذها بحقِّها، وأدَّى الَّذي عليه فيها)[1]. إذن فالرَّسول لم ينهه عن سؤال الأمر ولكن أرشده إلى ضعفه وعدم صلاحيَّته له؛ وإلَّا فلو كان سؤالها ابتداء منكرًا لنهاه عن ذلك، ولهذا أشار إلى أنَّ أخذها بحقِّها هو الأليق والأنسب.

(1) مسلم، رقم: (1825).

السِّياسة ميدان اختلاف لا اتفاق:

البعض يتصوَّر أن السِّياسة ميدان اتِّفاق لا اختلاف، وهذا مِن أكبر الأخطاء التي يقع فيها العقل المسلم عندما ينحو للمثالية الغالية. فالخلاف على القضايا السِّياسية وقع في عهد الرَّسول ﷺ كثيرًا، فوقع بين المهاجرين والأنصار، وبين أبي بكر وعمر، وبين الرَّسول وأصحابه، وبين الكهول والشَّباب، والأمثلة على حضور الخلاف في مسائل الحكم والحرب والصُّلح والإدارة والعطاء والتَّعيين كثيرة. وهذا أمر طبيعي جدًّا، لأنَّ الخلاف حقيقة ظاهرة في البشر في كثير مِن أحوالهم.

وقد وقعت الخلافات السِّياسية بين الصَّحابة بعد وفاة الرَّسول مباشرة، وذلك كالخلاف على مَن يخلفه، ثمَّ الخلاف مع أبي بكر على قتال المرتدِّين، ثمَّ الخلاف مع عمر على تقسيم سواد العراق، ثمَّ الخلاف مع عثمان على بعض اجتهاداته في الحكم، وكذلك مع علي أيضًا. ومِن هذه الخلافات ما حُسم نظريًّا وعمليًّا، ومِنها ما ظلَّ قائمًا نظريًّا وإن تباين الموقف العملي مِنها. ومِن هذه الخلافات ما ألجأ للقضاء، وبعضها للسَّيف، وهكذا.

إذن الظَّنُّ بأنَّ عالم السِّياسة الذي تتنافس عليه همم الرِّجال وعزائمهم وتطلُّعاتهم، وتتصادم فيه مسائل النُّفوذ وقضايا المصالح، وتتدافع فيه الولاءات والعصبيات، هو عالم ساكن وهادئ ومحلَّ إجماع، يخالف حقيقة الأمر في ذاته، خاصَّة وأنه عالم معقَّد ومضطرب. وبالتَّالي فما صدر عن الصَّحابة في هذا

الشَّأن يطَّرد مع طبيعة المجتمعات البشرية والفطرة الإنسانية، فلا ينبغي الإنكار المطلق أو الاستياء مِنها. ولولا تلك التَّجارب والخبرات التي خلَّفها لنا الصَّحابة لما عرفنا شمول الشَّريعة وحقيقة التَّديُّن، فالتَّديُّن جهد بشري لا ملائكي.

عقيدة وإيمان:

ينبغي لنا، ونحن نتحدَّث عن الخلافات السِّياسية التي جرت بين الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين، أن نقرِّر مجموعة قضايا ثبتت بنصوص الوحي، مِن الكتاب والسُّنَّة، وبما ثبت مِن سيرتهم العطرة وتاريخهم المشرق. ومِن ذلك أنَّهم خيار الأمَّة، وأفضلها وأرفعها منزلة، على الإطلاق، فلا يدانيهم أحد ممَّن جاء بعدهم فضلًا عن أن يتجاوزهم. وأنَّ الله تعالى شهد لهم بالإيمان والهجرة والنُّصرة والولاء والعبادة والدَّعوة والجهاد وبالجنَّة كذلك. وأنَّ الله تعالى أخبر أنَّه قد غفر لهم ذنوبهم، وعفا عن سيِّئاتهم، وتجاوز عن أخطائهم، ورضي عنهم، بل وأحبَّهم. وأنَّ التَّطاول عليهم، والإساءة لهم، طعن في الدِّين، وانحراف عن الهدى. وأنَّهم رغم كلِّ ذلك غيروا معصومين، فيصِّح مِنهم الذَّنب، والخطأ، والتَّقصير، والهوى، باعتبار جبِّلتهم البشرية. وأنَّ هذا لا يقلِّل مِن شأنهم، ولا ينزع عنهم فضلهم وسبقهم ومكانتهم.

يقول ابن تيمية: "وممَّا ينبغي أن يُعلم أنَّه وإن كان المختار الإمساك عما شَجَرَ بين الصَّحابة، والاستغفار للطَّائفتين جميعًا، وموالاتهم، فليس مِن

الواجب اعتقاد أنَّ كلَّ واحدٍ مِن العسكر لم يكن إلَّا مجتهدًا متأوِّلًا كالعلماء، بل فيهم المذنب والمسيء، وفيهم المقصِّر في الاجتهاد لنوع مِن الهوى، لكن إذا كانت السَّيِّئة في حسنات كثيرة كانت مرجوحة مغفورة. وأهل السُّنَّة تحسن القول فيهم، وتترحَّم عليهم، وتستغفر لهم، لكن لا يعتقدون العصمة مِن الإقرار على الذُّنوب، وعلى الخطأ في الاجتهاد، إلَّا لرسول اللّه ﷺ، ومَن سواه فيجوز عليه الإقرار على الذَّنب والخطأ، لكن هم كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ ...﴾[1]"[2].

وأفضل ما ينبغي في مثل هذا المقام ما يلي:

أوَّلًا: التَّثبُّت فيما روي عن الفتن والخلافات التي وقعت بينهم، وعدم اعتماد المصادر التَّاريخية على علَّاتها، خصوصًا ونحن نتعامل مع جيل التَّلقِّي والفهم والتَّنزيل والنَّقل إلينا. وبالتَّالي ينبغي أن يتمَّ التعامل مع تلك المرويَّات بمنهج المحدِّثين في التَّدقيق والتَّحقيق في سند الرِّوايات ومتنها.

ثانيًا: وضع المرويات في سياقاتها الزَّمانية والمكانية والظَّرفية، مع تغليب جانب إحسان الظَّنِّ، وتلمُّس العذر، ودون تهويل أو مبالغة.

ثالثًا: تحكيم ما عُلم عنهم في فضلهم وسابقتهم وخيريَّتهم فيما فعلوه، باعتباره امتدادًا لسيرتهم وتاريخهم، إذ لا يمكن أن يتَّهموا بانحراف أو نكوص

---

(1) الأحقاف: 16.

(2) مجموع الفتاوى: ج4/ 434.

أو ارتداد، والعياذ بالله عن الهدى والرُّشد. ووضع ما وقع مِنهم في دائرته الإنسانية البشرية، رضا وغضبًا، حبًّا وبغضا، إذ هم غير معصومين.

رابعًا: لا شكَّ أنَّ ما حدث بينهم تسبَّبت فيه عوامل عدَّة، بعضها يتعلَّق بفقه النُّصوص وتأويلها أو تنزيلها، وبعضها يتعلَّق بفهم مواقف الطَّرف الآخر ومقاصده، وبعضها يتعلَّق بالمؤامرات والدَّسائس التي كانت تحاك خفية بينهم، وبعضها يتعلَّق بتبدُّل الأحوال وتغيُّر المجتمع، وبعضها يتعلَّق بطبيعة الخلافات السِّياسية ومَن يدخل فيها طلبًا لمصلحة أو لثأر أو لعصبية. ولا ينبغي الوقوف في هذا الخلاف على سبب واحد، وعلَّة واحدة، لأنَّ هذا مِن سذاجة الفكر وضحالة الوعي.

خامسًا: التَّمييز بين المرويات التي لا تعطي إلَّا جانبًا مِن المشهد وبين المشهد الذي وقع فعليًّا، فإنَّ ما روي هي قصَّة مِن جانب واحد لا مِن كلِّ جوانبها. وهذا يتطلَّب الرُّجوع إلى المصادر المختلفة والرِّوايات المتعدِّدة، الثَّابتة والصَّحيحة، وجمع بعضها إلى بعض، وتفسيرها على ما ذكره أقرب النَّاس للأحداث التي جرت، فهم الذين خبروها وعايشوا أهلها.

سادسًا: التَّمييز بين التَّقييم العاطفي، والمستند للميول النَّفسية أو المشاعر، وبين التَّقييم المستند للأدلَّة والشَّواهد وللشَّرع الهادي والعقل الرَّاشد. فكثير ممَّن يتكلَّم عن أمثال -علي أو معاوية- في الظُّروف التي تمرُّ بها الأمَّة في ظلِّ غلبة التَّشيُّع وآثاره المدمِّرة يخلط بين الموضوعية والعاطفية، وردَّات الفعل والمنهجية العلمية، إذ هو يقرِّر ابتداء ثمَّ يستدلُّ بكلِّ ما يمكنه، ويرفض كلَّ ما

يعارض طرحه ووجهة نظره، أو يغفل عنه.

سابعًا: التَّمييز بين الصَّحابة وتفاوتهم في الفقه والإيمان والعمل، وعدم استصحاب المثال الأعلى فيهم على الجميع، فليسوا جميعًا في منزلة أبي بكر أو عمر، بل هم درجات ومراتب، يختلف بعضهم عن بعض. فقياس النَّاس في مجتمع ما على حال المثل الأعلى هو غمط لهم، وغلو يؤدِّي إلى الظُّلم والجور في الأحكام.

ثامنًا: البحث والقراءة والاطِّلاع لمعرفة الصَّواب مِن الخطأ، وأخذ الدُّروس والعبر والعظات، لا لمحاكمة جيل مضى إلى ربِّه واستقبل ما وعده ربُّه، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾[1].

التشكيك والطعن:

هناك نفسيَّات خبيثة، تجمع بين الجهل والحمق والحقد والمرض القلبي، لا ترى في الأشياء إلَّا جانبها السيِّء، مهما صغر وانحسر، لتقذف بذلك الآخرين وتسقطهم عن مكانتهم، سعيًا وراء إشباع غليل نفوسها المريضة وتشويه الحقِّ وأبطاله، والعدل ورجاله، والخير وأهله. ولهذا فإنَّ الدَّعوة للإمساك عمَّا جرى بين الصَّحابة تواكب مع ظهور فرق الرَّافضة الذين أطالوا ألسنتهم على مقام الصَّحابة قدحًا وذمًّا وشتمًا. وهو المنهج الذي ينبغي اتِّباعه مع كلِّ سفيه وطائش وخبيث،

(1) البقرة: 134.

لأنَّ طبيعة الحديث مع هؤلاء عمَّا لا تبلغه عقولهم، ولا تقف عليه قلوبهم، بالأدب والإنصاف والتَّوقير، فتنة لهم وللمتكلِّم معهم أو المجادل لهم.

والعلم ليس لسانًا بذيئًا، ولا تتبُّعًا للعورات والزَّلات بهدف إسقاط النَّاس عن مقاماتهم العالية، ولا تشكيكًا في الثَّوابت مِن خلال المشتبهات، بل هو اعتماد على القضايا اليقينية، والأدلة الواضحة، والمناهج المنطقة الموضوعية، بغية العظة والاعتبار، ومعرفة الصَّواب مِن الخطأ، والممكن مِن المستحيل، والحقيقة مِن الكذب.

اعتراف الصَّحابة رغم خلافهم بفضل مخالفيهم:

قال أبو المعالي الجُويني: "ومعاوية -وإن قاتل عليًّا- فإنَّه كان لا يُنكر إمامتَه، ولا يدَّعيها لنفسه، وإنَّما كان يطلب قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ظانًّا أنَّه مصيب، وكان مخطئًا"[1]. **بل قد ورد عن** أبي مسلم الخولاني أنَّه قال لمعاوية: أنت تنازع عليًّا أم أنت مثله؟ فقال: "لا والله، إنِّي لأعلمُ أنَّ عليًّا أفضلُ منِّي، وأحقُّ بالأمر منِّي، ولكن ألستُم تعلمون أنَّ عثمان قُتِل مظلومًا، وأنا ابن عمِّه؟! وإنَّما أطلب بدمه، فأتوا عليًّا فقولوا له فليدفع إليَّ قتلة عُثمان، وأسلِّم له"[2].

وقد كتب عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل الأمصار كتابًا يذكر فيه ما جرى بينه وبين أهل صفِّين: "وكان بدءُ أمرِنا أنَّا التقينا والقوم مِن أهل الشَّام،

(1) لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة: ص129.

(2) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ج2/ 523.

والظَّاهر أنَّ ربَّنا واحد، ونبيُّنا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، لا نستزيدهم في الإيمان بالله والتَّصديق برسوله ﷺ، ولا يستزيدُوننا، الأمر واحد، إلَّا ما اختلفنا فيه مِن دمِ عُثمان، ونحن مِنه براء"[1].

وكان علي يقول لأتباعه: "إنَّا لم نقاتلهم على التَّكفير لهم، ولم نقاتلهم على التَّكفير لنا، ولكنَّا رأينا أنَّا على حقٍّ، ورأوا أنَّهم على حقٍّ"[2]، **بل كان يقول عنهم:** "إخوانُنا بغَوا علينَا"[3].

ولا يثبت أبدًا أيُّ نصٍّ صحيح صريح عنهم في طعن بعضهم في بعض، وشتم بعضهم لبعض، أو اتِّهام بعضهم لبعض بالكفر أو النِّفاق أو الفجور، بل إنَّ الخوارج استنكروا على عليٍّ عدم استباحة أموال خصومه وفروج نسائهم! لمَّا رأوه يعاملهم معاملة الإحسان ويصلِّي على قتلاه وقتلى معاوية جميعًا، ويدعو لهم!

(1) نهج البلاغة: ج3/ 85- 86.

(2) قرب الإسناد، للحميري: ص313.

(3) عن أبي العنبس، عن أبي البختري، قال: سُئِل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أهل الجمل: أمشركون هم؟ قال: مِن الشرك فرُّوا. قيل: أمنافقون هم؟ قال: إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلَّا قليلًا. قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا. انظر: السنن الكبرى، للبيهقي: ج8/ 173.

التطلعات السياسية عند الصحابة (رضي الله عنهم)

تمهيد:

القرآن الكريم كتاب ربَّاني، أنزله الخالق سبحانه على عباده ليُظهر لهم صفاته وكماله وجلاله وجماله، ويوضِّح لهم بشريَّتهم وما فيها مِن جوانب خير وشر، وصلاح وفساد، وعدل وظلم، وإنصاف وبغي، وثبات وتغيُّر، وطبع وغريزة، وفطرة وشهوة، ومداخل للشيطان ومنابع للإيمان، وأنَّ الأنبياء جميعًا هم مِن جنس طبيعة البشر إلَّا فيما اختصَّهم الله تعالى به، وعصمهم مِنه، ونزَّههم عنه، نصًّا وبداهة؛ حتَّى أنَّ رسول الله ﷺ حين قال لأصحابه: (ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا وقد وُكِّلَ به قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ)، قالوا له يستوضحون شأنه: وإيَّاكَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: (وإيَّايَ، إلَّا أنَّ اللهَ أعانَنِي عليه فأسلَمَ، فلا يَأْمُرُنِي إلَّا بخَيرٍ)[1].

ولإذهاب القداسة عن البشر جميعًا، بمَن فيهم الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام، تحدَّث القرآن الكريم عن ذنوبهم وأخطائهم، على سبيل التفصيل والإجمال، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ

(1) مسلم، رقم: (2814).

(2) التحريم: 1.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾[1]، فقد فصَّل في الأولى وخصَّص، وأجمل في الثانية وعمَّم. ولم ينف عنه الخطأ والنسيان والذنب.

وفيما عدا ذلك، فإنَّ الله تعالى أثبت للأنبياء والرسل ما أثبته للبشر مِن ضرورات واحتياجات، ومِن رغبات وتطلُّعات، ومِن شهوات وغرائز، صانوها عن الحرام وإن أوشكت أن توقعهم في الحرام، **كما جاء عن يوسف** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾[2].

وإثبات قياس الأولى في حقِّ مَن دونهم، مِمَّن اختارهم الله تعالى لصحبة أنبيائه ورسله مِن الحواريين والأتباع، قياس صحيح؛ فهم وإن كانوا في كلِّ أمَّة خير أجيالها وأفضل أهلها، وأزكاهم على الإطلاق، إلَّا أنَّ الجانب البشري فيهم ليس منزوعًا عن حركتهم وحياتهم وآرائهم ومواقفهم، فلا يمكن تفسير حركتهم وآرائهم ومواقفهم وانفعالاتهم دون عودة لهذا الجانب وتقييم مدى تأثيره فيهم. وقد كان القرآن الكريم حريصًا على إيضاح علم الله تعالى لهذا الجانب مِنهم، **يقول تعالى**: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[3]، **ويقول**: ﴿... أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[4]،

---

(1) الفتح: 2.

(2) يوسف: 24.

(3) البقرة: 187.

(4) البقرة: 235.

ويقول سبحانه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[1]، ويقول: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾[2].

والكلام عن التطلُّعات السياسية عند الصحابة لا يستهدف الطعن أو التشكيك فيهم، أو الإساءة لهم، بل لاتِّخاذهم قدوة ومثلًا يمكننا أن نَدنُوَ مِنه، وإلَّا فلو كانوا معصومين لم يكن لمعنى الاقتداء بهم حكمة، إذ مَن عُصم أنَّى يمكن إدراكه مِن غير المعصوم؟! لكن لـمَّا علمنا أنَّهم -رغم خيريَّتهم- قاوموا نزواتهم ومطامعهم وشهواتهم وأحكموا طبائعهم وغرائزهم وأخلاقهم، عرفنا أنَّ الأمر بالمجاهدة والمقاومة والمداومة على التوبة والعودة إلى الله مع كلِّ خطأ وذنب وغفلة وهوى.

ومِن ثمَّ فحديثنا هنا عن "التطلُّعات السياسية عند الصحابة" هو حديث عن أعزِّ مَن نحب، وأغلى مَن نودُّ، وأعلى مَن نقتدي بهم. ولهذا فينبغي أن يكون حديثنا عنهم حديثًا واقعيًّا محفوفًا بالتوقير، وحديثا صريحًا مصبوغًا بالتقدير، وحديثًا معتبرًا مردوفًا بالاستغفار والدعاء لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[3]، والمخاض في هذا الميدان مظنَّة زلل غير مقصود، وتأويل غير متيقَّن، وإنَّما هي محاولة للفهم والاستنباط، مع وجلٍ

(1) الأنفال: 67.

(2) النور: 63.

(3) الحشر: 10.

تـامٍّ أن نـسيء لرموزنـا العظـام وسـاداتنا الكـرام. ولكـن قـد قيـل: الحـديث ذو شجون.

تطلعات النفوس:

ما الذي أخرج آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهـو الـذي رأى ربَّه، وحظي بتكريمه، ونـال إحسانه وإنعامه، ممَّا كان قد بلغه مِن منزلة ومكانة في الجنة؟ إنَّه ليس إلَّا التطلُّع للخلود وإلى الملك؛ **يقول تعـالى:** ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]. لقد تسبَّب هـذا المنـزع لـدى أبينـا آدم إلى نسيان الأمر الإلهي، نسيان غفلة أو نـسيان تـرك، والأكـل مِـن الـشجرة التي نُهي عن الأكل مِنها، هو وزوجه، لتحقيق هذا التطلُّع الذي رغب في تحقُّقه.

لقـد وقـع الأب في فـخِّ الـضعف البـشري، وهـو ضـعف متـوارث لا يمكـن الفكاك مِنه إلَّا بمزيد عـون إلهـي. فقـد جـاء أنَّ رسـول الله ﷺ قـال: (جَحَـد آدمُ فجَحَدَت ذُرِّيَّتُه، ونَسِيَ آدمُ فنَسِيَت ذُرِّيَّتُه، وخَطِئَ آدمُ فخَطِئَت ذُرِّيَّتُه)[2]. وقياسًا عليه: وتطلَّع آدم فتطلَّعت ذرِّيته.

هذا الجانب البشري في الإنسان، هو محلُّ الابـتلاء والاختبـار، وهـو الـذي بمدافعتـه يتمـايز الخلـق ثباتًـا وصـبرًا، كمـا يتفـاوتون في القيـام بالواجبـات

(1) الأعراف: 20-21.

(2) سـنن الترمـذي، رقـم: (3076)؛ وقـد صـحَّح الحـديث الـشيخ الألبـاني في صـحيح الترمـذي، والوادعي في الصحيح المسند، رقم: (1408).

والمسئوليَّات الملقاة على كاهلهم. ونفي هذا الجانب سعيًّا في ادِّعاء العصمة أو إضفاء الكمال على البشر ليس منهجًا شرعيًّا، بل هو ما عابه القرآن الكريم على غلاة الاعتقاد في عيسى وأمثاله، عندما أرادوا نزع صفة البشرية عنهم.

وإذا كان آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تطلَّع لأن يكون خالدًا وملكًا [إذ على إحدى القراءات (مَلِكَين)، كما ورد عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان يقول: "ما طمعا في أن يكونا مَلَكَين، لكنَّهما استشرفَا إلى أن يكونا مَلِكَين، وإنَّما أتاهما الملعون مِن جهة الـمُلك". **ويدلُّ على هذا قوله تعالى:** ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[1]، كما ذهب بعض المفسِّرين] فإنَّ هذا التطلُّع للمَلَكِيَّة تطلُّع متوارث في ذرِّيته، مؤمنهم وكافرهم، برِّهم وفاجرهم.

ومِن عجيب القدر أنَّ داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما نال السلطة بعد طالوت دعا الله تعالى أن يهبه ملكًا لا ينبغي لأحد مِن بعده؛ فهو لم يكتف بملك طالوت الذي ورثه بل سأل الله أمرًا أكبر وأعظم؛ وهو النبيُّ ذاته الذي لفت انتباه آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما عرضت عليه ذرِّيته[2]، مِن سائر ذرِّيته.

(1) طه: 120.

(2) **وفيه:** (لما خلق الله آدمَ مسح ظهرَه، فسقط مِن ظهرِه كلُّ نَسَمة هو خالقُها مِن ذُرِّيَّتِه إلى يوم القيامة، وجعل بين عَينَي كلِّ إنسان مِنهم وبِيصًا مِن نور، ثمَّ عرضهم على آدم، فقال: أَي رَبِّ.. مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاءِ ذُرِّيَّتُك، فرأى رجلًا مِنهم فأعجبه وَبِيصُ ما بين عينَيه، فقال: أي رَبِّ.. مَن هذا؟ فقال: هذا رجل مِن آخِرِ الأمم مِن ذُرِّيَّتِك، يُقالُ له داوُدُ. فقال: رَبِّ.. كم جَعَلت عُمرَه؟ قال: سِتِّين سنة. قال: أي رَبِّ.. زِدهُ مِن عُمرِي أربعين سنة..)، الحديث. سنن الترمذي، رقم: (3076).

فإذا ادَّعينا أنَّ بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تطلَّع للحكم والإمارة، فإنَّ هذا لا يعدُّ ادِّعاء يخالف العقل أو الطبيعة أو الواقع أو ما أخبر به الشرع عن مَن هو خير مِنهم. فهو كلام في سياق الحديث عن بشريَّتهم وإنسانيَّتهم. وهذا الأمر يفسِّر لنا بعضًا ممَّا وقع بينهم، أو وقع بهم. **وقد جاء في السيرة النبوية** أنَّ رجلًا مِن أصحاب النبي ﷺ سأله الإمارة، وقال له: يا رَسولَ اللهِ.. استَعمَلتَ فُلانًا ولَم تَستَعمِلني؟ قال: (إنَّكُم سَتَرَونَ بَعدِي أثَرَة، فاصبِرُوا حتَّى تَلقَونِي)[1]. **وفي الصحيحين** أنَّه ﷺ قال: (يا عَبدَ الرَّحمَنِ بنَ سَمُرَةَ.. لا تَسأَلِ الإمارَةَ، فإنَّكَ إن أُوتِيتَها عن مَسأَلَةٍ وُكِلتَ إلَيها، وإن أُوتِيتَها مِن غيرِ مَسأَلَةٍ أُعِنتَ عليها)[2].

الصحابة الذين تطلعوا للإمارة:

جاء عن أبي ذرٍّ الغفاري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مَن هو في زهده، أنَّه قال: قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ.. ألَا تَستَعمِلُنِي؟ قال: (فَضَرَبَ بيَدِهِ علَى مَنكِبِي، ثُمَّ قالَ: يا أَبَا ذَرٍّ.. إنَّكَ ضَعِيف، وإنَّهَا أَمَانَةُ، وإنَّهَا يَومَ القِيَامَةِ خِزيٌ وَنَدَامَةٌ، إلَّا مَن أَخَذَهَا بحَقِّهَا، وَأَدَّى الذي عليه فِيهَا)[3]. فإذا كان أبو ذرٍّ قد تطلَّع للإمارة على ما فيه مِن ضعف على تحمُّلها فكيف بمَن توفَّرت فيهم قدرات السيادة ومواهب القيادة وإمكانات الإمارة؟!

إنَّ التطلُّع للأمور لها أسباب عديدة، تختلف باختلاف طاقات الناس،

(1) البخاري، رقم: (7057).

(2) البخاري، رقم: (6622)؛ ومسلم، رقم: (1652).

(3) مسلم، رقم: (1825).

ونظرتهم للأمور، وتقديرهم لها، وإيمانهم بأهميَّتها وقيمتها، ورغبتهم في التنافس في بلوغها وحيازة ما يمكن حيازته مِنها. وقد يلتزم هذا التطلُّع حدود الشرع والأدب والعقل، وقد لا يلتزم ذلك، فيوقع صاحبه في مهاوي الزيغ والفجور؛ لهذا قال ﷺ: (ما ذئبانِ جائعانِ أُرسلا في غنمٍ بأفسدَ لها مِن حرصِ المرءِ على المالِ والشرفِ لدِينه)[1].

وقد كانت دوافع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للتطلُّع للسلطة والحكم تدور بين المعاني النبيلة المرغوبة شرعًا والمطامع المباحة شرعًا، ولا تتجاوز ذلك للأمور المحرَّمة والدنيئة. فلم يكونوا ممَّن يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، معاذ الله؛ بل كانوا يرون أنَّ القيام بمسئوليَّات الدين والأمَّة العظمى التي تتضاعف فيها الحسنات وتدوم، لعموم نفعها ودوامه، ممَّا ينبغي التسابق إليه كالتسابق على صفوف الصلاة وحلق العلم والذكر. وقد ذكر رسول الله في مقدِّمة السبعة الذين يظلُّهم الله في ظلِّه (إمام عادل)[2]، وقد أثنى رسول الله على مَن يخلفه في أمَّته بسيرته وعدله ورأفته بأنَّهم (خلفاء راشدون مهديُّون)، فكانوا حريصين على نيل هذا الشرف العظيم إذ هو محصور بزمانهم، كونه لا يخرج عن (30) عامًا، مِن وفاة النبي ﷺ.

---

(1) سنن الترمذي، رقم: (2376).

(2) انظر: البخاري، رقم: (6806).

ومِن هؤلاء الصحابة الذين تطلَّعوا للسلطة والخلافة[1]:

1- عثمان بن عفان:

وهو عُثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شَمس بن عبد منَاف بن قُصي بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر. وأمُّه ابنة عمَّة النبي ﷺ، فأمُّها هي البيضاء بنت عبد المطَّلب. فهو مِن أوسط بيوتات قريش نسبًا ومكانة.

كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل إسلامه مِن أشراف مكَّة، وأثراها مالًا وغنىً، ومِن أرشدها عقلًا وأفضلها رأيًا، وكان جوادًا وسخيًّا ومحبوبًا مِن الناس. وكان له معرفة بعلوم العرب في الجاهلية، الأنساب والأمثال وأخبارهم وأحداثهم، وتاجر ورحل إلى الشام والحبشة.

يعدُّ عثمان مِن السابقين الأوَّلين للإسلام؛ ونظرًا لقربه مِن الرسول ﷺ، ومودَّته له، فقد زوَّجه ابنتيه على التوالي، رُقيَّة، ثمَّ بعد وفاتها أمَّ كلثوم، ولهذا لقِّب بـ"ذو النورين". وهو مِن العشرة المبشَّرين بالجنَّة.

وقد تعدَّدت خصال عثمان وفضائله حتَّى عُدَّ مِن كبار الصحابة ومقدَّميهم. فلمَّا مات عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جعله مِن الستَّة الذين رشَّحهم للخلافة، وهم: علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص،

---

(1) ترتيب الأسماء راعى منحًا موضوعيًّا أكثر مِنه عامل الفضل أو السنِّ أو الترتيب الزمني لولاياتهم.

والزبير بن العوَّام، وطلحة بن عبيدالله، وعثمان بن عفَّان ذاته.

ولمَّا اجتمع الستَّة لتقديم مرشَّح أوحد مِنهم، قال لهم عبد الرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة مِنكم. فقال الزبير: جعلت أمري إلى علي. وقال طلحة: جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: جعلت أمري إلى عبد الرحمن. فقال عبد الرحمن بن عوف لعثمان وعلي: أيُّكما تبرَّأ مِن هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرنَّ أفضلهم في نفسه. فسكت الشيخان، أي أنَّهما تطلَّعا للأمر ونيل الخلافة. فقال عبد الرحمن بن عوف: أفتجعلونه إليَّ والله على ألَّا آلو عن أفضلكما. قالا: نعم. فلمَّا ذهب عبد الرحمن بن عوف يستشير عموم المسلمين أيَّ الرجلين يختارون، رجَّح عموم أهل المدينة ومَن حولها ومَن كان ورد إليها جانب عُثمان، فأعلنه عبد الرحمن بن عوف خليفة على المسلمين، وتمَّت بيعته مِن عموم المسلمين.

إذن، كان عثمان بن عفَّان حريصًا أن يبقى ضمن خيارات الترشيح والاختيار للخلافة، ولم يتنازل بالأمر لأحد غيره. وهو في ذلك إنَّما يستجيب لغريزة طبيعية لرجل مثله، جمع مِن المزايا والخصائص والفضائل والمكانة ما لم تجتمع في غيره؛ مع تطلُّعه لنفع المسلمين واكتساب الأجر والثواب على قيامه بهذه الأمانة والمسئولية. وقد نال تطلُّعه ذلك بالشورى واختيار صحابة رسول الله له جميعًا، ولم يحيله إلى مطامع فاجرة آثمة ترفع السيف وتتغلَّب على المنافسين، وهو القادر على ذلك لو شاء.

غير أنَّ ما يلفت الانتباه في حقِّ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه لم يُعهد عنه تطلُّع مِن

قبل للسلطة، ولم يؤثر عنه تصدُّر لهذا الأمر وحرصٌ عليه. ولعلَّ منشأ الحرص هو أنَّه أصبح في موقف الندِّ مِن علي بن أبي طالب وهما في القرب والمصاهرة مِن الرسول بمكان مختلف، وأنَّ عثمان يكبر عليًّا بأكثر مِن عقدين مِن الزمن، وينتمي لأكبر بيوتات مكَّة عددًا وأرفعهم رئاسة. فالسياق الذي قاده القدر إليه كان دافعًا لأن يبقى في ميدان المنافسة والحرص، وإن لم يكن في نفسه شخصًا طامعًا للحكم والسلطة؛ خاصَّة وأنَّ عليًّا تمسَّك ببقائه في حلبة المنافسة.

2- معاوية بن أبي سفيان:

والده (أبو سفيان) هو صخر بن حرب بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف سيِّد مِن سادات قريش، وزعيم مِن زعمائها، كان تاجرًا واسع الثراء، ومقاتلًا شجاعًا، وقد قاد معسكر قريش في معركة أحد، وفي معركة الأحزاب. ووالدته هي هند بنت عتبة؛ أبوها عتبة بن ربيعة سيِّد مِن سادات قريش وبني كنانة، وكانت امرأة أريبة لبيبة. فنشأ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيت شرف وفخر. وقد تزوَّج رسول الله ﷺ أخته لأبيه، رملة بنت أبي سفيان "أم حبيبة"، فكان بذلك صهر رسول الله.

أسلم معاوية قبل فتح مكَّة، فقرَّبه رسول الله إليه، وأتمنه على كتابة الوحي لمعرفته بالكتابة. تولَّى قيادة جيش بعثه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، زمن خلافته، إمدادًا لأخيه الصحابي يزيد بن أبي سفيان. قاتل المرتدِّين في معركة اليمامة، وشارك في فتوحات الشام. ثمَّ ولَّاه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الأردن عام 21هـ؛ ثمَّ بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان مِن طاعون عمواس ولَّاه عمر ولاية دمشق

وما يتبعها مِن بلاد. وفي زمن عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تولَّى ولاية الشام كلِّها، وظلَّ على هذا الحال حتَّى مقتل عثمان.

وقد بدأت نزعة التطلُّع للسلطة لديه مع مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث امتنع معاوية عن مبايعة علي بن أبي طالب، واستقلَّ بولاية الشام عن الدخول في سلطته، بدعوى المطالبة بدم عثمان والقصاص مِن قتلته الذين دخلوا فيما دخل فيه الناس مِن مبايعة علي بن أبي طالب، فكانوا تحت إمرته وضمن معسكره. وفي حين أنَّ المطالبة بدم عثمان والقصاص مِن قتلته شأن يتعلَّق بمعاوية وأولياء الدم مِن أهل عثمان، إلَّا أنَّ معاوية استغلَّ موقعه على ولاية الشام فاتَّكأ عليها لهذا المطلب الخاص، وهو ما عرَّض الدولة للانقسام، في حين كان ينبغي على معاوية أن يميِّز بين ما هو شخصي وبين ما هو أمر عام. ولهذا أبى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا المنطق، واندفع لإخضاع مِن خرج على ولايته بدعوى القصاص لدم عثمان بالقوَّة، كون أنَّ القضايا الجنائية مردُّها القضاء، وأنَّ إقحام الدولة في هذه المطالب الشخصية والفئوية وتعريض سلطانها للانقسام مخالف للسياسة والحكم. ومِن هنا نشب الخلاف وتطوَّر حتَّى أفضى للاقتتال بين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن خرجوا عليه.

لقد أمسك معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بولاية الشام، رغم محاولة علي بن أبي طالب لعزله، وعزَّز نفوذه فيها، وظلَّ متصدِّرًا لمعارضة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتَّى قتل علي عام 40هـ. ولم يدخل في مبايعة الحسن بن علي، حتَّى تنازل له الحسن بن علي بالسلطة. فكانت خلافة معاوية لا عن بيعة ابتداء، وإنَّما عن تمكُّنه مِن أمر الشام وتنازل الحسن له بعد مبايعة الناس له؛ ولذلك لا تعدُّ ولاية معاوية ضمن

الخلافة المهدية الراشدة، رغم كونه صحابيًّا جليلًا، ورغم عدله ورحمته وحكمته وقيامه بمصالح المسلمين على وجه بالغ. ففترته باتِّفاق أهل العلم تدخل في الملك العضوض.

وتطلُّع معاوية هذا أثبته عبد الله بن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما ورد في صحيح البخاري، أنَّه قال: دَخَلت على حَفصة ونَسوَاتُها تَنطُفُ، قلت: قد كان مِن أَمرِ النَّاس ما تَرَين، فلم يُجعل لي مِن الأمر شيء. فقالت: الحَق فإِنَّهم ينتظرونك، وأَخشى أن يكون في احتباسك عنهم فُرقَة. فلَم تَدَعه حتَّى ذَهَبَ. فلمَّا تفرَّق النَّاس خطب معاوية فقال: "مَن كَانَ يُرِيدُ أن يتكلَّم في هذا الأمر فليُطلِع لنا قَرنَه، فلنحن أحقُّ به مِنه ومِن أَبِيهِ". قال حبيب بن مسلمة: فهلَّا أَجَبتَه؟ قال عبد الله: فحللت حُبوتي وهَمَمت أن أقول: "أَحَقُّ بهذا الأمرِ مِنك مَن قاتَلَك وأَبَاك على الإسلام، فخَشِيت أن أقول كلمة تُفَرِّقُ بين الجمع، وتَسفِك الدَّم، ويُحملُ عنِّي غير ذلك، فذكرتُ ما أَعَدَّ الله في الجنان"[1]. وقد أبانت رواية الطبراني، عن حَبِيبِ بن أبي ثابت، عن ابن عمر أنَّ هذا الحدث وذلك الكلام جرى في اليوم الذي اجتمع فيه معاوية بدومة الجندل[2].

وهذا الخبر يفيد تطلُّع معاوية للسلطة وعدم رغبته في وجود منازع له، وهو توجُّه رسَّخه بتوريث الحكم مِن بعده لابنه يزيد؛ فكان بذلك أوَّل مَلِكٍ في الإسلام، إذ استحالت الخلافة مِن شورى إلى ملكيَّة وحكم وراثي. وهو وإن

(1) البخاري، رقم: (3910).

(2) المعجم الكبير، للطبراني، رقم: (13834).

خالف بذلك سنَّة الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين مِن قبله، إلَّا أنَّ هذا لا يطعن في دينه وعدالته، لأنَّ ما قام به مزيج مِن الاجتهاد والتأوُّل والخطأ الذي أنكره عليه بعض الصحابة قبل غيرهم. **وقد قال ابن خلدون في هذا الأمر:** "والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد، دون مَن سواه، إنَّما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتِّفاق أهوائهم باتِّفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ مِن بني أُميَّة، إذ بنو أُميَّة يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملَّة أجمع، وأهل الغلب مِنهم، فآثره بذلك دون غيره ممَّن يُظنُّ أنَّه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتِّفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع؛ وإن كان لا يُظنُّ بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة مِن سوى ذلك. وحضور أكابر الصحابة لذلك، وسكوتهم عنه، دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممَّن يأخذهم في الحقِّ هوادة. وليس معاوية ممَّن تأخذه العزَّة في قبول الحقِّ، فإنَّهم كلُّهم أجلُّ مِن ذلك، وعدالتهم مانعة مِنه"[1].

وهذا الملمح الذي أشار إليه ابن خلدون هو ذاته الذي لأجله أثنى رسول الله ﷺ على الحسن بن علي؛ حيث قال: (إِنَّ ابنِي هَذَا سَيِّد ولعلَّ الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين مِن المُسلِمِينَ)[2]، **ومعلوم** أنَّ ذلك الصلح لم يتم إلَّا بتنازل الحسن بن علي لمعاوية بالأمر لتجتمع كلمة المسلمين، إذ كانت بلاد الإسلام وجماعتهم منقسمة إلى معسكرين: معسكر الشام ومعسكر العراق.

---

(1) مقدِّمة ابن خلدون: ص109؛ ولابن تيمية كلام قريب مِن هذا.

(2) البخاري، رقم: (2704).

3- علي بن أبي طالب:

يعدُّ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وربيبه، إذ عاش في كنفه؛ وقد زوَّجه فيما بعدُ أحبَّ بناته إليه فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وكان عليٌّ مقرَّب لرسول الله يفوِّض إليه بعض الأمور، ويصدِّره في بعض القضايا؛ فقد منحه الراية يوم خيبر، إذ قال: (لَأُعطِيَنَّ الرَّاية غدًا رَجُلًا يَفتَحُ الله على يدَيه)، فبَاتَ النَّاس يدُوكُون ليلتهم أيُّهم يُعطاها، فلمَّا أصبح النَّاس غَدَوا على رسول الله، كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: (أين عليُّ بن أبي طالب)، ثمَّ أعطاهُ الرَّاية[1]. وأوكله على شئون المدينة مرَّة وهو متَّجه للغزو، فكبر على عليٍّ تخلُّفه في المدينة عن رسول الله، فقال له: (أنت مِنِّي بمَنزِلَة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي)[2].

هذه القربى، وتلك المكانة، وهذا الحضور لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حياة الرسول، وبين الصحابة، يزيده -دون شكٍّ- ثقة بنفسه، واعتزازًا بذاته، ما يجعله يتطلَّع للقيام بالمهام والمسئوليَّات الكبرى. وقد ورد أنَّ العباس بن عبدالمُطَّلب أشار على علي، في المرض الذي توفِّي فيه رسول الله، أن يدخلوا على رسول الله فيسألونه: في مَن الأمر مِن بعده؟ فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعمِّه العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إنَّا واللهِ لئِن سألناها رسول الله فمَنَعَنَاها لا يُعطِينَاها النَّاس بعده، وإنِّي والله لا أسألها رسول اللهِ ﷺ"[3]. فأبان الأثر أنَّ عليًّا كان راغبًا ألَّا

(1) البخاري، رقم: (3701).

(2) مسلم، رقم: (2404).

(3) البخاري، رقم: (4447).

يتسبَّب السؤال في عكس المقصود، وأن يفوت عليه وعلى عمِّه الأمر بنصٍّ شرعي؛ وهذا يعني أنَّه كان متطلِّعًا للخلافة بعد رسول الله عن مشورة مِن الناس، حيث لا نصَّ في المسألة.

وقد وجد علي بن أبي طالب في نفسه تجاه أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عندما جرى أمر البيعة لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة دون حضوره ومشورة مِنه؛ في إشارة مِنه إلى رغبة مِنه لحضوره في الأمر وتشوُّفه إليه.

وقد ثبت أنَّ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وجدت في نفسها على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عندما منعها سؤالها عن ميراثها مِن رسول الله، وهجرته فلم تُكلِّمه ستَّة أشهر حتَّى تُوُفِّيت، فلما ماتت استنكر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجُوه النَّاس، إذ لم يبايع أبا بكر تلك المدَّة كاملة، فالتمس مُصالحة أبي بكر ومُبايعته، فأرسل إلى أبي بكر: أن ائتِنا، ولا يأتنا أحد معك. وذلك كراهية أن يحضر معه عمر بن الخطَّاب، فقال عمر: لا والله لا تدخل عليهم وحدك! فقال أبو بكر: وما عسَيتَهم أن يَفعَلُوا بي؟! والله لآتِيَنَّهم. فذهب فدخل عليهم، ويبدو أنَّ ذلك كان في محضر مِن قرابة علي نفسه. فتشَهَّد عليٌّ وقال: "إنَّا قد عرفنا فضلك وما أعطاك اللهُ، ولم ننفَس عليك خيرًا ساقه اللهُ إليك، ولكنَّك استَبدَدت علينا بالأمر، وكُنَّا نرى لقرابتنا مِن رسول الله ﷺ نَصِيبًا"[1]. **وفي هذا غاية الوضوح** على أنَّ عقد البيعة لأبي بكر أحدثت شرخًا في نفوس عليٍّ ومَن معه، وهو ما أظهرته معاتبتهم إيَّاه لأجله. ثمَّ إنَّ عليًّا قال لأبي بكر: "موعدك العشيَّة للبيعة". **علمًا بأنَّ البيعة**

(1) البخاري، رقم: (4240).

أساسًا قد تمَّت، وقد باتت خلافته شرعيَّة بمبايعة جمهور الصحابة له، فكان عليٌّ ومَن معه يريدون تأكيد حضورهم في هذا الأمر، أكثر مِنه إكساب شرعية قد تمَّت. لذلك قال أمام الناس في المسجد النبوي وهو يبايع أبا بكر أنَّه لم يحمله على الذي صَنَعَ نفاسة على أبي بكر، ولا إنكارًا للذي فضَّله الله به، "ولكِنَّا نرى لنا في هذا الأمر نَصِيبًا، فاستَبَدَّ علينا، فوجدنا في أنفسنا"[1].

ولما مضى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته، واستعان بعمر في كثير مِن أمور الخلافة، فكان محلَّ مشورته ورفقته، وشعر عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تفضيل الصحابة لهما على مَن سواهما، تقبَّل مكانته التي أفرزها المجتمع له، فالمكانة الاجتماعية لا تتوقَّف عند النصوص فحسب، بل هي انعكاس لقناعة أفراد المجتمع بأهميَّة الشخص ونفعه لهم. لهذا مضت بيعة عمر بن الخطاب بعد وفاة أبي بكر بشكل سلس، ودون اعتراض مِن علي، إذ أخذ عبرة مِن عَتَبِ الناس عليه في تخلُّفه عن مبايعة أبي بكر فيما مضى.

ولمَّا جعله عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضمن الستَّة الذين رشَّحهم للخلافة تطلَّع عليٌّ إلى أن يكون هو الخليفة التالي بعد عمر، وأنَّ الناس لن تعدل عن اختياره، لذلك لما كلَّمه عبد الرحمن بن عوف، هو وعثمان بن عفَّان، كي يتنازل أحدهما للآخر بالأمر لم يفعل، لا هو ولا عثمان. فلمَّا ذهب عبد الرحمن بن عوف يستشير عموم الصحابة، وأهل المدينة، والوافدين إليها مِن المسلمين، وجد أنَّ الناس لم تعدل بعثمان. ومع ذلك تخوَّف عبد الرحمن بن

(1) انظر أصل القصة في الصحيحين: البخاري، رقم: (4240)؛ ومسلم، رقم: (1759).

عوف مِن عاقبة هذه النتيجة، فقد حكى المسور بن مخرمة أنَّ عبد الرحمن بن عوف طلب مِنه، في الليلة الثالثة مِن وفاة عمر، والتي يفترض أن يُعلن الخليفة المختار في صبيحتها، أن يدعو له الزبير بن العوَّام وسعد بن أبي وقَّاص، فدعاهما له، فشاورهما، ثُمَّ أمره أن يدعو له عليَّ بن أبي طالب، فدعاه له، فناجاه حتَّى ابهارَّ اللَّيل، "ثمَّ قام عليٌّ مِن عنده وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى مِن عليٍّ شيئًا. ثمَّ قال: ادع لي عثمان، فدعوته، فناجاه حتَّى فرَّق بينهما المُؤذِّنُ بالصُّبح. فلمَّا صلَّى للنَّاسِ الصُّبح، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى مَن كان حاضرًا مِن المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد، وكانوا وافَوا تلك الحجَّة مع عمر، فلمَّا اجتمعوا تشهَّد عبد الرحمن، ثمَّ قال: أمَّا بعد.. يا عليُّ.. إنِّي قد نظرت في أمر النَّاسِ فلم أرَهم يَعدِلُون بعثمان، فلا تجعلنَّ على نفسك سبيلًا"[1].

وهكذا يظهر أنَّ تطلُّع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت له دوافع وأسباب عدَّة، وأنَّه كان تطلُّعًا قويًّا ومبكِّرًا، غير أنَّ عليًّا تمكَّن مِن كبح جماحه وضبط سلوكه بما لا يخرج عن الشرع، ولا يتجاوز الخُلُق والآداب. غير أنَّ هذا التطلُّع أثَّر على موقفه مِن بيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بادئ الأمر، لكنَّه عاد عن ذلك الموقف لمَّا رأى أنَّ الصحابة لا يقدِّمون على أبي بكر أحدًا، وكذلك الشأن في عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولمَّا بلغ الخلافة وأصبح أميرًا للمؤمنين، وقعت في عهده أحداث دامية

(1) كما جاء في نصِّ الحديث عند البخاري، رقم: (7207).

عدَّة، ونازعه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره مِن الصحابة، الطاعة حتَّى يقتصَّ مِن قتلة عثمان، ما جرَّه لقتالهم، والدخول في معارك داخليَّة أثَّرت على حالة الدولة الإسلامية والمجتمع المسلم الذي بدأ الانقسام يدبُّ فيه؛ ولم تدم خلافته لأكثر مِن خمس سنوات، حيث جرى اغتياله في شهر رمضان 40ه.

4- العبَّاس بن عبد المطَّلب:

كان العبَّاس بن عبد المطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمَّ رسول الله ممَّن أسلم عام الفتح، وقيل أسلم قبل ذلك. وقد فرح رسول الله ﷺ وأصحابه بإسلامه. وقد حضر مع رسول الله بيعة العقبة الثانية رغم عدم إسلامه لوثوق الرسول ﷺ به. كما كان ممَّن ثبت حول رسول الله، هو وأبو سفيان بن حرب، في معركة حُنين، حين فرَّ كثير مِن الصحابة عن ميدان القتال. وقد عرف أصحاب الرسول منزلته، لما له مِن فضل ورأي ومكانة عند رسول الله. وكان قبل إسلامه، في الجاهلية، رأسًا وسيِّدًا مِن سادات قريش، وله دور في عمارة المسجد الحرام وسقاية الحجيج.

ولشرف العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومنزلته في قريش، خاف أن يدخل رسول الله ﷺ مكَّة عنوة، فسعى لتأمين أهل مكَّة، وأتى بأبي سفيان إلى رسول الله ليُسلِم بين يديه، فلمَّا أسلم قال العبَّاس لرسول الله: يا رسول الله.. إنَّ أبا سفيان رجل يحبُّ هذا الفخر، فاجعل له شيئًا. قال: (نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ، ومَن أغلق عليه داره فهو آمنٌ، ومَن دخل المسجد فهو آمنٌ)[1].

(1) سنن أبي داود، رقم: (3022).

وقد سبق أوردنا كلام العبَّاس لعلي بأن يسألا رسول الله: لِمَن الأمر مِن بعده؛ وهو ما يعبِّر عن تطلُّع العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للخلافة في بني هاشم، وحرصه أن تبقى لهم حظوة إذا لم يكن الأمر فيهم. **وهذا تطلُّع** دافعه المكانة والمنزلة والتاريخ الحافل بالإنجاز والزعامة، إذ أنَّ مِن شأن الإقصاء أن يدفع لتهميش الناس عن مكانتهم، لذلك أراد العبَّاس أن يسأل رسول الله أن يُوصي مَن يخلُفَه بقرابته. وقد جرت السنن أنَّ الناس أقرب ما تكون ممَّن غلب، وممَّن كانت له سعة في المال وغنى في الموارد، فمَن فقد الأمرين مالت الناس عنه، وأعرضت عن قصده. وقد جرى العُرف في العرب -وغيرهم- تنافس الناس على الصدارة والزعامة، خصوصًا عند تعاظم الأمر. وقد قال أبو سفيان للعبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عندما رأى التفاف المهاجرين والأنصار برسول الله، وعظم جيشه، عند دخوله مكَّة فاتحًا: "يا أبا الفضل.. لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيمًا"[1].

وقد انعكس هذا التطلُّع لاحقًا في ذريَّة العباس، والذين لم يطل بهم المقام حتَّى ثاروا على بني أميَّة ونزعوا الملك مِنهم، ليؤسِّسوا دولة بني العبَّاس؛ فقد بدأت الدعوة إلى أحقِّية بني العبَّاس بالخلافة مع أبي عبد الله محمَّد بن علي بن عبد الله بن عبَّاس بن عبدالمُطَّلب. وما كان هذا ليتمَّ لولا وجود شعورٍ غُرِس في تلك الذرِّية مُبكِّرًا، فلم يمض على وفاة العبَّاس (100) عام حتَّى قامت دولة بني العبَّاس، انطلاقًا مِن أرض خُراسان، تحت الدعوة للإمام مِن "آل البيت".

---

(1) مجمع الزوائد، للهيثمي: ج6/ 166.

وهذا التطلُّع لدى العبَّاسيين عزَّزه التَّنافس بين الأمويين والعلويين، وبروز أطراف أخرى مناوئة كعبد الله بن الزبير، حتَّى صُبغ القرن الأوَّل بصراع دموي عنيف بدا للناظر إليه وكأنَّه صراع على السلطة، وإن اختلفت مقاصد المتنافسين. وقد دوَّنت كتب التاريخ خلافًا للصراع المسلَّح سجالًا خطابيًّا واسعًا وشديدًا بين هذه الأطراف، يبدي نوازعهم ومنطلقهم وأوجه انتقادهم للطرف الآخر، إذ ماجت الآراء وهاجت النفوس.

5- سعد بن عبادة:

كان سعد بن عبادة قبل إسلامه سيِّدًا مطاعًا في قومه، يتحلَّى بصفات القيادة والسؤدد. وكان مِن أكرم أهل يثرب وأجودهم نفسًا؛ وقد مضى على هذا الجود والكرم الذي عُرِف به حتَّى وفاته. وقد شهد بيعة العقبة الثَّانية، وأُحدًا، والخندق، وغيرها مِن الغزوات والمعارك. وحفظت لنا السيرة جهاده وتضحياته، وحبَّه للرَّسول ﷺ، ونصرته له، وفضائله العظيمة في الإسلام.

ظلَّ سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متمسِّكًا بالزَّعامة ومسئوليَّاتها ومقتضياتها. وقد سجَّلت دواوين السُّنَّة والسَّيرة أنَّه لـمَّا قام رسول الله يخطب في النَّاس، بعد أن استطال المنافقون في عرض عائشة -أمِّ المؤمنين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقال: (مَن يَعذِرُني مِن رَجُلٍ بَلَغَنِي أذَاهُ في أهلِي؟! فوَاللهِ ما عَلِمتُ علَى أهلِي إلَّا خَيرًا، وقد ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمتُ عليه إلَّا خيرًا، وما كان يَدخُلُ على أهلِي إلَّا معي). فقام رجل مِن الأوس، فقال: يا رسول الله.. أنا واللهِ أعذرك مِنه، إن كان مِن الأوسِ ضربنا عُنُقه، وإن كان مِن إخواننا مِن الخزرج أمَرتَنا ففَعَلنا فيه أمرك. فقام سعد

بن عبادة -وهو سيِّدُ الخزرج، فقال: كَذَبت، لعَمرُ الله لا تَقتُلُه، ولا تَقدِرُ على ذلك. فقام أُسَيدُ بن حُضير فقال: كَذَبتَ لَعَمرُ الله، واللهِ لنَقتُلَنَّه، فإنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عن المُنَافقين. وثَارَ الحَيَّانِ -الأوس والخزرج، حتَّى هَمُّوا بقتال بعضهم بعضًا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فنزَل فخفَّضهم حتَّى سكتُوا، وسَكَتَ هو عن الأمر. وقد قالت عائشة عن هذا الموقف لسعد بن عبادة: "وكان قَبلَ ذلك رَجُلًا صالحًا، ولكن احتَمَلَته الحَمِيَّة"[1]. والحميَّة التي أخذته هنا باعتباره قائدًا معنيًّا بالدفاع عن قبيلته وقومه، إذ لا يرغب في أن يتولَّى مَن هو خارج قبيلته دور المسئولية على رعيَّته، لا أنَّه سيعصي أمر رسول الله فيما لو أمر، خصوصًا في ظلِّ التنافس الأوسي الخزرجي وتاريخ الصراع الذي كان بينهما قبل الإسلام.

وحدث في فتح مكَّة أن أعطى رسول الله ﷺ سعد بن عبادة الرَّاية، فمرَّ بها على أبي سفيان، وكان قد أسلم، فقال سعد: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلُّ الحرمة، اليوم أذلَّ الله قريشًا"، فشكاه أبو سفيان إلى رسول الله، وقال عثمان بن عفَّان وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "يا رسول الله ما نأمن سعدًا أن تكون مِنه صولة في قريش". فأخذ رسول الله الرَّاية مِن سعد، وأعطاه لابنه قيس[2].

كما سجَّلت له تلك الدَّواوين حادثة أخرى، وهي أنَّه لـمَّا أصاب المسلمون الغنائم يوم حُنينٍ، قسَّمها رسول الله ﷺ للمُتألِّفين مِن قريشٍ وسائرِ العرب،

(1) انظر أصل القصة في الصحيحين: البخاري، رقم: (4750)؛ ومسلم، رقم: (2770).

(2) البداية والنهاية، لابن كثير: ج6/ 545.

ولم يضع في الأنصار مِنها شيء، فوجَدَ الحيُّ مِن الخزرج في أنفسهم، حتَّى قال قائلهم: لَقيَ -واللهِ- رسولُ الله قومه. وعوضًا أن يعالج سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الأمر، مشى إلى رسولِ اللهِ، وقال له: يا رسول اللهِ.. إنَّ هذا الحيَّ مِن الأنصارِ وجدُوا عليك في أنفسِهم؟ فقال رسول الله: (فيمَ؟). قال: فيما كان مِن قَسمِكَ هذه الغنائم في قومِك وفي سائر العرب، ولَم يكُن فيهم مِن ذلك شيء. فقال رسول اللهِ: (فأين أنت مِن ذلك يا سعد؟). قال: ما أنا إلَّا امرؤ مِن قَومي[1]. فاختار سعد الاصطفاف مع قومه تعبيرًا عن الزَّعامة، رغم أنَّ في سؤال الرَّسول عتاب ضمني له؛ إذ أنَّ مثل سعد لا يخفى عليه أدوار السِّياسة، فكان ينبغي عليه أن يُفسِّر ويعذر رسول الله أمام قومه، لا أن يقرَّهم على ما قالوه.

وعندما توفِّي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اجتمع الحيُّ مِن الأنصار، في سقيفة بني ساعدة، وكان كبار الصَّحابة منشغلين بتغسيله والتَّهيئة لدفنه. وكان سعد بن عبادة في مقدِّمة مَن حضروا ذلك الاجتماع، رغم مرضه. وتطلَّع الأنصار لأن يكون الأمر فيهم، ويذكر بعض المؤرِّخين أنَّ سعد بن عبادة قال لهم، بعد أن حمِدَ الله وأثنى عليه: "يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدِّين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة مِن العرب؛ إنَّ محمَّدًا لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرَّحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به مِن قومه إلَّا رجال قليل، ما كانوا يقدرون على منعه، ولا على إعزاز دينه، ولا على دفع ضيم، حتَّى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ورزقكم الإيمان به

(1) زاد المعاد، لابن القيم: ج3/ 416؛ والقصة في الصحيحين، دون خبر سعد.

وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز لـه ولدينـه، والجهـاد لأعدائه، فكنتم أشدَّ النَّاس على عدوِّه، حتَّى استقامت العرب لأمر الله، وتوفَّاه الله وهو عنكم راضٍ، وبكم قرير عين، استبدُّوا بالأمر دون النَّاس، فإنَّه لكم دون النَّاس"[1].

وعندما بايع عمر أبا بكر بالخلافة، وتتابع المهاجرون والأنصار على مبايعته في السقيفة نَزَوا على سعد بن عبادة، فقال قائل مِنهم: قَتَلتُم سعد بن عبادة! فقال عمر: "قَتَلَ اللهُ سَعدَ بنَ عُبَادَةَ"[2]. وهذا الكلام على المجاز، وليس على الحقيقة. فإنَّ القائل ربَّما قصد تجاوز سعد في تطلُّعه للرِّئاسة، وهو ما فهمه عُمر وأشار إلى عدم تسويغه. وفي رواية عن عمر: "فقلت وأنا مغضب: قتل الله سعدًا، فإنَّه صاحب شرٍّ وفتنة"، أي بجمعه للأنصار دون مشورة مِن المهاجرين. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقوله: قتل الله سَعدًا، إِنَّما قال هذا لأَن سَعدًا أراد الولَايَة، ومَا كان يصلُح أَن يتَقَدَّم أَبَا بكر"[3]. **وقال الخطَّابي**: "معنى قوله: قتل الله سَعدًا، أي احسبوه في عداد مَن مات وهلَك، أي لا تَعتَدُّوا بحضوره، لأنَّه أراد أن يكون أميرًا، فخالف"[4].

ولـمَّا بويع لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالخلافة، رفض سعد مبايعته، وقال: "لا والله، لا أبايع حتَّى أرميك بما في كنانتي، وأقاتلك بمن تبعني مِن قومي

(1) الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ج2/ 328.

(2) البخاري، رقم: (6830).

(3) كشف المشكل، لأبي الفرج الجوزي: ج8/ 150.

(4) غريب الحديث، للهروي: ج2/ 128.

وعشيرتي". وظلَّ كذلك حتَّى مات أبو بكر. ثمَّ بويع بالخلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرفض سعد مبايعته أيضًا، وقال لعمر: "قد أفضى إليك هذا الأمر، وكان -والله- صاحبك أحبُّ إلينا مِنك، وقد أصبحتُ كارهًا لجوارك". فقال له عمر: "إنَّه مَن كره جوار جاره تحوَّل عنه"[1]. فلم يلبث إلَّا قليلًا حتَّى انتقل سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الشَّام، فمات بِحوران.

يقول ابن تيمية: "ثمَّ الأنصار جميعهم بايعوا أبا بكر إلَّا سعد بن عبادة لكونه هو الذي كان يطلب الولاية"[2]؛ وكرَّر ابن تيمية هذا المعنى في عدَّة مواطن، إذ يقول: "وتخلَّف سعد قد عُرِف سببه؛ فإنَّه كان يطلب أن يصير أميرًا"[3]؛ **وقال:** "فقد يتخلَّف الرَّجل لهوى لا يُعلم، كتخلُّف سعدٍ، فإنَّه كان قد استشرف إلى أن يكون هو أميرًا مِن جهة الأنصار، فلم يحصل له ذلك، فبقي في نفسه بقيَّة هوى"[4]. **وقال أيضًا:** "وأمَّا أبو بكر فتخلَّف عن بيعته سعد، لأنَّهم كانوا قد عيَّنوه للإمارة، فبقِي في نفسه ما يبقَى في نفوس البشر"[5]. هذا مع ثنائه

---

(1) وهذه الأقوال وإن وردت في بعض الكتب إلَّا أنَّها غير ثابتة. انظر: موقف سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من البيعة لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم السقيفة، عماد حمدي محمد مبروك، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية، جامعة بني سويف، مصر، المجلد (4)، العدد (7)، أكتوبر 2019م: ص20- 31.

(2) منهاج السنة النبوية: ج1/ 518.

(3) منهاج السنة النبوية: ج8/ 331.

(4) منهاج السنة النبوية: 8/ 335.

(5) منهاج السنة النبوية: ج1/ 536- 537.

عليه، ومدحه إيَّاه، واعتذاره لهذا الموقف مِنه، وتغليب حسناته، والدِّفاع عن فضائله ومقامه الكريم عند الرَّسول ﷺ، وعند أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

لقد كان دافع سعد بن عبادة في تطلُّعه للسلطة هو زعامته في قومه، ومكانته لدى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ وطلبًا لشرف الخلافة وما فيها مِن أجر وثواب. كما أنَّ عادة العرب، وعموم الشعوب، تنافس قبائلها وعشائرها على التصدُّر، إذ يسجَّل هذا في مفاخرها ومآثرها. وحيث أنَّ الأوس والخزرج امتداد للقبائل القحطانية اليمانية فإنَّ وصولها للخلافة فتح لتلك القبائل التي لطالما كان لها الملك في جنوب الجزيرة العربية، وامتدادًا إلى شمالها.

6- عبد الله بن الزبير:

وهو ابن الصحابي الزبير بن العوَّام بن خويلد بن أسد بن عبدالعُزَّى بن قُصي. والزبير ابن عمَّة النبي ﷺ، صفية بنت عبدالمطَّلب. أمَّا أمُّه فهي أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق، الخليفة الأوَّل في الإسلام. فهو في محلٍّ مِن الصلة والقربى بالنبيِّ وبأبي بكر، وهذا منحه مكانة في نفوس المسلمين. وفضلًا عن ذلك فإنَّه تمتَّع بصفات قيادية جعلته حاضرًا في الفتوحات والأحداث. فقد شهد مَقتَل الخليفة عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورأى الفتنة التي وقعت بين المسلمين زمن علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وشارك مع والده الزبير بن العوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في موقفه مع طلحة وعائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، فحضر موقعة الجمل. ولمَّا

استتَبَّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان عام 41ه اتَّجه عبد الله بن الزبير إلى ميادين الجهاد، فشارك في فتوحات أفريقيا، كما شارك في حصار القسطنطينية في جيش يزيد بن معاوية.

لقد عاصر عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زمن الخلافة الراشدة، وزمن الفتنة، وزمن الملك في عهد معاوية، ورأى التحوُّلات وخاض عدَّة تجارب مختلفة، وبرزت قدراته ومواهبه؛ فلمَّا أدرك ابن الزبير بيعة يزيد بن معاوية ثارت ثائرته، هو وعدد مِن الصحابة، وخاصَّة صغار الصحابة عمرًا، كالحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر، فرأى أن يكون ممَّن يتصدَّى للأمر ورفض بيعة يزيد.

وبعد مقتل الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستشهاده على النحو الذي جرى، ووقوع حادثة الحرَّة بالمدينة سنة 63هـ، ازدادت قناعة عبد الله بن الزبير بضرورة التصدِّي للأمر، فبدأ يُضمِر الإعداد للخروج على بني أميَّة. فلمَّا توفِّي يزيد سنة 64ه، وتنازل معاوية (الثاني) ابنه عن الحكم بعد أشهر من تقلُّده، ووقع الخلاف بين بني أميَّة على الحكم، أعلن الزبير نفسه خليفة على المسلمين بمكَّة، خاصَّة أنَّ كثيرًا مِن أهل مكَّة والمدينة قد مالوا له.

عقب أخذه للبيعة، واجه عبد الله بن الزبير العديد مِن التحدِّيات، ولم تتمتَّع سلطته بالاستقرار، فقد ناوأته قوى مختلفة، بما في ذلك الأمويُّون الذين اختاروا مروان بن الحكم لزعامتهم، وتمكَّن مروان مِن بسط سلطانه على الشام ومصر، وسعى في ضمِّ العراق والحجاز، لكنَّه مات قبل أن يتمكَّن مِن ذلك؛ واستمرَّ حكم عبد الله بن الزبير حتَّى سنة 73هـ.

كانت دوافع عبد الله بن الزبير للسلطة رغبته في إعادة الشورى للمسلمين، ورؤيته لأبيه ضمن الستَّة الذين رشَّحهم عمر بن الخطاب للخلافة بعده، وخروج بعض الصحابة على بني أميَّة، وقناعته بذاته وإيمانه بقدراته وهو الحاضر والمشارك والمقرَّب لأصحاب رسول الله، فضلًا عن أعمال يزيد التي أساءت لبني أميَّة. ولمـَّا دعا لنفسه مال إليه الناس، ولهذا أعلنت معظم الولايات بيعته عندما خرج معاوية (الثاني) عن الخلافة. غير أنَّ أخطاءه وإخفاقاته جعلته يخسر الخلافة بعد أن انعقدت له لقرابة تسع سنوات، حيث حوصر في مكَّة وقتل بها، بعد أن ترجَّحت القوَّة والغلبة للأمويين.

لحق عبد الله بن الزبير بالحسين بن علي، ومات شهيدًا مظلومًا، غير أنَّه لم يلق مِن أنصاره بعد موته ما لقيه الحسين بن علي مِن شيعة والده، إذ استحالت قصَّة خروجه ومقتله مصدر إلهام لهم، نسجوا حولها الأخيلة والدعاوى حتَّى استحالت عقيدة فيما بعد؛ أمَّا ابن الزبير فقد طُويَ ذكره تمامًا، وأصبح جزءًا مِن الماضي.

أسباب ودوافع التطلع:

ذكرنا فيما سبق نماذج للتطلُّعات السياسية لنفر مِن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، مِن مختلف البيوت والأعمار، وما نجح مِنها وما أخفق. وهي نماذج معدودة تعكس الطبيعة البشرية في رعيل الجيل الأوَّل، والذي أشرنا إلى ثبوت الأحاديث والروايات في تطلُّعاتهم للإمارة زمن الرسول ﷺ، والذي عمل على تهذيبها وترشيدها والتحذير مِن مغبَّة الحرص عليها والسعي لها دون وعي.

ونتيجة هذه التطلُّعات، والتي صبغت الفترة المتأخِّرة مِن عهد الخلافة الراشدة بالدماء، كان التنافس عاملًا حاضرًا بين عدد مِن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حتَّى بلغ حدَّ التنازع والصراع كما أشرنا. وهذه التطلُّعات لم تأت مِن فراغ، وهي عدى عن كونها أمرًا غرائزيًّا موجودًا لدى البشر، ويتفاوت حضوره وظهوره وقوَّته بتفاوت الأشخاص، إلَّا أنَّ هناك عوامل ذاتية وموضوعية وظرفية قادت إلى بروزها؛ ومِن ذلك وجود النسب الرفيع، والمفاخر المتوارثة، والزعامة المتوفِّرة، والقرب مِن رسول الله، والرغبة في خلافته لنيل شرف المكانة والقيام بواجبات الأمانة، وامتلاك القدرات المؤهِّلة والكفاءة المناسبة، وتطلُّع الناس في بعض الظروف لقائد ملهم، أو حاكم حكيم، أو زعيم جامع.

وهذا التطلُّع الذي وُجِد لدى الصحابة كانت تحكمه قيم الدين والأخلاق والورع والعقل الراشد، وإن دخلت متغيِّرات اجتماعية واقتصادية وسياسية في مسار الأحداث، ففرضت نوعًا مِن التأوُّلات والاجتهادات، وربَّما الأخطاء البشرية التي وقعوا فيها، وذلك لا يوجب إسقاط مكانتهم أو إهدار عدالتهم، لأنَّ الله تعالى أثنى عليهم، وأخبر عن رضاه عنهم، وعن مغفرته لهم، وعن بلوغهم الجنَّة، على ما كان مِنهم.

ومعرفة الأسباب والدوافع في هذا المسار مِن القضايا ينبغي أن يُنظر لها في ضوء مختلف العوامل، الذاتية والموضوعية والظرفية، دون إغفال لأيٍّ مِنها، أو تضخيم لبعضها على حساب البعض الآخر. حيث ينبغي أن يكون التعامل معتدلًا ومتَّزنًا ومستندًا إلى براهين وأدلة، ورؤية كلِّية للأحداث وسياقاتها. وهنا

ينبغي البعد تمامًا عن التشكيك والطعن في نوايا الصحابة وإراداتهم، بل ينبغي تزكية تلك النوايا وحملها على أحسن المحامل، أو وضعها في أدنى حالات البشر الأسوياء؛ كما ينبغي تزكية عقولهم وأخلاقهم وسلوكهم. فهناك قراءة متعسِّفة لتلك المرحلة، تحاول إسقاط مكانة الصحابة والطعن في أشخاصهم، وإزاحتهم عن محلِّ الاقتداء والتَّأسي بهم، بل وأخذ الدين عنهم.

كما ينبغي أن يتنبَّه إلى أنَّ رسول الله ﷺ قد أشار إلى بعضهم بتقلُّده الإمارة، في سياق مِن الإخبار والبشرى والتثبيت؛ فقد ثبت أنَّ رسول الله قال لعثمان بن عفَّان: (يا عُثمان.. إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عسى أن يُلبِسَك قميصًا، فإن أرادَك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتَّى تلقاني)[1]؛ **وذكر علي بن أبي طالب** أنَّ رسول الله عهد إليه أنَّه لن يموت حتَّى يؤَمَّر، "ثمَّ تخضَّب هذه [يعني لحيته] مِن دم هذه [يعني هامته]"[2]. ومِن ثمَّ فإنَّ تطلُّعهم للخلافة تدعمه نصوص مِن الوحي، بلغتهم مِن صاحب الرسالة مباشرة.

لقد مثَّلت خلافة الرسول ﷺ شرفًا وفخرًا لمَن ناله، إذ يشير بلوغ المرء لها إلى مدى تمثُّل أخلاق وقيم ومبادئ الرسول فيه، وإلى مدى تزكية مجتمع الصحابة له حدًّا يجعلهم ينصبونه عليهم في مكانة الرسول -عليه الصلاة والسلام- القيادية. كما أنَّ مهمَّة الخلافة مهمة نبيلة الغايات، إذ يقوم فيها الإنسان بنفع الخلق وإيصال الخير لهم، ونصرة الحق، وإقامة العدل، ورعاية

(1) مسند أحمد، رقم: (23427).

(2) مسند أحمد، رقم: (1040).

المصالح، ومِن ثمَّ ففيها مِن الأجر ما تحرص عليه النفوس الكبيرة التي تشرئبُّ إلى كبار الأمور ومعاليها، **وقد قيل:**

عَلَى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتِ العَزَائِمُ وتَأتِي عَلَى قَدرِ الكِرَامِ المكَارِمُ

وتَعظُمُ في عَينِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وتَصغُرُ في عَينِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

لهذا فإنَّ تنافس الصحابة للوصول إلى الخلافة هو مِن التنافس المحمود بهذه النيَّة وهذا المقصد، بل هو دليل على رجاحة عقولهم وسموِّ مقاصدهم. وهم لا بدَّ لهم مِن رأس، ولا بدَّ أن يكون مِنهم، فقيامهم بالأمر متعيَّن عليهم.

وهذا لا يلغي وجود المخاوف مِن التعامل عند التطبيق، فقد خشي الأنصار مِن أن يُنقص في حقوقهم، ودعاهم الرسول للصبر "على أثرة عليهم"، ولذلك عبَّروا عن خوفهم هذا للمهاجرين، في يوم السقيفة، بقولهم: "منَّا أمير ومِنكم أمير"، سعيًا في تقاسم السلطة والثروة دون إجحاف. وقد حرصوا ألَّا يتخلَّى رسول الله عنهم بعد فتح مكَّة، ويعود إلى قومه، فطمأنهم وقال لهم قولته المؤثِّرة: (أترضَون أن يذهب النَّاس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنَّبيِّ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لَكنت امرأ مِن الأنصار، ولو سلك النَّاس وادِيًا وشِعبًا لسَلَكت وادي الأنصار وشِعبها، الأنصار شعار والنَّاس دثار، إنَّكم ستلقون بَعدِي أثرة فاصبِرُوا حتَّى تلقوني على الحوض)[1].

ويمكن القول إنَّ سلوك الصحابة في ضوء تطلُّعاتهم كان مختلفًا، ففي حين

(1) البخاري، رقم: (4330)؛ ومسلم، رقم: (1061).

صرَّح به البعض للرسول حتَّى سأل الإمارة، أضمره البعض، وفي حين سعى البعض لتحقيقه أعرض البعض عن طلبه، وفي حين نافس فيه البعض قَبِلَ البعض بالرجوع عن المنافسة، وفي حين حمل فيه البعض سيفه بلغ البعض مراده وأخفق البعض؛ وحتَّى أولئك الذين بلغوا مرادهم بلو بما عكَّر عليهم طموحهم ومرادهم.

الخاتمة:

إنَّ جيل الصحابة الأوَّل هو جيل المثال الأعلى بكلِّ ما حمله مِن خبرة وتجربة وتاريخ وسيرة، ورغم كلِّ ما وقع، ذلك أنَّ الله تعالى أراد أن يقدِّم لنا النموذج في صورته البشرية لا الملائكية، وصورته الفطرية الإنسانية المؤمنة التي تجتهد الحقَّ والعدل والصلاح فتصيب وتخطئ، وتتنازعها الإرادات فتتأوَّل دون غيٍّ ولا بغي، وتقع في الذنب فتعود إلى التوبة والجادَّة منيبة مستغفرة، فهذا كان دأبهم في حياتهم الخاصَّة والعامَّة، التعبُّدية والسلوكية، والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وهم في جميع أحوالهم مصدر إلهام وعبرة.

وما يميِّز الصحابة عن غيرهم هو هذا النموذج العالي في بشريَّته، والسامي في إنسانيَّته، والمثالي في واقعيَّته، في حين أنَّ غيرهم تدفعه التطلُّعات السياسية للقتل وسفك الدماء وانتهاك الأعراض واستحلال الأموال، وللإجرام في حقِّ مَن يعارضه أو يخاصمه أو يخالفه، دون اعتبار لدين أو خلق أو عقل أو عرف.

ناصبًا مِن ذاته أو سلالته أو منطقته أو مظلوميَّته مقصلة للعدل والرحمة والإنسانية ومبرِّرًا لعدوانه وبغيه وظلمه، في حين أنَّ لا كفاءة له للحكم، ولا منفعة له في الولاية، ولا خير فيه للناس لا في دنيا ولا في آخرة، وغاية ما هنالك التسلُّط والتجبُّر والاستكبار؟

الصحابة الكرام والدرس السياسي

تمهيد:

تلقِّي العلم يتمُّ في عدَّة دوائر، في الدرس التعليمي، وفي المختبر التجريبي، وفي ميدان البحث والاطِّلاع، وفي الواقع العملي. وهذه الدوائر تتكامل مع بعضها في صناعة العالم الخبير، الذي يلمُّ بالعلم معرفة وتطبيقًا. وهكذا تلقى الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ العلوم الدينية والدنيوية، بحيث جمعوا بين المدارك المعرفية والقدرات المهارية والخبرة العملية، فكانوا بحقٍّ مفتتح التحوُّل الحضاري في المجتمع العربي والإنساني، وروَّاده الذين يُضربُ بهم المثل في الهداية والرشد. والسياسة مِن العلوم التي لا تتوقَّف على الجانب النظري والتلقِّي، بل لا بدَّ فيها مِن الخبرة العملية والتجربة المستمرَّة.

وإذا كان إعداد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قصد فيما قصد تهيئتهم ليسوسوا الأمَّة بعده، على منوال ما كان يجري في بني إسرائيل[1]، فإنَّه دون شكٍّ أعدَّهم لهذه المهمَّة العظيمة، وزوَّدهم بالمعارف والمهارات الضرورية التي تتطلَّبها سياسة الناس؛ وعليه فإنَّ الدرس السياسي كان ضمن مناهج التعليم المتَّبعة في ذلك الإعداد الشامل بالضرورة. وهذا يعني أهمِّيَّة الحديث عن

(1) في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يحدِّث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (كانَت بَنُو إسرائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأنبِياءُ، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وإنَّه لا نَبِيَّ بَعدِي، وسَيَكونُ خُلَفاءُ فَيَكثُرُونَ..)، الحديث. البخاري، رقم: (3455)؛ ومسلم، رقم: (1842).

الدرس السياسي في حياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في عهد النبيِّ ﷺ؛ خصوصًا وأنَّ هناك أحاديث حول الدرس الإيماني والعقدي والأخلاقي والفقهي في حياة الصحابة، فكان ولا بدَّ مِن استكمال هذه السلسلة بهذا الحديث المهمل.

وفي هذه الأسطر نتناول بعض المباحث المهمَّة التي يمكن عرضها في هذا الشأن، بغية استيضاح جوانب هذا الدرس التي يمكن استحضارها والعناية بها، بحثًا وتدارسًا، وتأصيلًا وتقعيدًا، وشرحًا وتحليلًا، وتقييمًا ونقدًا، بما يحدم وعي الأمَّة في زمن يراد فيه تسيُّد الجهل وغلبة الاستبداد لصالح حكَّام لا خلاق لهم، ولا نفع فيهم.

السياسة في مجتمع الجزيرة قبل الإسلام:

ابتداءً ينبغي التأكيد على أنَّ المجتمع العربي في جزيرة العرب عاش صورًا مِن التجمُّعات البشرية التي حكمتها صور وأشكال مِختلفة مِن السلطة، إذ تعدَّدت البيئات والمناشط التي تقوم بها تلك المجتمعات بحسب تلك البيئات وما يتوفَّر لها مِن إمكانات وخصائص جغرافية ومناخية. فقد ضمَّت جزيرة العرب بيئات متعدِّدة، جبليَّة وهضبيَّة وسهليَّة وصحراويَّة وساحليَّة، وكان لكلِّ بيئة مِنها خصائصها المناخية ومواهبها النباتيَّة والحيوانيَّة، وتحدِّياتها ومخاطرها. وشهدت معظم هذه البيئات تجمُّعات سكَّانية منذ القدم، بعضها اشتغل بالزراعة، وبعضها بالرعي، وبعضها بالصيد، وبعضها بالتجارة، وكانت هناك مدن جمعت الحرفيِّين والصنَّاع الذين يعيدون صياغة المواد الخام والأوَّلية في منتجات نافعة ومفيدة.

وقد عرفت أجزاء عدَّة مِن جزيرة العرب قيام دول فيها، كاليمن وحضرموت وعُمان والبحرين والعراق والشام، حيث كان النشاط الزراعي والحيواني في ظلِّ وفرة المياه يحافظان على استمرار الحياة ونموِّ المناشط السكَّانية فيها؛ وهذا خلاف المناطق الصحراوية التي كانت تسودها البداوة المحكومة بسلطة القبيلة. ومِن ثمَّ فقد عرف العرب نظام الملك، وإدارة الحكم، مِن وقت مبكِّر. وقد أورد القرآن الكريم قصص عاد وثمود وسبأ باعتبارها كانت دولًا ذات حضور وتأثير وهيمنة. كما عاشوا فترات مِن الصراع والاحتراب، وفترات مِن السلم والأمن، وهذا قادهم للتحالف تارة والتعاون تارة. كما أنَّهم تعاملوا مع دول الجوار، وربَّما خضعوا لها كما هو حال الغساسنة والمناذرة شمال الجزيرة العربية؛ وربَّما غزتهم دول أجنبيَّة عنهم، كما هو حال اليمن مع الحبشة والفرس.

وبالتالي، فإنَّ مخزون العرب مِن المعارف والخبرة السياسية حال نزول الوحي، وبعثة الرسول ﷺ، كان كبيرًا ووافرًا، ومتوارثًا جيلًا بعد جيل، في الأمثال والحكم والأشعار والحكايات المحفوظة. فلم يكونوا صفرًا مِن المعرفة والخبرة، وإن كان مستوى المعرفة والخبرة يتفاوت مِن بيئة لأخرى، ومِن شخص لآخر. ومَن لديه معرفة بأشعار العرب، وأمثالهم، وحكمهم، وقصصهم، يُدرِك تمام الإدراك بأنَّ العرب حفظوا معارفهم وخبراتهم في ميراثهم الثقافي، مختزلينها في عبارات مختصرة وجمل جامعة، وإن لم تدوَّن في قرطاس مسطور وكتاب خاصٍّ.

فمِن الحكم التي نصَّ عليها القرآن الكريم وأيَّدها، قول ملكة سبأ لمستشاريها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[1]. وهذه الحكمة نتاج تأمُّل وتفكُّر في أخبار وحوادث الدول، وتعزُّزها الوقائع حينًا بعد حين. ومِن الأمثال التي مضت في العرب زمن الجاهلية قبل الإسلام في السياسة قولهم: جوِّع كلبك يتبعك، وهو قول لأحد ملوك حمير في اليمن، كان يعامل شعبه بالقسوة والشدَّة[2]. ومِن أشعارهم في السياسة، ما جاء على لسان عمرو بن كلثوم، في معلَّقته الشهيرة، والتي مطلعها:

أَلا هُبّي بِصَحنِكِ فَاصبَحينا ... وَلَا تُبقي خُمورَ الأَندَرينَ

إذ يقول فيها:

أَبا هِندٍ فَلا تَعَجَل عَلَينا ... وَأَنظِرنا نُخَبِّركَ اليَقينَ

بِأَنّا نُورِدُ الرّايَاتِ بيضًا ... وَنُصدِرُهُنَّ حُمرًا قَد رَوينَ

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ ... عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينَ

ويقول فيها:

إِذا ما المَلكُ سامَ النّاسَ خَسفًا ... أَبَينا أَن نُقِرَّ الذُلَّ فينا

---

(1) النمل: 34.

(2) انظر: الملك الجاهلي في كتب الأمثال، عبدالستار الحاج حامد، مجلة إسطنبول للدراسات العربية، المجلَّد (3)، العدد (2)، فبراير 2020م: ص193؛ متوفرة على الرابط التالي:
https://dergipark.org.tr/en/download/article-file/1292816

وكان أن دخل عنترة بن شدَّاد على كسرى الفُرسِ في زمانه، **فأنشد فيه أبياتًا مِن الشعر:**

يـا أَيُّهـا الـمَلِكُ الَّـذي راحاتُـهُ قامَـت مَقـامَ الغَيـثِ في أَزمانِـهِ

وقال يمدح عدله وإنصافه:

المـُظهِرُ الإنـصافَ في أَيَّامِـهِ بِخِـصالِهِ وَالعَـدلَ في بُلدانِـهِ

وقد استنجد امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي بقيصر ملك الروم لاسترداد مُلكِ أبيه، وكان أبوه ملكًا على بني أسد وغطفان فثار عليه بنو أسد وقتلوه، **وهو القائل:**

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّربَ دُونَهُ وأَيقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيصَرَ

فقُلتُ لَه: لا تَبكِ عَينُكَ إنَّما نُحَاوِلُ مُلكًا أو نَمُوتَ فَنُعذَرَ

كما استنجد سيف بن ذي يزن الحميري بقيصر ضدَّ الأحباش الذين غزو اليمن، فلم يجبه لما أراد، فتوجَّه إلى كسرى، فأمدَّه كسرى بالرجال والمال، وتمكَّن بهم مِن هزيمة الأحباش واسترداد ملكه، **وفي ذلك يقول:**

يَظُنُّ النَّاسُ بالملكَينِ أَنَّهُمَا قَد التَأَمَا

ومَن يَسمَع بِلَأمِهمَا فإنَّ الخطبَ قَد فَقُمَ

ومَن يَسمَع بِلَأمِهمَا فإنَّ الخطبَ قَد فَقُمَ

قَتَلنَا القِيلَ مَسرُوقًا ورَوَينَا الكَثِيبَ دَمًا

وإنَّ القِيلَ قِيلُ النَّاسِ وُهرُزٌ مُقسِمٌ قَسَمًا
يَذُوقُ مُشَعشَعًا حَتَّى نَفِيءَ السَّبيَ والنَّعَمَ

أمَّا رسول الله ﷺ فقد هيأه الله تعالى للقيادة وسياسة الأمَّة مِن صغره. فقد ذكر ابن إسحاق أنَّه كان يُوضع لعبدالمطَّلب (جدِّ النبيِّ) فراش في ظلِّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتَّى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ مِن بنيه إجلالًا له. وكان رسول الله ﷺ يأتي، وهو غلام جفر، حتَّى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبدالمطَّلب إذا رأى ذلك مِنهم: دعوا ابني.. فوالله إنَّ له لشأنًا. ثمَّ يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسرُّه ما يراه يصنع. وهذا يعني أنَّه كان يستمع لأحاديث الكبار، فقد كان جدُّه سيِّدًا مِن سادات قريش.

وقد شهد رسول الله وهو صغير قبل البعثة "حرب الفجَّار"، فقد جاء في (السيرة النبوية)، لابن هشام، أنَّه: "لمَّا بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة، أو خمس عشرة سنة، هاجت حرب الفجَّار بين قريش ومَن معها مِن كنانة، وبين قيس عيلان"، و"شهد رسول الله ﷺ بعض أيَّامهم، أخرجه أعمامه معهم. وقال رسول الله: (كنتُ أُنبل على أعمامي)، أي أردُّ عنهم نبل عدوِّهم إذا رموهم بها"[1]. كما شهد (حلف الفضول)، حيث قال رسول الله ﷺ: (لقد شهِدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت به في الإسلام لأجبت)، وكانوا تحالفوا أن

(1) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط3/ 1990م: ج1/ 208- 210.

يردُّوا الفضول على أهلها، وألَّا يَعَزَ ظالم مظلومًا. وكان (حلف الفضول) قبل المبعث بعشرين سنة، وبعد حرب الفجار بأربعة أشهر[1]. وأسندت إليه بطون قريش أمر وضع الحجر الأسود في موضعه عندما تنازعت الأمر في ذلك. وعمل في رعي الغنم، كما عمل في التجارة لصالح زوجته خديجة، وكان قد سافر إلى الشام مع جدِّه في تجارة له.

هذه المعطيات جميعًا شكَّلت شخصيَّة الرسول وأمدَّته بالخبرة الحياتية في السياسة والقيادة وأحوال المجتمع وتفاعلاته.

الدرس السياسي بعد البعثة والرسالة:

مع نزول القرآن الكريم وانطلاق الرسالة، واستجابة عدد مِن المدعوين لدين الإسلام، أصبح المؤمنون الجدد يتلقَّون جزءًا مِن معارفهم الرئيسة مِن الوحي، كتابًا وسنَّة، إذ باتت قضايا العدل والحقوق والحرِّيات، والاجتماع والعلاقات، والحكم والتحاكم، والسلطة والقيادة، حاضرة في نصوص الوحي بكثافة، في سيرة قصص تاريخية لدول وشعوب وحكَّام ومصلحين، أو في إرشادات قيمية وأخلاقية، أو في صيغة تصوُّرات ومعتقدات، أو نظم وتشريعات.

بات المؤمنون الجدد، الذين سيتميَّزون عن غيرهم مِن المؤمنين عبر التاريخ بوصف "الصحابة" لصحبتهم للرسول ﷺ، أمام ثراء معرفي سياسي

(1) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ج3/ 456؛ وانظر: هل شهد النبي صلى الله عليه وسلم حلف الفضول أم حلف المطيبين؟، الإسلام سؤال وجواب، في: 3/ 1/ 2024م، على الرابط التالي: https://2u.pw/aepusZED

واسع، يَعرِضُ عليهم خبرات السابقين، وإرشادات ربِّ العالمين، ويُطلعهم على مستقبل الأمَّة والتحوُّلات التي سيشهدها المجتمع والسلطة؛ ثراءٍ يتناول قضايا السلم والحرب، والسياسة والاقتصاد، والقضاء والأمن، والانتماء والولاء، والتعايش والصراع.

تحدِّثهم سورة النمل عن ملك سليمان، وسورة الروم عن الصراع الدولي، وسورة الكهف عن إمبراطورية ذي القرنين، والشورى عن مبدأ الشورى. ويجلِّي لهم القرآن طغيان فرعون، ورشد ملكة سبأ، ونجاح طالوت في تحرير وطنه. ويخبرهم الرسول عن تحوُّل السلطة مِن نبوة ورحمة إلى خلافة راشدة ثمَّ ملك عضوض ثمَّ ملك جبري، وعن انقسام المسلمين وصراعاتهم، وعن تداعي الأمم عليهم، وعن فتوحاتهم واتِّساع ملكهم. والكثير مِن الأخبار والتوجيهات والقواعد والفتاوى.

لقد رفد القرآن الكريم والسنَّة النبوية عقول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بمعرفة سياسية أصيلة، وعميقة، ودقيقة، وشاملة، ومرتبطة ببقيَّة العلوم، والأخلاق، والعقائد. تهيئة لهم لحمل مهمَّة القيادة التي تركها الرسول لهم بعد وفاته. وبالتالي فالظنُّ بأنَّ الصحابة لم يتلقَّفوا معرفة وعلمًا وتربية وفكرًا سياسيًّا ظنٌّ جاهل، سعى لترويجه الجهلة بهذا الدين ومسئوليَّاته ومهام المؤمنين به في الحياة مع شعوبهم وشعوب العالم أجمع.

الدرس السياسي والسيرة النبوية:

لا يتوقَّف الدرس السياسي زمن الصحابة على المعارف والعلوم التي بثَّها القرآن الكريم والسنَّة النبوية، بل تجاوز ذلك إلى التطبيق العملي الذي مارسه رسول الله ﷺ وهو بمكَّة، يتعامل مع سلطة قريش في دار الندوة وهي تواجه دعوته بكلِّ عتوٍّ وجبروت، ويبحث عن دار آمنة لأتباعه ليهاجروا إليها فيرسو اختياره على الحبشة لأنَّ بها (ملكًا لا يظلم عنده أحد)[1]، ويتردَّد على منازل الحجيج بمكَّة يعرض عليهم دعوته ويطلب مِنهم نصرته، ويخطِّط للهجرة إلى المدينة. ثمَّ وهو بالمدينة، يوادع اليهود، ويصوغ "وثيقة المدينة" بين مكوِّناتها، ويسعى لنظم المجتمع وحلِّ إشكالاته الاقتصادية والاجتماعية، ويقوِّي مِن قدراته وإمكاناته، ويشكِّل علاقته بمحيطه العربي والإقليمي، ويوجِّه جيشه وينصب ولاته ويدير شئون رعاياه بالعدل والإحسان.

لقد رأى الصحابة في شخص الرسول القائد السياسي المحنَّك، الذي يترجم معارف الوحي إلى واقع عملي، ويشاور أصحابه، ويأخذ بآرائهم، ويراعي ظروفهم، ويسعى في اجتماعهم ووحدتهم وإن بفوات مصالح أدنى، ويحصِّن جبهتهم الداخلية، ويختار الأصلح مِنهم للقيام بالمسئوليَّات والمهام. ومِن ثمَّ رأوا النموذج والمثال الذي يمكن احتذاءه والاقتداء به رأي العين، بل

(1) السيرة النبوية، لابن إسحاق: ج1/ 194. وانظره في: أسباب نزول القرآن للواحدي، بتحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام- السعودية، ط٢/ ١٤١٢هـ: ج1/ 203. **وقال المحقق**: إسناده صحيح، أخرجه ابن جرير (٣/ ٧) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

عايشوه ولمسوا مِنه مقاصده وغاياته، وما يراعيه مِن أبعاد وملابسات. وكان الحظُّ الأكبر في ذلك لأبي بكر الصدِّيق، والفاروق عمر بن الخطَّاب، وذي النورين عثمان بن عفَّان، وعلي بن أبي طالب، نظرًا لملازمتهم إيَّاه كثيرًا، وقربهم مِنه، وانشغالهم بخدمته أو مصاهرته.

الدرس السياسي والخلفاء الراشدون:

مثَّل الصحابة الأوائل (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) امتدادًا للخطِّ البياني لسنَّة الرسول وسيرته في الحكم والقيادة والإدارة، وفق الاجتهاد البشري الجامع بين هداية الوحي ورشد العقل: (عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين مِن بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)[1]. فقد مثَّل هؤلاء الأربعة طليعة القيادة السياسية للأمَّة بعد النبيِّ ﷺ، وعالجوا أمورًا مستجَّدة لم تكن في زمنه، وراعوا تغيُّر الظروف والملابسات في إنزال الأحكام، وأعملوا القياس وغيره مِن طرق الاستنباط والاستدلال للوصول إلى مقاربة سديدة مع نصوص الشرع وأحكامه، ذلك أنَّ الوحي قد انقطع، فلم يبق للمسلمين إلَّا أن يعملوا عقولهم في استنطاق النصوص وتطبيقها على الواقع.

وفي ظلِّ هؤلاء الخلفاء الراشدين امتدَّت الدولة الإسلامية ودخل فيها العديد مِن الشعوب، ذات الديانات المختلفة، والثقافات المختلفة، والأعراق المختلفة، والعادات المختلفة، وتطوَّرت مؤسَّسات الدولة، وازدادت

(1) سنن أبي داود، رقم: (4607)؛ وسنن الترمذي، رقم: (2676)؛ وسنن ابن ماجة، رقم: (42)؛ ومسند أحمد، رقم: (17145)؛ وهو حديث صحيح.

مسئوليَّاتها ومهامها، واحتاجت لتجارب الشعوب الأخرى وخبراتهم، فجرى الاطِّلاع عليها وأخذ أحسن ما فيها. كلُّ ذلك والصحابة يكسبون اجتهاد الخلفاء الراشدين بإجماعهم حجَّة بالغة دامغة، لتكون الأمَّة بعد ذلك على هدى بسيرة الحكم مع غياب الوحي، فلا تجفوا عن الهدى الربَّاني ولا تكفر الرشد العقلي الذي منحاها الله لها.

ختامًا..

كم نحن بحاجة إلى إحياء هذا الدرس السياسي ونحن نبعث الأمَّة في ظروف غاية في الصعوبة، مع تطلُّع جيل الشباب للتضحية والفداء نصرة لدينهم وإرضاءً لربِّهم. وخير ما يمكنني القيام به تحويل القرآن الكريم والسنَّة النبوية وسنَّة الخلفاء الراشدين إلى درس سياسي، كما هي درس عقدي وفقهي وأخلاقي، فإن أبينا ذلك استمرَّ زمن التيه وارتفعت كلفة النصر وزادت ضريبة الذلِّ.

معالجة التاريخ.. بين الرَوائي والمؤرّخ[1]

يعدُّ تدوين التَّاريخ عِلمًا مِن العلوم المهمَّة في حياة المجتمعات، إذ هو السِّجل الحافظ لماضيها بكلِّ ما فيه مِن أحداث وماجريَّات وشخوص وتفاصيل. فهو ذاكرة الأجيال المتوارثة، القادرة على الرَّبط بينها في نسق وجودي متَّحد، وسيرورة تجسديَّة متجدِّدة. وأيُّ تزوير في سجلات التَّاريخ يقتضي العبث في وعي المجتمع، والمخاطرة بحاضره ومستقبله. لهذا كان لا بُدَّ مِن منهج علمي لتدوينه، ومنهج علمي لتحقيق مدوَّناته، ومنهج علمي لنقد مرويَّاته، ومنهج علمي لتحليلها وتفسيرها.

ونظرًا لإدراك المسلمين بأهميَّة كتابة التَّاريخ بادر عدد مِنهم إلى كتابة السِّيرة النَّبوية، وتاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخ المسلمين بعد عهد النُّبوَّة، وتاريخ الأمم الأخرى. وقد اعتمدوا في كلِّ محور مِن محاور هذا التَّاريخ أسلوبًا مغايرًا، ومنهجًا مختلفًا، في الرَّصد والجمع والتَّدوين، فقد كانوا نقلة لما سمعوا به وشاهدوه، وحرصوا على الإسناد في أعزِّ مراحل التَّاريخ الإسلامي، واعتمدوا في حقب التَّاريخ الأخرى على المشتهر، أو على جمع المرويَّات المتعدِّدة رغم اختلافها، أو على النَّقل عن كتب الأمم الأخرى ودواوينهم والإسناد لها. فتعدَّدت كتب التَّاريخ، وتنوَّعت مسالك تدوينها، وأصبحت صنعة علميَّة توضع لها القواعد والأصول والمناهج والمعايير.

(1) نُشِر بتاريخ: 27 يوليو 2023م.

في موازاة المنشغلين بعلم التَّاريخ كان هناك القُصَّاص، وهم أناس اشتغلوا بصياغة أحداث مِن التَّاريخ بلغة أدبية تشدُّ الجمهور إليها، لكنَّها لا تعتمد على الحقائق بل على الأخيلة والخرافة، والتَّزوير أو المبالغة، استجابة لرغبات الجمهور أو خدمة لذوي السُّلطان والمال. وفي حين كان يبذل المؤرِّخون جهدًا كبيرًا في أعمالهم، قراءة وبحثًا وتدقيقًا وتحقيقًا، كان العامَّة يعزفون عن نتاج تلك الجهود، وكان الجمهور الأعمُّ ينصرف إلى مجالس القصَّاص ليمتِّع نفسه بالرِّوايات المحبوكة والحكايات المسبوكة، التي تلبِّي احتياجاته الوجدانية والعاطفية. لقد كان القصَّاص أشهر مِن المؤرِّخين، وكان مدخولهم مِن مجالسهم تلك، والتي لا تكلِّفهم سوى خيال واسع ولغة أدبية جذَّابة، أضعاف أضعاف مدخول المؤرِّخين الذين يعرضون الوقائع والحقائق كما هي دون خيال أو تزوير أو تحريف.

ولا يزال الرِّوائيون (القصَّاص) -اليوم- يقومون بذات الدُّور، فقدرتهم الرِّوائية وتمكُّنهم الأدبي والبلاغي يتيح لهم نسج قصص التَّاريخ بحبكة جديدة، ومختلفة، تمكِّنهم مِن تغيير الوقائع والحقائق بشكل جذري، حدَّ الانقلاب عليها، وعكس مسارها! وفي الحديث الشَّريف: (إنَّ مِن البيان لسحرًا)[1]، فقدرة الرِّوائي على إعادة صياغة الأحداث، ورسم ملامح الشَّخصيَّات، وإشباع الفراغات بالخيال، كقدرة السَّاحر على إظهار الحبال في هيئة أفاعٍ تسعى. وإذا كان السَّاحر يسترهب العيون فإنَّ الرِّوائي يسترهب الأسماع والوعي. هذه الخطورة للُّغة والبيان أشار إليها الرَّسول ﷺ، وهو

(1) مسلم، رقم: (869).

يقول: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وإِنَّكُم تَختَصِمُونَ إليَّ، ولعلَّ بَعضَكُم أَن يَكُونَ أَلحَنَ بحُجَّتِهِ مِن بَعضٍ، فأَقضِي لَهُ بِنحوِ مَا أَسمَعُ، فمَن قَضَيتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقطَعُ لَهُ قِطعَةً مِنَ النَّارِ)[1].

إنَّ الرِّوائي قادر على أن يذهب في تزوير التَّاريخ وتحريفه بعيدًا، خاصَّة في ظلِّ عدم تمكُّن النَّاس مِن -أو عدم رغبتهم في- طلب العلم، وقراءة مدوِّنات التَّاريخ، وبذل الجهد للبحث واستماع آراء العلماء المحقِّقين والنَّاقدين فيها. خاصَّة وأنَّ الرِّوائي لا يخاطب العقل بقدر ما يخاطب العاطفة، فهو يضع لمساته الفنيَّة في القصص التي ينتقيها، وربَّما أعاد تنظيمها، أو قراءتها، بشكل مغاير دون أن يُشعر المتلقِّي. وما جرى مِن تزوير لتاريخ العديد مِن الشَّخصيات في الغرب أو الشَّرق، وتحويلهم إلى أبطال أو إلى مجرمين، ثمَّ تجسيد تلك الرِّوايات في أفلام سينمائية فائقة الجودة، سوى ترجمة لنجاح هذه الصِّنعة وقابلية النَّاس لها، لأنَّ النَّاس عادة تميل إلى تصديق ما ترغب في تصديقه.

وذائقة النَّاس ورغباتهم يكشفها إقبالهم أو إعراضهم، فكلَّما شعر القاصُّ أو الرِّوائي بإقبال النَّاس أوغل في إرضاء مشاعرهم وإمتاع ذائقتهم، وكلَّما شعر بإدبار النَّاس عاد لينتقي لهم قصصًا جديدة تلائم رغباتهم وأهواءهم. وإذا كان الإنسان بطبعه يحبُّ القصص، فإنَّه يكون مأسورًا عادة لتلك القصص المبالغ فيها، إذ أنَّها تلفت انتباهه، وترسخ في ذهنه، لهذا كانت معظم المجتمعات حاملة لقصص الخرافات والأساطير، أكثر مِنها حاملة للوقائع والحقائق التَّاريخية؛ وسواء كانت

(1) مُتَّفق عليه.

تلك القصص المبالغ فيها على سبيل المدح المطلق أو الذَّم المطلق.

وإذا كان مذهب الشِّيعة قد اتَّخذ مِن الخرافة والكذب والتَّزوير شعارًا ودثارًا لخلق صورة مقدَّسة للصَّحابي الجليل، علي ابن أبي طالب، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حتَّى أصبحت هذه الصُّورة تروج عند عامَّتهم، وتطغى على أبنائهم جيلًا بعد جيل، فإنَّ البعض توجَّه لمحاكاة هذا الأنموذج، ولكن في الاتِّجاه المعاكس، محاولًا خلق صورة مدنَّسة لهذا الصَّحابي، كردٍّ فعل على هذا النَّهج الشِّيعي الباطل. وما يتناوله بعض هؤلاء، مِن الأدباء الرِّوائيين، بشأن الصَّحابي الجليل، علي ابن أبي طالب، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، هو مِن قبيل الرِّوايات المصطنعة، والمستمدَّة مِن التَّاريخ، لكنَّهم هنا لا يعمدون إلى التَّحقُّق مِن الرِّوايات وتوثيقها، ونقدها وتفسيرها في سياقاتها الظَّرفية، وإنَّما يعمدون إلى عدَّة تكتيكات تخدم فكرتهم في صياغة شخصية مدنَّسة له، **ومِن ذلك:**

تضعيف بعض الرِّوايات الثَّابتة والصَّحيحة،

تصحيح بعض الرِّوايات الضعيفة أو المكذوبة،

إخفاء بعض المرويَّات،

إيراد بعض المرويَّات دون نقدها،

تغيير مسار الوقائع وإعادة ترتيبها بنسق مختلف،

سدُّ الثَّغرات التَّاريخية بقدرة خيالية فائقة،

صياغة العبارة بكلِّ احترافية بما يدغدغ عواطف القرَّا،

استخدام تقنيَّة المرآة فما يحسب باتِّجاه اليمين يعدُّ يسارًا والعكس، أي أنَّ الفضائل تتحوَّل إلى مثالب،

ثمَّ هم بعد هذا يشكِّكون في مروِّيات الآخرين، وتفسيراتهم، وأفهامهم، ويتَّهمونهم بما يطعن في أمانتهم وصدقهم، أو في وعيهم وعقولهم، ويمارسون على مخالفيهم الإرهاب الفكري وإسقاطهم مِن حلبة المواجهة معهم.

ويركن هؤلاء إلى أنَّ معظم متابعيهم لن يكلِّفوا أنفسهم البحث والتَّنقيب والتَّدقيق خلف ما يقولونه ويسردونه، لأنَّهم يعلمون أنَّهم يقدِّمون لهم: "ما يطلبه المستمعون"، وعليه فهم يرغبون بالأساس لسماع ما يروونه لهم، وإن كان باطلًا في أصله. وعدا عن ذلك، فما عاد لكثير مِن النَّاس همَّة في البحث والتَّدقيق سوى التَّلقُّف عن أفضل متحدِّث وأبلغ متكلِّم!

إنَّ عمل المحقِّق والمدقِّق كدور النِّيابة العامة والبحث الجنائي، في الوصول إلى حقائق الجريمة، مرهق ومتعب، لكنَّه موصل للحقيقة بأدلة أكثر قطعية. أمَّا مهمَّة شاهد الزُّور فسهلة، وتقوم على أن يصوغ روايته وسرديَّته الخاصَّة للجريمة، خلافًا للحقيقة، فيجعل مِن البريء متَّهمًا، ومِن المجرم بطلًا، لمجرَّد أنه يمتلك الخيال الخصب، والقدرة على إعادة ترتيب وقراءة الأحداث وتفسيرها بما يخدم سرديَّته الخاصَّة للوقائع.

وأخطر شيء في استسلام المجتمع للقصَّاص والرِّوائيين هو قابليته للاستغفال مرَّات عدَّة، طالما وأنَّه يعتمد العاطفة والذَّائقة والهوى محدِّدات لمَن يُصغي إليهم، ويأخذ عنهم تاريخه وماضيه. وفي مجتمع يمجِّد القصَّاص والرُّوائيين

يتراجع دور المؤرِّخين والمختصِّين في التَّاريخ، لهذا لا تتعجَّب مِن إقبال معظم النَّاس على اقتناء كتب الرِّوايات وإعراضهم عن اقتناء كتب التَّاريخ؛ فقالب الرِّواية مستساغ، وسهل، وممتع، وهو ما يدفع الكثير للإقبال عليها، أمَّا كتب التَّاريخ فهي ضخمة، وجافَّة، ومتعبة، ولا تروق إلَّا لذوي الاختصاص والباحثين.

وتوجُّه الرِّوائي والقاص إلى الرِّوايات التَّاريخية لا يجعل مِنه بالضَّرورة مؤرِّخًا، وناقدًا في التَّاريخ، بل يبقيه في دائرته الأدبية راويًا وناقدًا إذا كان أهلًا لذلك. كما أنَّ إلمام المؤرِّخ بكتب الطِّب لا يجعل مِنه طبيبًا، فضلًا عن أن يكون جرَّاحًا متمكِّنًا. فهذا شيء وذاك شيء، وعندما تذوب المميِّزات بين التَّخصُّصات ويتجرَّأ كلُّ شخص على اقتحام ما لا يعلم ولا يحسن تصبح الفوضى هي الحاكم للحياة، والتَّخبُّط هو السِّمة البارزة فيها.

ختامًا، يتَّفق المؤرِّخون على أنَّ الرِّوايات الأدبية التَّاريخية لا تعدُّ وثيقة تاريخية وإن تضمَّنت شيئًا مِن التَّاريخ لحبك أو إتقان الصِّنعة، وأنَّ الوثيقة التَّاريخية لها شأن أكبر وأهمُّ وأبلغ. ولهذا تحافظ المجتمعات المتحضِّرة على كتب التَّاريخ بعيدًا عن عبث العابثين، مهما أغرقت الرِّوايات سوق التَّداول. يقول "جورج أويل"، صاحب رواية (1984): "مَن يتحكَّم في الماضي يستطيع التَّحكُّم في المستقبل، ومَن يتحكَّم في الوقت الحالي يستطيع التَّحكُّم في الماضي".

أحاديث الفتن وآخر الزمان بين الرواية والكتمان

تمهيد:

تمثِّل أحاديث النبي ﷺ مصدرًا مِن مصادر تلقِّي الدين، إذ يقوم الدين الإسلامي على الوحي، بصيغتيه القرآن والسنَّة؛ كما أنَّها رافد مِن روافد العقيدة والشريعة والمعرفة. وقد ظلَّت أحاديث الفتن وأخبار آخر الزمان، الواردة في كتب السُّنن والآثار، محلَّ عناية واهتمام وإثارة عبر التاريخ الإسلامي، حيث باتت الأجيال التالية لجيل الصحابة والتابعين تراقب وقوع هذه الفتن والأخبار مصداقًا لقول الرسول الكريم، وتتحيَّن تحقُّقها. وانشغلت بها فرق وطوائف تالية حتَّى تكلَّفت حدوثها وإيقاعها، واتَّخذ بعض الكذَّابين مِنها ميدانًا للكذب على رسول الله، ودسِّ الفخاخ فيها بصناعة شخصيَّات وأحداث وأفكار تهدم الإسلام وتحارب الأمَّة؛ غير أنَّ هذا لم يمنع مِن تدوينها وحفظها وتناقلها والعناية بها تحقيقًا وتدقيقًا. وفي حين أنزل بعض العلماء أحاديث الفتن وآخر الزمان منزلة أحاديث العقائد والإيمان والعبادات والحلال والحرام، حتَّى شدَّدوا فيها، تساهل فيها فريق آخر نظرًا لخصوصيَّتها.

هذه السطور توضِّح مسار التعامل مع أحاديث الفتن وأخبار آخر الزمان بين الرواية والكتمان والتشدُّد والتساهل، في سبيل تقديم منظور معتدل ومتَّزن في التعامل معها، نظرًا لحاجة الأمَّة إليها مِن ناحية، واعتبارًا بالإسقاطات الخاطئة والتوظيفات المنحرفة التي جرت عليه.

هل كلُ ما نطق به الرسول وحي ودين؟

تفاوت اعتناء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأحاديث الرسول حفظًا ورواية بحسب مراتب هذه الأحاديث ومواضيعها، وأهمِّيتها ووظيفتها. بمعنى أنَّ الله تعالى لم يكلِّف الأمَّة بحفظ كامل أحاديث الرسول ﷺ كيفما كانت، كما كلَّف الأمَّة بحفظ القرآن الكريم كاملًا. ذلك أنَّ مِن تلك الأحاديث ما يخرج عن الأهمِّية الدينية، وبمعنى آخر ليس كلُّ ما تكلَّم به رسول الله ﷺ هو وحيٌ ربَّاني، ومصدرٌ لعقيدة أو شريعة أو أيٍّ مِن جوانب الدين الأخرى، **وهنا يمكن الاستشهاد بأربعة نصوص حديثية في هذا الشأن:**

– **مِن ذلك ما صدر مِنه ﷺ**، عندما رأى أهل المدينة يؤبِّرون النخل، أي يلقِّحون أشجار النخل، فقال لهم: (لو لَم تَفعَلُوا لَصَلُحَ)، فخَرَجَ شِيصًا، أي غير صالح، فَمَرَّ بهم فَقال: (ما لِنَخلِكُم؟!)، قالوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قال: (أَنْتُم أَعلَمُ بأَمرِ دُنيَاكُم)[1]. فما خرج مِنه كان اجتهادًا في أمر دنيوي لا صلة للوحي به، ولم يكن في شأن عقدي أو تعبُّدي أو ذي صلة بالحلال والحرام أو التشريع، لهذا أبدى –عليه الصلاة والسلام– تأكيده على أنَّ مُهمَّته هي تبليغ الدين، وأنَّ ما وراء ذلك مِن أمور الدنيا الناس أعلم بها مِنه، باعتبار اهتمامهم وانشغالهم بها، كلٌّ في اختصاصه وفنِّه.

---

(1) مسلم، رقم: (2363)؛ وفي سنن ابن ماجة أنَّه قال لهم: (إن كانَ شيئًا مِن أمرِ دُنياكم فشأنُكُم بهِ، وإن كانَ مِن أمرِ دينِكُم فإليَّ)، رقم: (2019).

وهذا الحديث نصٌّ واضح في أنَّ العلوم الدنيوية المحضة، التي مدارها على الحسِّ والتجربة والخبرة والمنطق الحسابي أو الرياضي، كعلوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والأحياء والفلك وغيرها، أهل الدنيا أعلم بها، وليس للأنبياء فيها مِن العلم إلَّا بقدر ما عرفوه مِن خبرتهم الشخصية أو بقدر ما أوحي إليهم فيها؛ وبالتالي فمردُّها العقل البشري.

– **ومِن ذلك خطبة رسول الله** ﷺ: (أيُّما رجل مِن أمَّتي سببته سُبَّة، أو لعنته لعنة، في غضبي، فإنَّما أنا مِن ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنَّما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها عليهم صلاة يوم القيامة). ومناسبة الحديث أنَّ حذيفةُ بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان بالمدائنِ، فكان يَذكُر أشياءَ قالها رسولُ الله ﷺ لأُناسٍ مِن أصحابه في الغَضبِ، فيَنطلقُ ناسٌ ممَّن سمِع ذلك مِن حذيفةَ فيأتون سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيَذكُرون له قولَ حُذيفة، فيقول سلمان: حُذيفة أعلمُ بما يقول. فيرجِعون إلى حُذيفة فيقولون له: قد ذَكَرنا قولك لسَلمان فما صدَّقَك ولا كذَّبَك. فأتَى حُذيفة سلمانَ، وهو في مَبقلةٍ، فقال: يا سلمان.. ما يَمنعُك أن تُصدِّقَني بما سمعتُ مِن رسولِ الله ﷺ؟! فقال سلمان: إنَّ رسول الله ﷺ كان يَغضَبُ فيقولُ في الغَضبِ لناسٍ مِن أصحابِه، ويَرضَى فيقولُ في الرِّضا لناسٍ مِن أصحابِه، أمَا تَنتهي حتى تُورثَ رجالًا حُبَّ رِجالٍ ورِجالًا بُغضَ رِجالٍ، وحتى تُوقِعَ اختلافًا وفُرقة؟ ولقد عَلِمتَ أنَّ رسولَ اللهِ خطَب فقال: وذكره[1]. ولمعنى

(1) سنن أبي داود، رقم: (4659)، وأخرجه الطبراني (6/ 259)، رقم: (6156) باختلاف يسير، وأحمد في مسنده، رقم: (23721) بنحوه.

الحديث شواهد صحيحة. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: (اللَّهُمَّ فأيُّما مُؤمِنٍ سَبَبْتُه فاجعل ذلك له قُربَة إليك يوم القيامة)[1]. **وعن** جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: (إنَّما أنا بَشَرٌ، وإنِّي اشتَرَطتُ على رَبِّي عَزَّوَجَلَّ أيُّ عبد مِن المسلمين سَبَبْتُه أو شَتَمتُه أن يكون ذلك له زَكَاةً وأجرًا)[2]. إذن فما خرج في صيغة الانفعالات الشخصيَّة والاحتياجات البشرية لا يلحق بالوحي، ولا يشكِّل مصدرًا للدِّين، وإنَّما هو مِن الكلام البشري الاعتيادي. ومثل هذا غيرُه مِن الكلام الاعتيادي الذي يحتاجه الرسول ﷺ في حياته، مع أهله وخادمه وجيرانه وأصحابه ومجتمعه عمومًا.

ولعلَّ شخصًا أن يستشهد بقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[3]، **وبما ورد** في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كان يكتبُ كلَّ شيءٍ يسمعُه مِن رسول الله ﷺ، يريدُ حفظَهُ، فنهَته قُريش عن ذلك، وقالوا: تَكتُبُ ورسولُ اللهِ ﷺ يقول في الغضب والرِّضا؟! فأمسَك عن الكتابة حتَّى ذكر ذلك لرسول الله فقال له: (اكتُب فوالَّذي نَفسِي بيدِهِ ما خرَجَ مِنه إلَّا حقٌّ)[4].

---

(1) البخاري، رقم: (6361) واللفظ له؛ ومسلم، رقم: (2601)؛ وروى نحوه أحمد في مسنده (3/ 33)، مِن حديث أبي سعيد الخدري، وفي المسند أيضًا (5/ 294)، مِن حديث أبي السوار عن خاله.

(2) مسلم، رقم: (2602).

(3) النجم: 3، 4.

(4) مسند أحمد، رقم: (6802)، وسنن أبي داود، رقم: (3646)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

والجواب: أنَّ الآية والحديث يعودان إلى ما يتَّصل بالوحي تلاوة وتبليغًا، وتفسيرًا وتأويلًا، وحكمًا وقضاء، وفتوى واجتهادًا، فهو معصوم في هذا كلِّه، وإن اجتهد فأخطأ سُدِّد في خطئه حتَّى لا يُتابع عليه. وهو ما يتَّفق مع النصوص التي سبق ذكرها، ومع منطق العقل والشرع، إذ لو جُعِلَ كلُّ ما نطق به الرسول وحيًا ودينًا لكان في ذلك مخاطرة بالدين، ونفيًا لبشريَّته.

– ومِن ذلك، ما رواه البخاري عن أبي هُرَيرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "حَفِظتُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعَاءَينِ: فأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُه، وأَمَّا الآخَرُ فَلَو بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا البُلعُومُ"[1]. وهذا الحديث دليل واضح على إدراك كبار الصحابة أنَّ ما بثَّه رسول الله ﷺ قسمان، قسم مِن الدين واجب البلاغ، وقسم مِن العلم الإضافي الذي أوحاه الله له فيما يقع مِن المبشِّرات والفتن. فالقسم الثاني ليس فيه تكليف، ولا عقيدة يختلُّ دين المرء بجهلها أو يحاسب على ترك العلم بها، أمَّا القسم الأوَّل، والذي يضمُّ العقيدة والشريعة والإيمان والأخلاق، فهذا حقُّه البلاغ والعلم والعمل به.

أحاديث الفتن بين الرواية والكتمان:

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، معلِّقًا على حديث أبي هريرة السابق: "حَمَلَ العُلَمَاء الوِعَاء الَّذِي لَم يَبُثَّهُ على الأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا تَبِيين أَسَامِي أُمَرَاء السُّوء وأَحوَالهم وَزَمَنهم"، **وأضاف:** "قال ابن المنيِر: وَيُؤَيِّد ذلك أنَّ الأحاديث المكتُوبة لو كانت

(1) البخاري، رقم: (120).

مِن الأحكام الشَّرعيَّة ما وسِعَه كِتمَانها. وقال غيره: يَحتَمِل أن يكون أراد مع الصِّنف المذكُور ما يَتَعَلَّق بأشراطِ السَّاعَة وتغيُّر الأحوال والملاحم في آخر الزَّمان، فيُنكر ذلك مَن لم يألفه، ويعترِض عليه مَن لا شُعُور له بِه"[1].

وقال العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أراد به نوعين مِن العلم، وأراد بالأوَّل: الذي حفظه مِن السُّنن المذاعة، لو كُتِبت لاحتمل أن يملأ مِنها وعاء، وبالثاني: ما كتمه مِن أخبار الفتن كذلك؛ ويُقال: حُمِل الوعاء الثاني على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء الجور وأحوالهم وذمِّهم"[2].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حُمل على ما يتعلَّق بالفتن مِن أسماء المنافقين ونحوه، أمَّا كتمه عن غير أهله فمطلوب بل واجب"[3].

وقال ابن بطَّال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال المهلَّب وأبو الزناد: يعنى أنَّها كانت أحاديث أشراط الساعة، وما عُرِّف به ﷺ مِن فساد الدين وتغيُّر الأحوال، والتضييع لحقوق الله تعالى"، وأضاف: "ولو كانت الأحاديث التي لم يحدِّث بها مِن الحلال والحرام ما وَسِعَهُ تركها، لأنَّه قال: لولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثتكم، ثمَّ يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ ...﴾، الآية[4]"[5].

---

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج1/ 216.

(2) عمدة القاري: ج3/ 364.

(3) التيسير بشرح الجامع الصغير: ج2/ 852.

(4) البقرة: 159.

(5) شرح صحيح البخاري: ج1/ 195.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولقائل أن يقول: كيف استجاز كتم الحديث عن رسول الله ﷺ، وقد قال: (بلِّغوا عنِّي..)؟! وكيف يقول رسول الله ﷺ ما إذا ذكر قُتِل راويه؟! وكيف يستجيز المسلمون مِن الصحابة الأخيار والتابعين قتل مَن يروي عن رسول الله ﷺ؟ فالجواب: أنَّ هذا الذي كتمه ليس مِن أمر الشريعة، فإنَّه لا يجوز كتمانها، وقد كان أبو هريرة يقول: لولا آية في كتاب الله ما حدَّثتكم، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ...﴾، فكيف يُظنُّ به أن يكتم شيئًا مِن الشريعة بعد هذه الآية، وبعد أمر رسول الله ﷺ أن يبلِّغ عنه؟ وقد كان يقول لهم: (ليبلِّغ الشاهد مِنكم الغائب)، وإنَّما هذا المكتوم مثل أن يقول: فلان منافق، وستقتلون عثمان، وهلاك أمَّتي على يدي أغيلمة مِن قريش.. بنو فلان، فلو صرَّح بأسمائهم لكذَّبوه وقتلوه"[1].

ويأتي في هذا السياق ذاته حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والذي جاء فيه أنَّ عُمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دُعِي لجنازة، فخرَجَ فيها أو يُريدُها، فتعلَّقتُ به فقلتُ: اجلس يا أميرَ المؤمنين فإنَّهُ مِن أولئِكَ. فقال: نشدتُكَ باللهِ.. أنا مِنهم؟ فقال: لا، ولا أبرِّئُ أحدًا بعدَكَ[2]. فقد ذكر رسول الله لحذيفة أسماء المنافقين فلم يتحدَّث بذلك.

ويتبيَّن مِن هذه الأحاديث أنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تركوا نشر بعض ما ورد

---

(1) كشف المشكل مِن حديث الصحيحين: ص1014.

(2) أخرجه البزار في مسنده، رقم: (2885)، والهيثمي في المجمع (3/ 42)، وحكم الوادعي بصحَّته في كتابه الصحيح المسند، رقم: (294).

عن الرسول ﷺ، وإذاعته بين عموم الناس، ممَّا لا يتعلَّق بالدين، في عقيدة أو شريعة أو أخلاق أو حلال وحرام، ولا يترتَّب عليه عمل أو تكليف، كمرويَّات الفتن وأحوال الأمَّة وحكَّامها في قادم عهدها.

وقد ذكر حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله خطبهم يوما خُطبَة "ما تَرَكَ فيها شيئًا إلى قِيَام السَّاعة إلَّا ذَكَرَه، عَلِمَه مَن عَلِمَه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه، إن كُنتُ لأرَى الشَّيءَ قد نَسِيتُ فأعرِفُ ما يَعرِفُ الرَّجُلُ إذا غَابَ عنه فَرَآهُ فعَرَفَه"[1]. **وفي رواية:** "قام فينا رسول الله ﷺ مَقَامًا، ما تَرَكَ شيئًا يكون في مَقَامِه ذلك إلى قِيَامِ السَّاعة إلَّا حدَّث به، حَفِظَه مَن حَفِظَه ونَسِيَه مَن نَسِيَه، قد عَلِمَه أَصحَابِي هؤلاء، وإنَّه ليَكونُ مِنه الشَّيءُ قد نَسِيتُه فأرَاهُ فأذكُرُه كما يَذكُرُ الرَّجُلُ وجهَ الرَّجُلِ إذا غاب عنه ثمَّ إذا رَآهُ عَرَفَه"[2].

وعن عمرو بن أخطب قال: "صلَّى بِنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر فخَطَبَنا حتَّى حَضَرَت الظُّهر، فنزَل فصَلَّى، ثمَّ صعد المنبر فخطَبَنا حتَّى حَضَرَت العَصر، فنزَل فصَلَّى، ثُمَّ صعد المنبر فخطَبَنا حتَّى غَرَبَت الشَّمس، فأخبَرنا بما كان وبما هو كائن، فأَعلمُنا أَحفَظُنَا"[3].

وهذه أحاديث استُعمل فيها ألفاظ عموم غير مرادة قطعًا، وهي مِن العام الذي أريد به الخصوص، ذلك أنَّ تفاصيل أحداث ما كان وما هو كائن لا يعلمه

(1) البخاري، رقم: (6604).

(2) مسلم، رقم: (2891).

(3) مسلم، رقم: (2892).

إلَّا الله وحده، وإنَّما المقصود به الأمور العظيمة والأحداث الجسيمة وأشراط الساعة وأصناف الفتن التي ستقع للأمَّة. وقد نصَّ على ذلك جماعة مِن أهل العلم. **فقد قال القرطبي:** "وعلى كلِّ تقدير فعمومات هذه الأحاديث يُراد بها الخصوص، إذ لا يمكن أن يحدِّث في يوم واحد، بل ولا في أيَّام، ولا في أعوام، بجميع ما يحدث بعد النبي ﷺ تفصيلًا، وإنَّما مقصود هذه العمومات الإخبار عن رؤوس الفتن والمحن ورؤسائها"، **ثمَّ قال:** "وأنَّه [أي: الرسول] بثَّ الكثير مِن ذلك عند مَن يصلح لذلك مِن أصحابه، كحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما ترك رسول الله ﷺ مِن قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ مَن معه ثلاثمائة فصاعدًا، إلَّا قد سمَّاه لنا باسمه، واسم أبيه، وقبيلته؛... وبهذا يُعلم أنَّ أصحابه كان عندهم مِن علم الكوائن الحادثة إلى يوم القيامة العلم الكثير والحظَّ الوافر، لكن لم يشيعوها، إذ ليست مِن أحاديث الأحكام، وما كان فيها شيء مِن ذلك حدَّثوا به، ونقضوا عن عهدته"[1].

وقال ابن رسلان: "وعلى كلِّ تقدير، فعمومات هذِه الأحاديث يُريد بها الخصوص، إذ لا يمكن أن يحدِّث في يوم ولا أيَّام، بل ولا في أعوام، بجميع ما يحدث بعد النبي ﷺ تفصيلًا، وإنَّما مقصود هذه العمومات الإخبار عن رؤوس الفتن والمحن ورؤسائها"[2].

وقال محمد أنور الكشميري: "اعلم أنَّ العموم قد يكون مدلولًا ولا يكون

(1) المفهم: ج7/ 221.

(2) شرح سنن أبي داود: ج16/ 648.

مقصودًا، وهذا هو عموم غيرُ مقصودٍ، فاعلمه فإنَّه قد زلَّت فيه الأقدام، وتحيَّرت مِنه الأحلام. أَلَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، كيف العمومُ فيه؟ فإذا دَرَيتَ أنَّ العموم قد لا يكون مقصودًا، فلا تتعلَّق بالألفاظ"[2].

وقال محمَّد صديِّق خان: "وهذه الأحاديث كلُّها مَحمُولَة على ما ثبت فِي الصَّحِيحين مِن أحادِيث الفتن والأشراط لا غير، لأنَّه المعهُود مِن الشَّارِع ﷺ في أمثال هذه العمومات"[3].

وعليه، فإنَّ هناك أمورًا في الفتن والأخبار المستقبلية أخبر به رسول الله ﷺ، فسمعها مِنه أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فلم يحفظوها كونها مِن فضول العلم، وربَّما حفظها بعضهم لكنَّهم لم يحدِّثوا بها، أو حدَّثوا بها لكن في إطار ضيِّق ممَّن يثقون فيهم، خشية الفتنة عليهم أو الضرر على أنفسهم. وهذا يعني أنَّ هذه الأخبار قد يتمُّ تناقلها في الخفاء، وربَّما تسرَّبت فخرجت إلى العامَّة، فإنَّ كلَّ خفي مطلوب.

الأمور المانعة من بث أحاديث الفتن وآخر الزمان:

القارئ للقرآن الكريم وللسنَّة النبوية يدرك أنَّ مِن العلوم التي اختصَّ الله بها أنبياءه -عليهم الصلاة والسلام- أخبار ما سيأتي مِن الأحداث، والأحوال، والأشخاص، والأمم، لأهداف تتَّصل بالوعي والبُنية المعرفية، وأخرى تتَّصل

(1) النمل: 23.

(2) فيض الباري على صحيح البخاري: ج6/ 298.

(3) لقطة العجلان: ص63.

بالجوانب الإيمانية الإضافية. فالأخبار بالمغيَّبات أمور محسوبة على المعجزات، إذ أنَّ كشف الغيب ممَّا لا يدركه العقل البشري، خصوصًا على سبيل التفصيل والترتيب والتزمين والتعيين. وإيرادها ضمن ثقافة الأمَّة المسلمة في أيِّ زمان هو مِن قبيل تربيتها على الامتداد الروحي والمعرفي بالقديم والقادم، كي لا تشعر بالغربة واليأس، وهي تواجه في كلِّ انبعاثة جديدة موجة استنكار وجحود وعداء. كما أنَّها تتضمَّن مِن التنبيه والتحذير، أو الإرشاد والبشرى، ما يساعد الأمَّة في مستقبل أحوالها مِن أخذ الحيطة والحذر، أو المواقف الراشدة إزاء ما يواجهها.

ومع ذلك فهناك أمور عدَّة منعت مِن بثِّ أحاديث الفتن وأخبار آخر الزمان، مِنها:

– إشكالها على كثير مِن الناس، وافتتانهم بها:

فإنَّ البعض إذا ما سمع بأخبار غريبة وأحداث مفجعة ربَّما أيس وانتكس، ودخلت عليه شبه وظنون؛ **وقد أُثِر عن علي بن أبي طالب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: "حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعرِفُون، أتُحِبُّون أن يُكَذَّب اللهُ ورسولُه؟!"[1]، **كما أُثِر عن عبد الله بن مَسعُود** قوله: "ما أنت بمُحَدِّثٍ قَومًا حَدِيثًا لا تَبلُغُه عُقُولُهم إلَّا كانَ لِبَعضِهم فِتنَة"[2].

---

(1) البخاري، رقم: (127).

(2) مسلم، رقم: (5).

وفي الحديث، أنَّ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان رديف النبي ﷺ على حمار، يُقال له عُفَير، فقال له رسول الله: (يا مُعاذُ.. هل تَدرِي ما حقُّ الله على عباده، وما حقُّ العبادِ على الله؟). قُلت: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: (فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يَعبُدُوهُ ولا يُشرِكُوا به شيئًا، وحقَّ العباد على الله ألَّا يُعَذِّب مَن لا يُشرِك به شيئًا). فقُلت: يا رسول الله.. أفَلَا أُبَشِّرُ به النَّاس؟ قال: (لا تُبَشِّرهُم فيَتَّكِلُوا)[1].

وقد نصح عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عندما جاء رجل إلى عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بمنى في مكَّة، أيَّام الحجِّ، وقال له: يا أمير المؤمنين.. هل لك في فُلان؟ يقول: لو قد مَاتَ عُمَر لقد بايعت فُلانًا، فوالله ما كانت بَيعَة أبي بَكرٍ إلَّا فَلتَة فتَمَّت. فغَضِب عمر، ثمَّ قال: "إنِّي -إن شاء الله- لقائم العَشِيَّة في النَّاس، فمُحذِّرهم هؤلاء الَّذين يُريدُون أن يغصِبوهم أُمُورهم". قال عبدالرحمن: فَقُلتُ.. "يا أمير المؤمنين.. لا تَفعَل، فإنَّ الموسِم يجمع رَعَاعَ النَّاس وغَوغَاءَهم، فإنَّهم هم الَّذين يَغلِبُون على قُربِك حين تَقُوم في النَّاس، وأنا أخشَى أن تَقُوم فتَقُول مَقَالَة يُطَيِّرُها عنك كُلُّ مُطَيِّرٍ، وأن لا يَعُوها، وأن لا يَضَعُوها على مَوَاضِعِها، فأمهل حتَّى تقدم المدِينة، فإنَّها دار الهجرة والسُّنَّة، فتَخلُص بأهل الفقه وأَشرَاف النَّاس، فتَقُول ما قُلتَ مُتَمَكِّنًا، فيَعِي أهل العلم مَقَالَتَك، ويَضَعُونها على مَوَاضِعِها"[2].

وهذه الأحاديث والآثار وإن وردت في قضايا دينية، فأخبار الفتن وأحداث

(1) متَّفق عليه؛ البخاري، رقم: (2856)؛ ومسلم، رقم: (30).

(2) البخاري، رقم: (6830).

آخر الزمان أولى بأن يُفتن الناس بها، وهو ما دفع بعضهم لإنكارها أو تأويلها تأويلًا فاسدًا، وذلك لعدم قبول عقله الشخصي بها؛ فهناك مَن أوَّل أخبار نزول عيسى، وظهور الدجَّال، وخروج يأجوج ومأجوج، وغيرها، وصرفها عن ظاهرها.

– وجود مَن يغترَّ بها أو يوظِّفها في غير ما سيقت لأجله:

فإنَّ كثيرًا مِن أخبار آخر الزمان التي وردت في كتب الأحاديث، بغض النظر عن صحَّتها أو ضعفها، اغترَّ بها كثير مِن الناس، حتَّى ظهر عبر التاريخ الإسلامي، قديمًا وحديثًا، مَن يدَّعي أنَّه "المهدي" مثلًا[1]، أو أنَّه

---

(1) **خرَّج أحاديث المهدي جماعة مِن أئمَّة الحديث، مِنهم:** أبو داود والترمذي وابن ماجة والبزَّار والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي؛ وأسندوها إلى جماعة مِن الصحابة منهم: علي وابن عبَّاس وابن عمر وطلحة وعبدالله بن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأمِّ حبيبة وأمِّ سلمة وثوبان وقرَّة بن إياس وعلي الهلالي وعبدالله بن الحارث، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا. **وقد اختلف علماء أهل السنة والجماعة حول أحاديث المهدي ما بين مصحِّح لها ومضعِّف. وقد ذكر ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه (منهاج السنة النبوية)، أنَّ "الأحاديث التي يحتجُّ بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة، رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم، مِن حديث ابن مسعود وغيره"؛ **وقال في (الفتاوى المصرية):** "وأمَّا الأحاديث المأثورة في المهدي فمِنها ما هو صحيح ومِنها ما هو حسن"؛ **وقال ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه (إغاثة اللهفان): "والمسلمون ينتظرون نزول عيسى بن مريم مِن السماء،.. ، وينتظرون خروج المهدي مِن أهل بيت النبوَّة، يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا"، **وقال، في (المنار المنيف)**، بعد أن ساق بعض أحاديث المهدي: "وهذه بعض الأحاديث، وإن كان في إسنادها بعض الضعف والغرابة، فهي ممَّا يُقوِّي بعضها بعضًا ويشدُّ بعضها ببعض.."؛ **وقال الحافظ ابن حجر** =

"القحطاني"[1]، أو أنَّه "السفياني"[2]، أو أنَّ فئته هم أصحاب "الرايات السود"، أو أنَّهم المقصودون بالاثنا عشر ألفًا الذين يخرجون مِن عدن- أبين[3]، وربَّما وظَّف النصوص لنصرته أو لمحاربة خصمه.

وبعضهم ارتكب ذلك عن حسن نيَّة، وخطأ في التقدير والاجتهاد والتنزيل،

= رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في (تهذيب التهذيب)، و(فتح الباري): "وقد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهدي، وأنَّه مِن أهل بيته، وأنَّه يملك سبع سنين، وأنَّه يملأ الأرض عدلًا، وأنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يخرج فيساعده على قتل الدجَّال، وأنَّه يؤمُّ هذه الأمَّة ويصلِّي عيسى خلفه". **وقال الإمام الشوكاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في رسالته (التوضيح في تواتر ما جاء في الأحاديث في المهدي والدجَّال والمسيح): "الأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها، مِنها خمسون حديثًا، فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شكٍّ ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما دونها على جميع الاصطلاحات المحرَّرة في الأصول، وأمَّا الآثار عن الصحابة المصرِّحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضًا لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك".

(1) **حديث القحطاني ثابت في الصحيحين**، انظر: البخاري، رقم: (3517)، ومسلم، رقم: (2910).

(2) **أحاديث السفياني أغلب العلماء على تضعيفها**، فلم يثبت مِنها شيء.

(3) يروى عن عبد الله بن عبَّاس، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسول الله قال: (يخرجُ مِن عدنِ أَبيَنَ اثنا عشرَ ألفًا ينصرون الله ورسوله، هم خيرُ مَن بيني وبينهم)؛ رواه أحمد في مسنده، انظره بتحقيق أحمد شاكر: ج5/ 33؛ وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند: إسناده صحيح. وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة. وضعَّف الحديث، الشيخ خالد بن محمود الحايك. انظر: السَّنن الأَبين في حكم حديث: (يَخرُج مِن عَدَنِ أَبيَن)، على الرابط التالي:

https://addyaiya.com/content.php?page-id=388&v=01f7743c

وبعضهم ارتكب ذلك سعيًا في اكتساب شرعيَّة وتحقيق نصرة وجمهور يتبعه، لتحقيق أغراض سياسية سلطوية. ومِنهم مَن نجح في ذلك، ومِنهم مَن فشل، لكن بعد خسائر في الأرواح والمقدَّرات.

وما يقع مِن أخطاء في فهم وتنزيل هذه الأحاديث، وتكييف وقوعها نظريًّا أو عمليًّا، محسوب على صاحبها، ومردود عليه، دون الحاجة إلى التكلُّف في نفي ما ثبت، وتضعيف ما صحَّ، ونقض ما أجمع عليه. وتوظيف النصوص الدينية لأغراض شخصية ومآرب فئوية ومقاصد دنيوية أمر شائع بين عموم الناس، فإنكار النصوص لوجود ظواهر كهذه منهجية باطلة في معالجة الأخطاء والانحرافات.

– الاستغلال المنحرف لهذه الأحاديث خارج سياقها الديني كما يقع مِن أهل البدع:

إنَّ استغلال الدين لأغراض منحرفة وغايات باطلة ممَّا اعتاده بعض أهل البدع والضلال، بما في ذلك حكَّام الجور الذين يسعون لتطويع الناس مِن خلال استغلالهم نصوصًا دينيَّة في غير ما أرادها الشارع.

فأمَّا أهل البدع فإنَّهم يوجِّهون الأحاديث لتزيين باطلهم وتضليل الناس عن الحقِّ، كونهم ممَّن **قال الله تعالى فيهم**: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾[1].

(1) آل عمران: 7.

وأمَّا أهل السلطان فإنَّهم يوجِّهون الأحاديث لأغراضهم ومصالحهم، بما يستحلُّون به الدماء أو الأعراض أو الأموال، كي يدفعوا بها في وجوه مَن يعترضهم مِن العلماء أو العامَّة. **وعندما قال الحجَّاج بن يوسف الثقفي** لأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حدِّثني بأشَدِّ عقاب عاقبه النبيُّ ﷺ؟ فحدَّثه بحديث العُرنيِّين؛ فبَلَغَ ذلك الحسن البصري، فقال: "ودِدتُ أنَّه لم يُحدِّثه بهذا"[1]. **وقد نُقِل عن** أنس بن مالك أنَّه قال: "ما ندمت على شيءٍ ما ندمت على حديث حدَّثته الحجَّاج". وإنَّما ذلك لأنَّ الحجَّاج كان مسرفًا في العقوبة، وكان يتعلَّق بأدنى شبهة[2].

– ردَّات فعل البعض إزاء المتكلِّم بها، والتي قد تصل إلى تكذيبه ونبذه وربَّما حدَّ الفتك به:

فهذه الأحاديث التي كان يخصُّ بها الرسول ﷺ بعض أصحابه، أو هم يسألونه عنها ابتداء عناية بها، كما هو حال حذيفة بن اليمان، فلم تكن مبثوثة ومنشورة، وإنَّما يذكرها رسول الله في خاصَّة أصحابه؛ لهذا فإنَّ ذكرها لعموم الناس، ممَّن يجهلها ويرى فيها تناقضًا مع بعض ما يعلمه، فيما يظنُّ، يدفعهم لاستنكارها ونفيها، وربَّما تخطئة قائلها أو تكذيبه، وفي أحوال معيَّنة إذا مسَّت أمورًا خاصَّة قتله.

فقد حدَّث محمَّد بن جبير بن مطعم أنَّه بلغ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو عنده في وفدٍ مِن قريش، أنَّ عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحدِّث أنَّه سيكون مَلِكٌ مِن

(1) البخاري، رقم: (5685).

(2) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ج10/ 149.

قحطان، فغضِبَ فقامَ فأثنى على الله بما هو أهله، ثمَّ قال: أمَّا بعد فإنَّه بلغني أنَّ رجالًا مِنكم يُحدِّثون أحاديث ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ، وأولئك جُهَّالكم، فإيَّاكم والأماني التي تضلُّ أهلها، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ هذا الأمر في قُريش، لا يُعاديهم أحدٌ إلَّا كبَّه الله في النَّار على وجهه، ما أقَامُوا الدِّين)[1].

وقد حدَّث المستَورِد بن شدَّاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في حضرة عمرو بن العاص، أنَّ النبي ﷺ قال: (تَقُومُ السَّاعة والرُّومُ أكثَر النَّاس). فقال له عمرو: ما هذه الأحاديث الَّتي تُذكَرُ عنك أنَّك تقولها عن رسول الله؟ وفي رواية: أبصر ما تقول! فقال المستَورِد: قُلتُ الذي سَمِعتُ مِن رسول الله. فقال عمرو: (لئِن قُلتَ ذلك، إنَّ فيهم لخصالًا أربعًا..) الحديث[2].

لهذا كان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول:** "حَفِظت مِن رسول الله ﷺ وعاءين، فأمَّا أحدهما فبَثَثتُه في النَّاس، وأمَّا الآخر فلو بَثَثتُه لَقُطِعَ هَذَا البُلعُوم"[3]، **ويقول:** "لو أَنبَأتُكم بكُلِّ ما أعلَم لرمَانِي النَّاس بالخَرقِ، وقالوا: أبو هرَيرَة مَجنُون"، **وفي رواية:** "لو حدَّثتُكم بكلِّ ما في جوفي لرَمَيتُموني بالبعرِ"، **وقال الحسن البصري،** رَاوِي الأثر عنه: "صَدَقَ والله.. لو أَخبَرنا أنَّ بَيتَ الله يُهدَمُ ويُحرَقُ ما

(1) البخاري، رقم: (7139).

(2) مسلم، رقم: (2898).

(3) فتح الباري، لابن حجر: ج1/ 227، وسير أعلام النبلاء، للذهبي: ج1/ 430.

صدَّقَه النَّاس"[1]، وفي رواية قال: "يقولون أكْثرتَ يا أبا هُريرة. والَّذي نفسي بِيَدِه أن لو حدَّثتُكم بكلِّ شيءٍ سمعتُه مِن رسول الله لرَمَيتُموني بالقشعِ [يعني بالمزَابِلِ]، ثمَّ ما ناظرتُمُوني"[2].

وأغلب الظنِّ أنَّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يحدِّث بحديث: (هَلاكُ أُمَّتي علَى يَدَي غِلمَةٍ مِن قُرَيشٍ)، وقد قال له مَروان [بن الحَكَم بن أبي العَاص بن أُمَيَّة]: غِلمَة؟ قالَ أبو هريرة: إن شِئتَ أن أُسَمِّيَهم.. بني فُلانٍ وبني فُلانٍ[3]؛ خوفًا على نفسه أن يُقتل.

أحاديث الفتن.. بين الإفراط والتفريط:

اهتمَّ النبي ﷺ بإبلاغ وبيان وتوضيح الأحاديث المتَّصلة بالدين، والمتعلِّقة بالعقيدة والشريعة والأخلاق، كأحاديث الغيب والإيمان والعبادات والحلال والحرام والأحكام والمعاملات وأخلاق المسلم، وكلِّ ما يتعلَّق بدين العباد الذي لا تصلح أحوالهم الدينية والدنيوية إلَّا به، ويحاسبون عليه في آخرتهم.

كما اهتمَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالمسائل والقضايا المتعلِّقة بالدين، عقيدة وشريعة وأخلاقًا، لأنَّ عباداتهم ومعاملاتهم وفلاحهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة مرهونة بها، وقليل مِنهم مَن اهتمَّ بأحاديث الفتن وأخبار آخر الزمان،

(1) الطبقات، لابن سعد: القسم (2)، ج4/ 57 وج2/ 119.

(2) أحمد في مسنده: ج16/ 563.

(3) البخاري، رقم: (3605).

وكان حذيفة بن اليمان مِن هؤلاء، فقد ورد عنه قوله: "كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافَة أن يُدرِكَني"[1]، كما أنَّ ما علمه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يبُثَّه كلَّه، كما سبق معنا.

ومع وقوع الفتنة زمن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتوسُّع النزاع والصراع بين فئات الأمَّة، وظهور التوظيف السياسي للنصوص الدينية في وقت مبكِّر انتصارًا للذات أو الآراء الخاصَّة، زاد التحفُّظ على إيراد أحاديث الفتن. **وقد ثبت** أنَّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (هَلَكَةُ أُمَّتي علَى يَدَي غِلمَةٍ مِن قُرَيشٍ). فقال مَروان بن الحكم (وكان والي المدينة لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): لَعنَةُ الله عليهم غِلمَة. فقال أبو هريرة: "لو شِئتُ أن أقُول: بَني فُلانٍ وبَني فُلانٍ لَفَعَلت". فقال عَمرُو بن يَحيَى بن سعيد بن عَمرِو بن سعيد بن العاصي بن أُمَيَّة: "فَكُنتُ أخرُجُ مع جَدِّي إلى بَني مَروان حِين ملكوا بالشَّام، فإذا رَآهم غِلمانًا أحداثًا، قال لنا: عسى هؤُلاءِ أن يكونوا مِنهم؟ قُلنا: أنت أعلمُ"[2].

ومِن المعلوم، مِن الخبرة البشرية، أنَّ الأخبار التي يُستسرُّ بها ويخفى شأنها تصبح عرضة للزيادة والنقص، والتعديل والتبديل، خلافًا للأخبار المتواترة المشهورة التي تتلقَّاها الأجيال بشكل ظاهر ومعلن ومنتشر. ولهذا، فإنَّ معظم أحاديث الفتن وهي أحاديث آحاد دخل عليها الكثير مِن التحريف، والاصطناع الوضعي. **ورغم هذا اهتمَّ علماء الحديث** بجمع كلِّ ما نسب للرسول ﷺ مِن

(1) البخاري، رقم: (7084)؛ ومسلم، رقم: (1847).

(2) البخاري، رقم: (7058)؛ ومسلم، رقم: (2917).

أحاديث وآثار، ما كان في أبواب الدين وما كان خارجها. وكانت أحاديث الفتن ممَّا اهتمَّ به العلماء مِن نصوص السنَّة النبوية؛ وأفردت لها الأبواب وربَّما الكتب.

وإذا ثبت أنَّ علماء الأحاديث تساهلوا في رواية الأحاديث في أبواب الفضائل والترغيب والترهيب والرقاق والزهد، وفق منهجيَّة تلتزم عدم مخالفتها لأصل عقدي، أو نقضها لقاعدة أو حكم فقهي، أو تضادَّها مع مقرَّرات العقل والحسِّ والسُّنن الكونية، وألَّا يثبت كذبها ووضعها على صاحب الرسالة، باعتبارها ممَّا لا يتشدَّد فيه، حتَّى ألَّف البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتبًا في الأدب والرقاق ولم يلتزم فيها بشرط كتابه الصحيح، بل روى فيها بما لا يُلائم شرطه في الصحيح، وتساهل في أسانيدها، ما لم يتساهل فيه، بل وروى في بعض أبوابها ما أشار له بالضعف، فإنَّ أحاديث الفتن أولى بهذا النهج.

فأحاديث الفتن بحاجة إلى قواعد خاصَّة في الجمع والتدقيق والتحقيق والنقد، للاعتبارات التي سبق الإشارة لها. وهي أولى بالرواية، حتَّى يثبت تحقُّقها، مِن نصوص أهل الكتاب، التي أجاز رسول الله روايتها، كما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسول الله ﷺ: (وحَدِّثُوا عن بَنِي إِسرَائِيلَ ولَا حَرَجَ)[1]، **وعن** أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ أهلَ الكِتاب كانوا يَقرَؤُون التَّورَاةَ بالعِبرَانِيَّة ويُفَسِّرُونها بالعربيَّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكِتَابِ ولا تُكَذِّبُوهُم، وقُولوا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا

(1) البخاري، رقم: (3461).

...الآية ﴿[1][2]، هذا برغم تحريفهم لكتبهم، ودسِّهم فيها الكثير مِن الكذب.

وروايتها حتَّى يقع تأويلها، دون تكلُّف لإيقاعها، وتوظيف لها في النزاعات والصراعات وترجيح موازين القوى، شيء، وتنزيلها تكلُّفًا على الوقائع أو توظيفها شيء آخر. فكما أنَّ أحاديث العقيدة والشريعة لا يضعفها التطبيق السيء أو التوظيف الخاطئ إذا ثبتت فكذلك أحاديث الفتن وآخر الزمان. كما أنَّ تحريف أهل الكتاب لصفة نبي آخر الزمان، وعبثهم بنصوصه، لا ينفي ولا يلغي ورودها في كتبهم، التوراة والإنجيل.

ختامًا:

نخلص إلى أنَّ أخبار الفتن لم تُعامل مِن قبل الرسول ﷺ معاملة العقيدة والشريعة وما يتَّصل بقضايا الدين، ولم تكلَّف بها الأمَّة حفظًا ونشرًا بصيغة ملزمة؛ وظلَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتعاملون معها في دائرة ضيِّقة، لأنَّه لا يبنى عليها إيمان وكفر، وطاعة وعصيان؛ وأنَّ بعضها حلَّ عليه النسيان نتيجة لذلك، وقليل مَن واظب على حفظ ما بلغه مِنها.

كما نخلص إلى أنَّ هناك عوامل مختلفة ساهمت على كتمانها أو إخفائها، خوفًا مِن حاكم جائر، أو مِن فهم أعوج للعامَّة والغوغاء، أو مِن توظيف فئوي لصالح نوايا ومطامع خاصَّة؛ وأنَّ هذه العوامل التي عملت على إخفاء أو كتمان

(1) البقرة: 136

(2) البخاري، رقم: (4485).

أحاديث الفتن تستدعي تعاملًا مغايرًا معها، يختلف عن التعامل المتَّبع مع أحاديث العقيدة والشريعة وأمور الدين التي كلِّف بها الفرد والمجتمع المسلم.

وأشبه ما تكون هذه الأخبار بنصوص أهل الكتاب، التي لها أصل صحيح، لكن غلب عليها التحريف بزيادة أو نقصان أو تبديل وتغيير، لظروف ذاتية وموضوعية وظرفية. لهذا، لم يأمر الشرع بإنكارها كلًّا، ولا بقبولها كلًّا، وإنَّما وزنها بميزان التدقيق والتحقيق والقياس، نازعًا عنها أن تكون هي المرجع والحكم، بل جعل نصوص الشريعة هي المرجع والحكم عليها جميعًا. كما أنَّها تشبه أحاديث الفضائل والآداب والترغيب والترهيب والرقاق التي لم يشدِّد علماء الأمَّة بشأنها، كونها تخدم قيم ومبادئ الدين، ولا يقوم عليها اعتقاد أو شرع، وكذلك أخبار المغازي التي دخل فيها ما دخل مِن المرويَّات، ثمَّ جاء مَن وضع لها منهجيَّة علمية موضوعية للتعامل معها، مِن خلال معايير لا تتوقَّف على الإسناد، بل مِن خلال المقارنة والفحص واعتبار السياقات والظروف المصاحبة وغيرها مِن اعتبارات.

"عين حمئة".. فتوحات ذي القرنين غربًا

تمهيد:

تحتلُّ قصَّة "ذو القرنين" مكانة عظيمة في سورة الكهف، والتي تحتلُّ بدورها مكانة عظيمة في القرآن الكريم، حتَّى أنَّه شُرِع قراءتُها كلَّ يوم جمعة مِن الأسبوع. وهذا يعني أنَّ العقل المسلم سيظلُّ عبر الزمن باحثًا عن الأسئلة التي ستُثار في ذهنه حول قصص هذه السورة، أشخاصها ومواقعها وأحداثها وعبرها ودروسها، إذ المسلم مدعوٌّ للتدبُّر والتفكُّر والنظر. وبما أنَّ قصص القرآن الكريم قصص حقيقي، غير خيالي، فإنَّ أشخاص وأحداث قصَّة "ذو القرنين" لا بدَّ وأن ترتبط بمملكة عظيمة ذات أثر وحضور واسع، يمتدُّ إلى زمن خروج يأجوج ومأجوج، إذ أنَّ العلوم والأسباب التي امتلكتها تلك الدولة جعلت مِن آثارها شواهد خالدة على عظم الفعال والعمران. ولعلَّنا نكشف بعضًا مِن غوامض هذه القصَّة التي أبهمت أسماء شخوصها ومواقعها دون ملامحها وعلاماتها، مِن خلال التأمُّل والتحليل والربط والاستنتاج.

في هذه الأسطر سوف أتناول إحدى العبارات المبهمة في القصَّة بالتحليل والربط والاستنتاج، **وهي قوله تعالى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾[1].

(1) الكهف: 86.

لماذا عين، ولماذا حمئة؟!

ابتداء ينبغي تصوُّر المشهد الذي وصل إليه ذو القرنين وجيشه، وهو يقود حركة الفتوحات مِن مملكته باتِّجاه الغرب. حيث سار في أقصى مدى لحركته هو، إلى أن وصل أفقًا تغرب فيه الشمس في "عين حمئة"، ومعنى "في" هنا أي عندها، لا أنَّها تغيب داخلها، كما هو قول جميع المفسِّرين، إذ لا يستقيم حسًّا ولا عُرفًا ولا عقلًا أن تغيب الشمس في عين بالأرض. وكلمة "عين" هنا لا تعني "النبع" المعروف في العادة، إذ لا يمكن أن يكون هذا هو المشهد المقصود، لذا اتَّفق أهل التفسير على أنَّ المقصود بعين هنا بحر.

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في تفسيره: "إنَّ ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب، ولم يبق بعده شيء مِن العمارات، وجد الشمس كأنَّها تغرب في عين وهدة مظلمة، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أنَّ راكب البحر يرى الشمس كأنَّها تغيب في البحر إذا لم ير الشطَّ، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبَّائي في تفسيره"، **ثمَّ قال:** "إنَّ للجانب الغربي مِن الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيَّل كأنَّها تغيب في تلك البحار، ولا شكَّ أنَّ البحار الغربية قوية السخونة، فهي حامية، وهي أيضًا حمئة لكثرة ما فيها مِن الحمأة السوداء والماء، **فقوله:** ﴿تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ إشارة إلى أنَّ الجانب الغربي مِن الأرض قد أحاط به البحر، وهو موضع شديد السخونة". **وقال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في تفسيره: "وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ

﴿ٱلشَّمۡسِ﴾، أي: فسلك طريقًا حتَّى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه مِن الأرض مِن ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأمَّا الوصول إلى مغرب الشمس مِن السماء فمتعذِّر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار مِن أنَّه سار في الأرض مدَّة والشمس تغرب مِن ورائه فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك مِن خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم. **وقوله:** ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كلُّ مَن انتهى إلى ساحله، يراها كأنَّها تغرب فيه".

إذن المقصود بالعين هنا البحر. وملك ذي القرنين كان في العالم القديم، أي في إحدى القارَّات الثلاث، آسيا أو أفريقيا أو أوربَّا، أو في منطقة بينها. وتعيين الغرب والشرق إنَّما هو أمر نسبي، بحسب موقع الإنسان في ذلك العالم القديم، فمغرب الشمس بالنسبة له ومطلعها يختلف باختلاف الموقع الجغرافي له، وحركة الإنسان حوله. وأقصى ما يمكن أن يصله حاكم في أرض ما جهة الغرب قد يكون أقصى ما يكون شرقًا لحاكم آخر. **ولهذا لـمَّا أخبر رسول الله** ﷺ عن ملك أمَّته، أشار إلى أنَّ مقدار ما سيبلغه ملك أمَّته بمقدار ما زُويَ له مِنها: (إنَّ اللهَ زوَى لي الأرضَ، فرأَيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيبلغُ مُلكُها ما زوَى لي مِنها)[1].

ومعنى ﴿حَمِئَةٖ﴾ بحسب أقوال المفسِّرين إمَّا حارَّة ساخنة، وإمَّا سوداء داكنة. ومِن المعلوم بالإدراك الحسِّي أنَّه لا توجد بحار حارَّة ساخنة بهذا

(1) مسلم، رقم: (2889)؛ وسنن أبي داود، رقم: (4252)؛ وسنن الترمذي، رقم: (2176)، باختلاف يسير.

المعنى، ذلك أنَّ ارتفاع درجة حرارة البحار يعني هلاك كثير مِن الكائنات البحرية، وإن تأثَّر سطحها بحرارة الشمس صيفًا، إلَّا أنَّها سمة للبحار عمومًا، إذ تعمل الشمس على تسخين سطح مياه البحار والمحيطات. وبالتالي، لم يبق إلَّا أنَّ المعنى هو الظلمة أو دكانة لون البحر.

البحر الأسود.. والعين الحمئة:

تشير تفسيرات عدَّة بأنَّ وصف "البحر الأسود" بهذا الاسم يعود إلى اللون الداكن لمياهه أو لظروفه المناخية التي تسودها الغيوم الداكنة والتي ينعكس أثرها على لون البحر. ويُقال إنَّ الأتراك هم مَن أطلقوا عليه هذه التسمية. وأُطلق عليه عند البلغار والرومانيين اسم "البحر الكئيب" أو "البحر المظلم".

وتشير الوثائق التاريخية، وفقًا لما ذكره موقع "Marine Insight"، المتخصِّص بالبحار والملاحة فيها، إلى أنَّه أطلق على البحر الأسود، خلال فترة الإمبراطورية العثمانية، أسماء مثل بحر "سِياه- Siyah" أو "كارادينيز- Karadeniz"، والكلمتان تعنيان "الأسود" باللغة التركية العثمانية. أمَّا سبب إطلاق الأتراك هذا الاسم عليه، فتشير إحدى الفرضيَّات إلى أنَّ البحر يتعرَّض لكثير مِن العواصف خلال الشتاء، ما يجعل السحب الكبيرة فوقه تحجب أشعَّة الشمس، وهو ما يجعل مياهه تبدو سوداء اللون. أمَّا التفسير الآخر المحتمل فهو أنَّ البحر الأسود أقلُّ ملوحة مِن البحار الأخرى، ما يزيد مِن تركيز الطحالب الدقيقة التي تحوِّل البحر إلى اللون الداكن. وإذا أردنا مقارنته ببحر آخر، فإنَّ

متوسِّط الرؤية في البحر الأسود يبلغ نحو (5) أمتار فقط، بينما يبلغ نحو (35) مترًا في البحر الأبيض المتوسِّط، وفقًا لما ذكره موقع "New World Encyclopedia"[1].

ويؤكِّد مركز "سميثسونيان" لتدريس العلوم (SSEC)، بأنَّ السبب الأوَّل لتسمية البحر الأسود بهذا الاسم هو أنَّ لون مياهه يصبح داكنًا، ويميل إلى السواد، بسبب العواصف الشديدة في فصل الشتاء، وأنَّ السبب الثاني هو أنَّ مياهه تحتوي على كميَّات وفيرة مِن كبريتيد الهيدروجين، الذي يُغطِّي الحيوانات والنباتات الميِّتة في القاع بطبقة سوداء، ما يجعل لون البحر أسودًا[2].

أمَّا الإغريق فقد سمَّوه "بنطس آكسينوس – Pontus Axeinus"، أي البحر "غيرُ المضياف"، وذلك لصعوبة الملاحة فيه، وربَّما ساعد في ذلك وجود قبائل "متوحِّشة" على شواطئه[3]. وهو الأمر ذاته الوارد في موسوعة "سترابو" الجغرافية، مِن أنَّ البحر الأسود كان يُطلق عليه "البحر غير المضياف"، نظرًا إلى صعوبة الملاحة فيه وطبيعة السكَّان البرابرة العدائيين الذين كانوا يستوطنون حوله.

إذن، فإنَّ أقصى ما وصل إليه ذو القرنين، في فتوحاته غربًا، هي منطقة مطلَّة

---

(1) إسطنبول وسوتشي وأوديسا أبرز المُدن المطلَّة عليه.. "البحر الأسود" وسبب تسميته، نوّار كتاو، عربي بوست، في: 8/ 7/ 2022م، على الرابط التالي: https://2u.pw/2qjBW

(2) سبب تسمية البحر الأسود.. السر في قاع المياه، آية الله الجافي، صحيفة الوطن، في: 3/ 3/ 2024م، على الرابط التالي: https://2u.pw/ovt5T

(3) البحر الأسود، الجزيرة نت، في: 13/ 8/ 2023م، على الرابط التالي:

https://2u.pw/ddqjX

على البحر الأسود، حيث الارتباط بأوربَّا، ولتأمين جناب مملكته مِن البرابرة الذين كانوا يعيشون غربيَّها. وهذا ما يُفسِّر قوله تعالى له: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾[1]، وهذا خلاف برابرة وهمج الشرق الذين سيواجههم بإتمام بناء الثغرة بين السدَّين.

فـ"عين حمئة" تعني "بحر مظلم"، أو "بحر داكن"، وفي كلا الحالتين يتطابق الوصفان مع حقيقة البحر الأسود، فهو مظلم مِن جهة أنَّه غالب الشهور يشهد سحبًا وغيومًا ركامية، تحجب ضوء الشمس عنه، وهو داكن مِن جهة طبيعة اللون الذي يكتسبه نتيجة الطحالب والرواسب فيه.

هذا الأمر يجعلنا نميل إلى أنَّ ذا القرنين هو "كورش الأكبر" أو "قورش الأكبر" مؤسِّس الإمبراطورية الإخمينية، إذ بلغت فتوحاته أجزاء واسعة مِن العالم القديم، انطلاقًا مِن أرض فارس، وهو ما يعني أنَّ حركته شرقًا وغربًا كانت محكومة بوسطية فارس كمنطلق لحركته. والإمبراطورية الإخمينية إمبراطورية عظيمة، تأسَّست على التوحيد والعدل، والنظام والعمران، وآثارها لا تزال خالدة حتَّى اليوم، ما يشير إلى أثر سياسة الأخذ بالأسباب والعلوم التي اعتمدها "كورش الأكبر" في مملكته. كما أنَّ تاريخ "كورش الأكبر" مرتبط بإنقاذ يهود مِن الإمبراطورية البابلية التي اعتدت عليهم واستباحت مقدَّساتهم، فكان مِن الطبيعي جدًّا أن يسأل اليهود بالمدينة رسول الله ﷺ عن هذا الملك الذي أسهم في تحريرهم وإنقاذهم قبل مجيء المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بقرابة (530)

(1) الكهف: 86.

عامًا تقريبًا. وإلَّا فإنَّ سؤال يهود عن ملك لا وجود له في ثقافتهم، ولا في وجدانهم، ولا في وعيهم الجمعي، غير ذي معنى وفائدة.

وقد أشارت التوراة إليه في عدَّة مواطن، منها: "هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ، لِكُورَشَ، الَّذِي أَمسَكتُ بِيَمِينِهِ، لأَدُوسَ أَمَامَهُ أُمَمًا، وَأَحقَاءَ مُلُوكٍ أَحُلُّ، لأَفتَحَ أَمَامَهُ المِصرَاعَينِ، وَالأَبوَابُ لاَ تُغلَقُ"، "أَنَا أَسِيرُ قُدَّامَكَ والهِضَابَ أُمَهِّدُ، أُكَسِّرُ مِصْرَاعَي النُّحَاسِ، وَمَغَالِيقَ الحَدِيدِ أَقصِفُ"، "وأُعطِيكَ ذَخَائِرَ الظُّلمَةِ وَكُنُوزَ المخَابِئِ، لِكَي تَعرِفَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يَدعُوكَ بِاسمِكَ، إِلهُ إِسرَائِيلَ"[1].

لقد كان لفتوحات "كورش الأكبر" شرقًا أثر في تحرير اليهود وعودتهم إلى فلسطين، حيث أصبحت بلاد الأناضول والعراق والشام ومصر، وما حول هذه البلدان، خاضعة لحكم الإمبراطورية الإخمينية، فأمن أهل الأديان على أنفسهم في ظلِّها، ولهذا يمتدح اليهود الملك "كورش الأكبر"[2].

(1) العهد القديم، أشعيا (45: 1 – 3).

(2) **يرجع في هذا الشأن إلى ما كتبه العالم الهندي**، أبو الكلام آزاد، عن "شخصية ذي القرنين المذكورة في القرآن"، منشورات دار البصري، بغداد– العراق؛ وأصله حاشية طويلة كتبها أبو الكلام آزاد في كتابه "ترجمان القرآن"، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسأَلُونَكَ عَن ذِي القَرنَينِ﴾ وقد أفردت بالترجمة. وقام بنشرها د. عبد المنعم النمر في ملاحق رسالته للدكتوراه، والتي كان عنوانها: "مولانا أبو الكلام آزاد حياته وجهاده الديني والوطني في سبيل تحرير الهند"، والمقدَّمة لقسم التاريخ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر. انظرها على الرابط التالي:
https://archive.org/details/20200916_20200916_0420

الفصل الثالث

مع الواقع والأحداث

وفيه:

- الوحدة اليمنية.. ضرورة الوجود وحتميَّة البقاء.
- سوريا.. المأساة والأمل والدرس.
- طوفان الأقصى.. بين فلسطين واليمن.
- جزاء الصادقين بين يوم الفرقان ويوم الطوفان.
- هل انتصرت المقاومة؟
- هل الحكَّام "عقاب اللّه"؟!

ينزل هذا الفصل إلى ساحة الواقع حيث تتشابك الدماء والأسئلة، فيقرأ قضايا اليمن وفلسطين وسوريا قراءة تستحضر السنن وتزن الحدث بآثاره ومعانيه. وفيه تأمّل في النصر والخذلان، والصدق والابتلاء، ومسؤولية الموقف حين يضيق الأفق وتشتد المحنة.

الوحدة اليمنية.. ضرورة الوجود وحتميَة البقاء

الحديث عن الوحدة اليمنية، في ضوء وحدة 1990م والتجربة اللَّاحقة لها، بما اكتنفها مِن ظروف وملابسات، وما أحاطها مِن سياقات وأبعاد، هو اختزال يراد مِنه قتل المبدأ، وتشويهه، لصالح برامج وأهداف خاصَّة، بعيدًا عن أيِّ رغبة في الإصلاح أو التَّصحيح، أو البناء على المكتسبات.

خاصَّة وأن الذين يتمسَّكون بخيار الانفصال لا يقدِّمون أيَّ نموذج مثالي، لا في البعد السَّابق للوحدة، ولا في البعد الحاضر مِن الممارسات. بل الغالب في القوى الدَّاعية للانفصال تلبُّسها بذات الإشكالات التي رافقت النَّخب السياسية بعد الوحدة، فالفساد الإداري والمالي والوظيفي، والعنصريَّة القبليَّة والمناطقية، وخطاب الشَّحن العُصبَوي ضدَّ كلِّ مخالف يسود اليوم مساحة هؤلاء فيما بينهم، وفيما بينهم وأبناء الجنوب ممَّن لا يوافقهم آراءهم.

الوحدة السياسية قبل أن تكون قرارًا سياسيًّا اتَّخذته قيادة الحزب الاشتراكي اليمني في الجنوب، والمؤتمر الشعبي العام في الشمال، لأغراضهم الخاصَّة، وهروبًا مِن مقتضيات المرحلة، هي بالأساس استجابة لشعور شعبي تنامى رغم كلِّ محاولات التَّقسيم والتَّشطير، وخاصَّة بعد التَّحرُّر مِن الحكم الإمامي الكهنوتي، والاحتلال الأجنبي الغاشم.

وعليه فإنَّنا ينبغي أن نتحدَّث عن الوحدة اليمنية في إطارها الأسمى ورابطها الأقوى وجذرها الأعمق؛ فـ"الوحدة اليمنية" تتمثَّل في:

وحدة الأرض والجغرافيا: فالوطن الذي نتحدَّث عنه، ليس صنيعة نظام أو حكم، أو قبيلة أو طائفة، بل هو وطن متوارث، الكلُّ فيه شركاء، والتَّنوُّع الحاصل في جغرافيَّة اليمن، بين الصَّحراء، والجبال، والهضاب، والسُّهول، والسَّواحل، هو امتزاج بين ملامح الطَّبيعة والإنسان اليمني الذي تمدَّد على ظهرها، معدِّدًا وظائفه واهتماماته ومناشطه الاقتصادية والحياتيَّة. وهو ما جعله وطنًا متكامل الأدوار والوظائف.

وحدة الإنسان: فالمجتمع الذي سكن اليمن تربطه أواصر النَّسب والمصاهرة، والتي تشكَّلت عبر قرون مِن التَّاريخ. صحيح أنَّ اليمن موئل القبائل العربيَّة منذ فجر التَّاريخ، كما هو حال جزيرة العرب، إلَّا أنَّ هذا لا يمنع مِن تداخل العديد مِن الأعراق والأجناس في نسيج المجتمع اليمني عبر التَّاريخ، نظرًا لعوامل سياسيَّة واقتصاديَّة وثقافيَّة مختلفة. وقد كان المجتمع اليمني في كثير مِن الأزمنة مجتمعًا مضيافًا، ومنفتحًا، ومتعايشًا، وهو ما جعله مجتمعًا متنوِّع الأعراق.

وحدة التَّاريخ: وجود مجتمع ما، على رقعة جغرافيَّة ما، يصهره في بوتقة الزَّمن، حيث تشكِّله الظُّروف والأحداث وتعمل على صياغته صياغة صلبة متينة، فتصبح ذاكرته التَّاريخيَّة موحَّدة، وشخصيَّته القوميَّة متآلفة في معظمها، كنسيج واحد حاكته يد حائك ماهر الصِّنعة. وكثيرًا ما تنزع المجتمعات إلى التَّاريخ لتوجد جذورها المشتركة للالتقاء والتَّوحُّد. وها هي اليوم أوربَّا تستدعي تاريخها، والدُّول التُّركيَّة تستدعي تاريخها، والعرب يستدعون

تاريخهم، فالتَّاريخ عامل رابط وجامع.

وحدة العادات والتَّقاليد: تنتج العادات والتَّقاليد في أيِّ مجتمع ضمن تفاعلات دينه، وشخصيَّته، وثقافته، وبيئته التي يعيش فيها، إذ تمثِّل ترجمة لتمازج هذه العناصر مع بعضها البعض، في صيغة متوارثة جيلًا بعد جيل. لهذا يصبح تكيُّف الأفراد مع محيطهم الاجتماعي في أبعاده الوطنيَّة ممكنًا، حيث لا يشعر أبناء الحديدة بغربتهم في حضرموت، ولا أبناء صعدة بغربتهم في إب، ولا أبناء تعز بغربتهم في شبوة، وهكذا. لذلك فحركة الهجرة الدَّاخليَّة بحثًا عن العمل أو التَّعليم أو السُّكنى شكَّلت أحد أبرز التَّحوُّلات البارزة بعد الوحدة، حيث أصبح الشَّماليون جزءًا مِن مجتمع الجنوب، وأصبح الجنوبيُّون جزءًا مِن مجتمع الشَّمال، دون شعور بالاغتراب.

إذن، فالوحدة اليمنية وحدة راسخة، في الوجدان والشُّعور، وفي السُّلوك والمظاهر، وفي الذَّاكرة والضَّمير، وإنَّما جاء القرار السياسي، في 22 مايو 1990م، ليكشف مدى هذا الرُّسوخ، إذ لم يُعلن أيُّ طرف ديني، أو سياسي، أو اجتماعي، أو ثقافي، رفضه للوحدة كمبدأ. حتَّى موقف علماء اليمن في تلك المرحلة كان رفضًا للدُّستور "العلماني" الذي فرض الاشتراكيون صيغته، أكثر مِنه رفضًا للوحدة كمبدأ، وهو ما تؤكِّده مواقفهم مِن الوحدة لاحقًا. لذلك، عاش اليمنيون فرحة الوحدة، وأنشدوا لها، وتغنَّوا بها، وتفاخروا بإنجازها، وتسابقوا في السياحة في وطنهم الجديد طولًا وعرضًا، تأكيدًا على شوقهم وشغفهم بوطنهم العزيز.

وإذا كان هناك مِن فشل أو خلل واكب الوحدة كتجربة سياسيَّة فهو مِن النُّخب السياسية الحاكمة، التي أدمنت حبَّ السلطة، وشهوة الصِّراع، وغريزة الطَّمع، فذهبت تتنافس على المناصب والمكتسبات والنُّفوذ. أمَّا الشَّعب فقد سار في وحدته دون تراجع، ينسج روابط النَّسب والمصاهرة والإخاء، والتَّعاون والشَّراكة الاقتصادية، دون أي اعتبار للمنطق السياسي.

يقولون: الوحدة لا تفرض بالقوَّة!

ويشيرون بذلك لحرب 1994م، وينسون أنَّ الوحدة قامت بالتَّراضي أساسًا عام 1990م، فمَن الذي ذهب لخيار القوَّة، الوحدويُّون أم الانفصاليُّون؟! **والسُّؤال الأهم:** وهل يُفرض الانفصال بالقوَّة؟! خاصَّة وأنَّه يوجد اليوم مَن يبني قدراته العسكريَّة ومليشيَّاته الخاصَّة لفرض هذا الخيار، دون أيِّ اعتبار لآراء أبناء الجنوب وإشراكهم في القرار!

ثمَّ لماذا يكذبون؟! حين يتمدَّحون بالسُّعودية (وهي نموذج ديني)، والولايات المتحدة (وهي نموذج علماني)، فقد قام البلدان على وحدة عُمِّدت بالسَّيف، فالملك عبدالعزيز أسَّس المملكة التي مزَّقتها السُّلطات المتناحرة بسيفه وعزمه وأتباعه، والولايات المتَّحدة لولا موقف "أبراهام لنكولن" تجاه تمرُّد (11) ولاية أمريكيَّة ضدَّ الاتِّحاد، وحسمه المسألة بقوَّة السَّلاح، لم يكن للولايات المتَّحدة الأمريكيَّة اليوم وجود على هذه الخارطة الكبيرة، بقوَّتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

وإذا كان فشل النِّظام السِّياسي كفيل بإنهاء الوحدة مع الشَّمال، فهل فشل النِّظام السِّياسي في الجنوب حتَّى 1990م كفيل بإنهاء الوحدة بين سلطنات الجنوب العربي؟! فنحن نعلم أنَّ النِّظام في الجنوب بعد حرب الاستقلال دخل في دورة صراعات بين الأجنحة، وصراعات مناطقية دامية، فهل يمكن اعتبار هذه الصُّورة القاتمة مستندًا لتفكيك الجنوب إلى دويلات ما قبل الاستقلال!

هذا منطق عبثي وهمجي وأعمى، لا يسنده عقل، ولا منطق، ولا خُلُق، ولا تسنده خبرة إنسانية، ولا عرف بشري. **لذلك نقول:** إنَّ منطق الانفصال اليوم لا يخضع لمعايير حقيقية بقدر ما هي أجندات خاصَّة وإقليمية ودولية، كلُّنا يعرف مَن يقف وراءها ويدعمها ويساندها.

أمَّا منطق الوحدة فهو منطق الجغرافيا والتَّاريخ والأنساب والعادات والتَّقاليد والقيم والمصالح المشتركة.

سوريا.. المأساة والأمل والدرس

سوريا المأساة:

منذ تمكُّن حزب البعث العربي، الذي تغلَّبت على قيادته العناصر النصيريَّة بقيادة حافظ الأسد، مِن حكم سوريا لم تر سوريا النور، ودخلت في سرداب مظلم مِن الظلم والإجرام، والفقر والخوف، وجمود الحياة العامَّة، وهيمنة القبضة الأمنية والاستخباراتية. وهي حالة كشفتها سجون النظام التي حرَّر الثوَّار أصحابها ليجدوا أناسًا دفنوا في الحياة، فخرجوا بعد أكثر مِن أربعين أو ثلاثين عامًا وهم لا يعرفون عن الواقع شيئًا أبدًا، وكأنَّما حُفِظت هياكلهم وأرواحهم في توابيت مغلقة لا ينفذ إليها الضوء والصوت.

وكانت ثورة الشعب السوري عام 2011م، عقب مذبحة حماة التي قام بها النظام في مطلع الثمانينيَّات مِن القرن الماضي، هي ثاني محطَّة لخبرة السوريين مع نظامهم الطائفي الإجرامي، الذي حارب حقوقهم ومصالحهم ووجودهم وهويَّتهم. فقد تعامل معها نظام بشَّار الأسد بالمذابح والقتل والتنكيل بمختلف الصور، مستقدمًا المرتزقة والمليشيات الطائفية مِن خارج سوريا لتركيع شعبه وتعذيبه، بل ذهب لإدخال احتلال أجنبي لروسيا، وتسبَّب في خلق فوضى أتاحت المجال لتدخُّل قوَّات احتلال دولي آخر، فسكنت القواعد العسكرية الروسية والأمريكية في سوريا، وتوزَّعت الجغرافيا الشامية وفق مصالحها ونفوذها.

ومرَّت قرابة (13) عامًا على الشعب السوري وهو يعيش أكبر مأساة مروِّعة، حيث استخدمت ضدَّه جميع الأسلحة المحرَّمة دوليًّا والفتَّاكة، بما في ذلك السلاح الكيميائي. ودمَّرت مدنه ومنازله ومصالحه، وهجِّر وشرِّد واعتقل وعذِّب واختطف الآلاف مِنهم دون رحمة أو نازع مِن ضمير. وللنجاة مِن هذه المأساة التي تسبَّب بها النظام لشعبه خرج السوريُّون فارين بأرواحهم، لتكتمل المأساة في المهجر شدَّة وشقاوة وموتًا يتخطَّفهم في طريق بحثهم عن الأمان، إمَّا غرقًا أو جوعًا أو برصاص حرس الحدود بالدول الأوربِّية.

سوريا الأمل:

لم ييأس السوريون رغم كلِّ ما حلَّ بهم، وظلَّ الكثير مِن أبنائها صابرين محتسبين، يكابدون المشاق وهم يتطلَّعون ليوم موعود سيحلُّ بنظامهم المجرم كما هي سنَّة الحياة. كافحوا وبنوا قدراتهم، سواء في المهجر أو في المناطق التي تمكَّنوا مِن تحريرها بأيديهم ومِن خلال انتزاعها بالقوَّة مِن النظام، وصمدوا وهم يحملون أحلامهم في جوانحهم.

وفي مهجرهم، أظهر السوريون كفاءتهم وقدراتهم ومواهبهم وذكاءهم، فانخرطوا في التعليم والعمل والتجارة والاستثمار، وحقَّقوا نجاحات عدَّة رغم الصعاب والعقبات، ولم يفقدوا الأمل في عودتهم لوطنهم وديارهم. وظلَّ السوريون يحملون همَّ أهلهم وإخوانهم في الداخل، حيث توقَّفت عجلة الحياة ومصادر العيش وتضاءلت قدرة المواطنين على مواجهة أعباء الاحتياجات نظرًا

لهبوط العملة وفشل الدولة، ما جعل كثيرًا مِن أسر الداخل تعتمد على أبنائها في الخارج. في حين كان أبناء المحرِّر يقدِّمون نموذجًا لسوريا المستقبل، سوريا البناء والتعمير والحرِّية والكرامة، سوريا التآخي والألفة والتعايش، سوريا الأمن والسلام.

ولكنَّ الأمل لا يتحقَّق دون تضحية وفداء، وهو ما جعل خيرة شباب ورجال سوريا يتدرَّب ويؤهِّل نفسه للمعركة الفاصلة، متسلِّحًا بالإيمان والهويَّة واليقين. ولسنوات عدَّة، قام شباب ورجال المحرَّر بالتدريب وبناء التحصينات وتصنيع أسلحتهم وذخائرهم، وابتكار الخطط وإبداع الوسائل، واختراق جبهة النظام مِن خلال الوصول إلى أبناء الشعب وتطمينهم على مستقبلهم ومصالحهم. وهو ما انعكس فعليًّا أثناء العمليَّات العسكرية التي بدأت مع نهاية شهر نوفمبر الماضي (2024م) لتحرير سوريا، انطلاقًا مِن مناطق الشمال، حيث تمكَّنت خلال أيَّام معدودة لتحقيق تقدُّم كبير جدًّا وغير مسبوق، وصولًا إلى فتح دمشق خلال أقلِّ مِن نصف شهر!

لقد تحرَّك الشباب في سوريا -بعد استلهام تجربة غزَّة- نحو الجبهات ببأس شديد وإرادة صلبة وعزيمة لا تخور، فانكسرت أمامهم الأغلال والقيود والحواجز، وذهبت هيبة النظام وأسلحته حيث أبدوا استعدادهم للشهادة أكثر مِن استعدادهم للبقاء!

علمتنا سوريا:

ما جرى في سوريا مِن أحداث لا يمكن أن تحيط بها كلمات وجمل، فهي كبيرة في معانيها وأبعادها وآثارها، وسوف تشكِّل منعطفًا في تاريخنا العربي والإسلامي، وستلهم شعوبنا العربية والإسلامية بدروس وعبر.

فقد علمتنا أحداث سوريا الأخيرة أنَّه لا مستحيل مع الإصرار، مع الثبات والجدِّ والاجتهاد، مع بقاء الأمل والعمل بلا ملل أو كلل، مع الصبر والنفس الطويل، مع التخطيط السليم والأخذ بالأسباب واغتنام الفرص.

علمتنا أحداث سوريا الأخيرة أنَّ الأرواح البريئة والأنفس الطيِّبة لا تذهب هدرًا، وأنَّ الله تعالى يتولَّى ثأرها والانتقام لها، فإنَّ الله تعالى مولى مَن لا مولى له، ونصير الضعفاء والمظلومين، وأنَّ قدرته تطول المتجبِّرين والمجرمين فتحصدهم حتَّى يكونوا كهشيم المحتضر.

علمتنا أحداث سوريا أنَّ الأنظمة الطاغوتيَّة المتجبِّرة لا تملك أسباب البقاء في ذاتها، ولا أسباب القبول في بيئتها، فهي لا تقوم على مصالح الشعوب، ولا توفِّر احتياجات المجتمعات، ولا تضمن حقوق النَّاس، فتكون مبتورة عن بيئتها لا يثبِّت أركانها غير القوَّة والبطش، فإن فقدا تهاوت كما تتهاوى قلاع الرمال مِن زحف مياه البحر الهادئة على الساحل.

علمتنا أحداث سوريا أنَّ الظالمين بعضهم أولياء بعض، فحين تقدَّمت قوى الثوَّار والأبطال للتحرير انتفضت أنظمة المنطقة التي كانت تهدِّد "بشَّار"

بالأمس للتحذير مِن الثوَّار، ونُصحِ "بشَّار" بما ينبغي عليه القيام به للحفاظ على بقائه وبقاء نظامه، فاتحة له أبواب النجاة إن رغب.

علمتنا أحداث سوريا أنَّ التجربة والخبرة كفيلة أن تحدث العظة والعبرة للعقلاء، كيما يتجاوزوا أخطاءهم ويراجعوا أفكارهم ويعدِّلوا مواقفهم ويغيِّروا سلوكيَّاتهم، وألَّا يجمدوا على حالهم البشري الاجتهادي فيجعلونه ثابتًا ومقدَّسًا إذا ظهر عواره وخلله وفشله في تحقيق المراد، فقد حسَّن الثوَّار وأحسنوا في طريقة ظهورهم وتحرُّكهم ومخاطبتهم للمجتمع السوري، بكلِّ فئاته وطوائفه وملله.

علمتنا أحداث سوريا أنَّ الحليف الصادق نعمة لا تقدَّر بثمن، وأنَّ المصير المشترك يفرض قدرًا مِن التعاون والتنسيق والتحالف، فتركيا التي عملت منذ وقت مبكِّر على استيعاب اللاجئين والمهجَّرين السوريين ظلَّت وفيَّة للقضية السورية، وتعمل وفق المتاحات الممكنة دبلوماسيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وأمنيًّا، ولمَّا وجدت الفرصة مواتية للسوريين تركت لهم حرِّية الحركة والتقدُّم نحو تحرير وطنهم وبلدهم المغتصب.

علمتنا أحداث سوريا أنَّ الحاكم العاجز يستعين على ظلم شعبه وإذلاله وإهانته بالأغراب والأجانب والدخلاء، وأنَّ الأقليَّات الطائفية (الشيعية) بعضها لبعض نصير وإن اختلفت مذاهبها، لأنَّها فاقدة لروح التعايش والتشارك والتعاون، فهي تحمل أحقادًا تاريخيَّة وضغائن عقائدية طائفية، ونفسيَّة عدوانية، وليس لديها مشروع بنائي وعمراني وتنموي وحضاري. فخلال العقدين الذين

هيمنت فيهما الطائفية الشيعية على بلداننا العربية لم تقدِّم شيئًا غير المليشيَّات والمذابح والانتهاكات، والفساد المالي والإداري والوظيفي، والعمالة للقوى الأجنبية الأمريكية والروسية، وتأمين العدو الصهيوني، فهو لم ير في الأسلحة الكيميائية والصواريخ البالستيَّة والبراميل المتفجِّرة خطرًا عليه إلَّا حين تقدَّمت القوى الثورية الحرَّة! ورغم حرب غزَّة التي استمرَّت لأكثر مِن عام لم يشارك نظام "بشَّار" المقاومة الفلسطينية أيَّ جهد حربي وعسكري رغم أنَّه تجرَّأ ضدَّ شعبه ومارس عليهم كلَّ ألوان الحرب!

علمتنا أحداث سوريا أنَّ الباطل والظلم أسرع زوالًا وانهيارًا، وأنَّ الكذب والدجل لا يطول أمده، فـ"محور المقاومة" الذي يمتدُّ مِن طهران وحتَّى بيروت لم يصمد أمام الكيان الصهيوني لأكثر مِن شهرين، فيما صمدت غزَّة وحدها لأكثر مِن عام وشهرين حتَّى الآن، دون مدد ولا سند، وعوضًا عن إسناد "حزب الله" في لبنان إزاء العدوان الإسرائيلي عليه تداعت الجماعات الشيعية للمنطقة لإسناد نظام "بشَّار" ضدَّ شعبه كي لا يسقط!

علمتنا أحداث سوريا أنَّ الربيع مهما تأخَّر قادم، وأنَّ الصبح مهما تباطأ قادم، وأنَّ الفرج بعد الشدَّة، واليسر بعد العسر، وأنَّ الحياة ليست لونًا واحدًا أو ظرفًا واحدًا، وأنَّ أقدار الله تعالى تضحك وتبكي، وتحزن وتفرح، وتوجع وتُرضِي، ذلك أنَّ دوام الإنعام على البشر يضعفهم ويفسد تأهُّلهم للعروج في درج الترقِّي والصعود، لهذا كان ولا بدَّ مِن البلايا والمعاناة التي تقوِّي إرادتهم وتشدَّ عزيمتهم وتوقظ نفوسهم.

علمتنا أحداث سوريا أنَّ الأمَّة لا زالت جسدًا واحدًا يتعاطف ويحنو على بعضه البعض، فأخبار الانتصارات إشرأبت لها نفوس المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، وتناقلتها مجالسهم وقنواتهم ورسائلهم، حتَّى أصبحت صور المعارك تغمر وسائل التواصل الاجتماعي ووسائط الاتِّصال المتعدِّدة، مِن المحيط إلى المحيط. وهذه الصورة مِن التجاوب والتفاعل مع أحداث سوريا تؤكِّد وحدة الأمَّة وتآلف قلوبها وتطلُّعها إلى يوم التحرير والخلاص في كلِّ أوطانها، فإنَّ الهمَّ واحد والقضية واحدة.

وبالله التوفيق.

طوفان الأقصى.. بين فلسطين واليمن

الحدث:

قيام حركة المقاومة الإسلامية حماس، في السَّابع مِن أكتوبر الماضي (2023م)، باختراق الحواجز الإسرائيلية والهجوم على المستوطنات القريبة مِن غزَّة، والقواعد العسكرية الرَّابضة على حدودها، وأسر ما أمكن مِن الصَّهاينة، والاشتباك مع الجنود الإسرائيليين، ثمَّ العودة إلى غزَّة.

الدَّوافع:

تساءلنا جميعًا ما هي دوافع حماس للقيام بعملية طوفان الأقصى في هذا التَّوقيت، بمعنى أنَّنا لا نتساءل عن لماذا تقاوم حماس المحتل وتسعى لتحرير فلسطين فهذا سؤال نتفق على إجابته، لأنَّ مقاومة العدو المحتل:

– منطق فطري مغروز في البشر والحيوان على حدٍّ سواء.

– منطق عُرفي تعارف عليه البشر وامتدحوه وجعلوه قيمة عليا لهم.

– منطق عقلي فلا يقبل العقل البشري أن يمنح ما يملكه هبة مِن الله لمَن يغتصبه مِنه.

– منطق عدلي فردُّ العدوان بعدوان مماثل مِن العدل والقصاص المأذون به.

– منطق المسئولية فالإنسان مسئول عن الدِّفاع عن أهله وماله ووطنه ودينه.

– منطق أخلاقي فمِن الأخلاق الإباء والنَّخوة والغيرة.

إذن نحن لن نتساءل ابتداء لماذا يقاوم الفلسطينيون عمومًا وحماس في مقدِّمتهم إسرائيل، فهذا محلُّ اتِّفاق العقلاء والنَّاس الأسوياء. نحن نتساءل هنا: لماذا قامت حماس بهذه العملية في هذا التَّوقيت بالذَّات؟

ولكي نجيب عن هذا السُّؤال ينبغي أن نقدِّم بين يدي الإجابة بهذا المقدِّمات:

1 – أنَّ الإنسان في إطار المعارك السِّياسية والعسكرية لا يمكن أن يُفصح عن كلِّ ما يعلم، وأن يفسِّر كلَّ ما يفعل، طالما وأنَّه يقوم بالأساس بما يجب عليه.

2 – أنَّ الفئة التي تقوم على ثغر مِن ثغور الإسلام، وتتصدَّى له سياسيًّا وعسكريًّا، هي بالأساس تتعامل مع الواقع، والمسلم إذا تعامل مع الواقع وتنزيل الأحكام الشَّرعية عليه إنَّما هو مجتهد (قد يصيب وقد يخطئ)، فهو (ليس معصومًا)، ومِن ثمَّ فهو كما جاء في الحديث بين الأجر (إذا أخطأ)، والأجرين (إذا أصاب). والمجتهد بالأساس يقدِّر ثلاثة أمور: الواقع الذي يعيشه، والشَّرع الذي يستند إليه، وتركيب الفتوى (أي تنزيل ما يعلم مِن الشَّرع على ما ينزل مِن الواقع).

3 – أنَّه ينبغي الالتفات حاليًّا لنصرة حماس وأهل غزَّة عمومًا، حتَّى مع افتراض وقوع خطأ في التَّقدير والاجتهاد، لأنَّ هذا هو الواجب اليقيني المتعيَّن، فأن نقول: إنَّ حماس أخطأت.. هو تقدير اجتهادي ظنِّي أيضًا مِنَّا، فقد يكون الصَّحيح عند الله تعالى أنَّها أصابت. فإذن ينبغي العمل بالمتيقن وهو نصرتهم ودعمهم وإسنادهم ورفدهم بالمال والأنفس والحيل والدَّعوات.

4 – أنَّ ما سنورده حول اختيار حماس لهذا التَّوقيت هو قراءة مِنَّا وليس علمًا قطعيًّا، ولا يعرف سبب قيام بحماس بهذه العملية في هذا التَّوقيت سوى قياداتها العسكرية والسِّياسية.

توقيت عملية طوفان الأقصى:

إنَّ أيَّ عمل عسكري ينبغي أن يستند إلى عدَّة معطيات للقيام به، ومِنها:

1 – **وجود الشَّرعية القانونية والأخلاقية للقيام بهذا العمل**: والفلسطينيون يمتلكون هذا الحقَّ، باعتبار الكيان الصَّهيوني كيان محتلٌّ يجب مقاومته وجهاده حتَّى يخرج مِن فلسطين.

2 – **وجود القدرة المادِّية لإيلام العدو**: وهذه القدرة هي ما أشار لها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ...﴾ الآية[1]، فالقدرة التي تُوقِعُ الإيلام في العدو مهما بلغت مطلوبة كي لا يقرُّ له قرار. وكلُّنا يعلم أنَّ انتفاضة الأقصى انطلقت في بداياتها الأولى بالحجارة ثمَّ بالعمليَّات

(1) الأنفال: 60.

الاستشهادية، وشيئًا فشيئًا حتَّى أجبرت إسرائيل بالانسحاب والخروج مِن غزَّة.

3 – **وجود الفرصة المواتية:** وهو ما ظهر مِن نتائج عملية طوفان الأقصى في اليوم الأوَّل، مِن خلال حصيلة الأسرى والقتلى والمكاسب.

4 – **الخروج بأقلِّ الخسائر:** وفي الحقيقة فإنَّ ما قمت به إسرائيل، مدعومة بالولايات المتَّحدة الأمريكية والدُّول الأوربِّية، عقب عملية طوفان الأقصى هو مِن قبيل مضاعفة الخسائر على حماس بشكل كبير جدًّا لتحطيم صورة النَّجاح الباهر الذي حقَّقته بهجومها في السَّابع مِن أكتوبر.

5 – **النَّتائج المأمولة:** أي أن تكون لديك نتائج مأمولة مِن العملية العسكرية خلافًا لمجرَّد إيلام العدو، وفي طوفان الأقصى يمكن القول: إن كتائب القسَّام حقَقت عدَّة نتائج إيجابية مِن عملية طوفان الأقصى.

الآثار الإيجابية لطوفان الأقصى:

1 – كسر هيبة العدو في نفوس الفلسطينيين والمسلمين عمومًا.

2 – قذف الرُّعب في نفوس الصَّهاينة.. حيث بات الكثير مِنهم يفكِّر بمغادرة إسرائيل في ضوء التَّطوُّرات التي تشهدها قدرات كتائب القسَّام العسكرية، حينًا فحينًا.

3 – إفشال حركة التَّطبيع التي انطلقت، منذ عدَّة سنوات، بين إسرائيل ودول المنطقة، بهدف وأد القضية الفلسطينية وتسويق فكرة التَّعايش مع الصَّهاينة لدى شعوبنا.

4 – أسر عدد مِن الصَّهاينة في سبيل المقايضة بهم مع دولة الكيان الإسرائيلي على الأسرى والأسيرات الفلسطينيين.

5 – تعزيز روح المقاومة لدى الشَّعب الفلسطيني وبيان أنَّ بمقدوره إذا ما فكَّر وقدَّر وابتكر واجتهد أن يعدِّل ميزان القوى بوسائل جديدة في المعركة.

6 – ترسيخ مبدأ المقاومة في وعي الجيل الفلسطيني الذي يمكن لعملية السَّلام وحلحلة أوضاعه المعيشية أن تنسيه قضيَّته ورسالته ومهمَّته ووظيفته، فدماء الشَّهداء قبل أن تروي الأرض تروي بذور الانتقام في نفوس الأطفال والشَّباب.

7 – كشف عوار الجيوش العربية التي تنطلق مسعورة أمام شعوبها لتقتل وتفتك في حين أنَّها أمام العدو الحقيقي للأمَّة حارس أمين له.

8 – تكبيد إسرائيل خسائر اقتصادية كبيرة على صعيد الاستثمارات والتِّجارة والأعمال.

9 – إحراج سلطة محمود عبَّاس، ومنظَّمة فتح، وكشف أدوراهم التَّعجيزية والتَّآمرية للشَّعب الفلسطيني.

الآثار السلبية لطوفان الأقصى:

لا شكَّ أنَّ غالب أفعال بني آدم ينتج عنها أثر سلبي، لطبيعة الحياة التي لا تكتمل؛ وخصوصًا إذا كان الأمر يتعلَّق بالصِّراعات المسلَّحة والمعتركات السِّياسية والاقتصادية، بل والفكرية.

والآثار السَّلبية على عدَّة مستويات:

1 – آثار متوقَّع حدوثها بشكل يقيني.

2 – آثار متوقَّع حدوثها بشكل ظنِّي راجح.

3 – آثار متوقَّع حدوثها بشكل ظنَّي مرجوح.

4 – آثار غير متوقَّعة بالأساس.

والآثار السَّلبية مِن حيث وقوعها ودفعها على عدَّة مستويات:

1 – ما يمكن دفعه كلَّه.

2 – ما يمكن دفع جُلِّه.

3 – ما يمكن دفع بعضه.

4 – ما لا يمكن دفع شيء مِنه.

فما كان في طاقتك أن تدفعه فعليك قدر المستطاع دفعه ما أمكن، كلَّه أو جلَّه أو بعضه، وما لا يمكن دفعه عنك إطلاقًا لا يدخل في التَّكليف أساسًا. وهذا كلَّه يعتمد على طبيعة المعركة والصِّراع الدَّائر، وميزان القوى عند الطَّرفين، وقدرته على الاستقراء والتَّنبُّؤ والاستشراف. وما جرى نتيجة طوفان الأقصى مِن آثار سلبية يمكن مناقشتها في ضوء هذه المعايير مجتمعة لا منفردة. وليس مِن العدل والإنصاف مجرَّد جردها وعرضها دون وضعها في السِّياقات المحيطة بالقضيَّة بكلِّ أبعادها.

الدُّروس المستفادة من طوفان الأقصى:

1 – أنَّ مقاومة الاحتلال الصُّهيوني سيظلُّ قدرًا محتومًا تقوم به طائفة مختارة مِن هذه الأمَّة، ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس، تصديقًا لأحاديث الرَّسول ﷺ.

2 – أنَّ العدو الإسرائيلي تسري عليه عوامل الضَّعف والخلل والفشل، إذ ليس هو باستثناء عن بقية الدَّول. فضلًا عن أنَّه بالأساس كيان لا شرعية له، لا دينية ولا منطقية ولا قانونية. وما يمارسه مِن ظلم وعدوان وإجرام سيعجِّل بزواله بقدرة الله تعالى الذَّاتية أو بفعله مِن خلال عباده المؤمنين.

3 – أنَّ الإنسان مهما حوصر، ومهما كُبِّل، لن يعجز وهو صاحب الحقِّ عن أن يقاوم ويدفع عنه الحصار والتَّكبيل، وأن يهزم خصمه الظَّالم وعدوَّه الفاجر.

4 – أنَّ التَّفكير الإبداعي والابتكاري هو نتاج الحاجَّة فالحاجة أمُّ الاختراع، فكتائب القسَّام أبدعت وابتكرت طرقًا في التَّحصين والدِّفاع، والهجوم والكرِّ، بما فاجأ ويفاجئ العالم.

5 – أنَّ الحقَّ الذي وراءه مطالب لا يضيع، وأنَّ المطالب بحقِّه لا ينبغي له أنَّ يملَّ أو يكلَّ، فواجبه الشَّرعي والفطري والأخلاقي أن ينتزع حقَّه ويردع الظَّالم عن ظلمه.

المسارات المستقبلية لطوفان الأقصى:

عملية طوفان الأقصى عملية خطيرة بكلِّ المعايير، وهي تمثِّل تهديدًا وجوديًّا للكيان الصُّهيوني إذا ما استمرَّت حماس وكتائب القسَّام على هذا المستوى مِن التَّطوُّر والتَّحوُّل وكسب القوَّة والإمكانات، حيث أنَّ هذا يعني ضرورة قرب المواجهة الحتمية التي ستنهي إسرائيل. لذلك، ومِن منطلق هذا الفهم والوعي لدى القيادة الإسرائيلية لهذه الحقيقة، تعمد قيادة إسرائيل –ومِن ورائها الحلف الصَّليبي المناصر للمشروع الصُّهيوني– على كسر حماس نهائيًا، لأنَّ المعركة باتت معركة وجود بالنِّسبة لها، فينبغي عليها هي الأخرى أن تسعى لإنهاء وجود حماس، وهذا ما صرَّحت به قيادات سياسية وعسكرية إسرائيلية وغربية.

بالتَّالي، فالمتوقَّع هو أنَّ طوفان الأقصى ستجرُّ حاليًّا أو في المدى القريب إلى قيام معركة حاسمة مع الكيان الصُّهيوني، وأن تتحوَّل منطقة الشَّرق الأوسط إلى كتلة صراع ملتهبة، تتداخل فيها عدَّة مستويات مِن الصِّراع، مع عدَّة أطراف إقليميين ودوليين. ولعلَّ هذا ما دفع البعض للتَّصريح باستخدام القنبلة النَّووية، وما دفع الولايات المتَّحدة للعودة بأساطيلها وجنودها إلى المنطقة لضمان ألَّا تتَّجه الأمور إلى هذا الحدِّ مِن السِّياقات العسكرية، فالتَّداعيات لا تزال خطيرة وقابلة للاتِّجاه نحو تصعيد أكبر وأشمل.

انعكاسات أحداث فلسطين على الوضع اليمني:

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ العالم بات قرية صغيرة، وجسد واحد مترابط، وما يحدث في بلد ينعكس ضرورة على بلد بعيد عنه، بشكل مباشر أو غير مباشر. وما يجري في فلسطين سيؤثِّر على المنطقة عمومًا واليمن خصوصًا. ومِن غير الممكن الحديث عن آثار يقينية، ولكنَّها محتملة، **ومِن ذلك:**

1 – **التَّأثير الاقتصادي:** فإنَّ ما يجري في فلسطين سيكون له انعكاساته على الاقتصاد الإقليمي والعالمي، ما سيفرض مزيدًا مِن الغلاء وارتفاع الأسعار على مستوى النَّفط والغاز والسِّلع والخدمات.

2 – **التَّأثير العسكري:** يتوجَّه الحوثيُّون إلى استغلال حالة الانفعال والتَّعاطف مع غزَّة لكسب المزيد مِن المقاتلين في صفوفها، والدُّخول في حالة حرب جديدة على الصَّعيد الدَّاخلي والإقليمي، لدوافع عدَّة. وبالتَّالي فمِن المتوقَّع أن يتصاعد الصِّراع في اليمن مجدَّدًا، وهذا ما تشير له الأنباء في الجوف ومأرب وغيرها.

3 – **التَّأثير السِّياسي:** إنَّ كلَّ ملف جديد على صعيد المسرح العالمي سيفرض بشكل أو بآخر تأخير الملفِّ اليمني عن قائمة الاهتمامات العالمية، فقيادات المنطقة والعالم اليوم مشغولون بتداعيات الوضع في فلسطين والخروج مِن عنق الزَّجاجة التي وضعوا فيه.

4- التَّأثير الاجتماعي: إنَّ ما جرى في فلسطين سيعطي المقاومة الشَّعبية اليمنية حافزًا أكبر للعمل على الأخذ بالأسباب والوسائل التي تمكِّنها مِن التَّغلُّب على أعداء الوطن والشَّعب.

جزاء الصادقين بين يوم الفرقان ويوم الطوفان

في رمضان مِن السَّنة الثانية للهجرة، خرج رسول الله ﷺ، ونفر مِن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قاصدين استهداف عير قريش القادمة مِن الشَّام، والمحمَّلة بتجارة القوم، بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب؛ غير أنَّ أبا سفيان سمع بالأمر فغيَّر مسار القافلة، في حين علمت قريش بالأمر فخرجت بقوَّتها وهيلمانها تتوَّعد أن تستأصل محمَّدًا وأصحابه لتجرؤِّهم على هذا السلوك الذي يتهدَّد مصالح قريش التجارية.

بلغ رسول الله ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بدرًا، ولا زال يغلب على ظنِّهم أنَّ القافلة ستمرُّ بهم، إلَّا أنَّهم فوجئوا بقدوم زعماء قريش ومقاتليها للحرب، فشاور رسول الله ﷺ أصحابه في الأمر وقد تبدَّلت الوقائع، فأبدوا له مِن الثبات واليقين والانقياد له الأمر ما أسعد رسول الله وسرَّه، فبشَّرهم بالنصر بعد أن بات قرار المواجهة هو القرار الذي ترجَّح.

هذا التباين بين إرادة الرسول وأصحابه وبين إرادة الله تعالى التي شاء سبحانه أن تمضي وجَّه عجلة التاريخ خلافًا لما كان سيكون لو أنَّ رسول الله وأصحابه واجهوا عير قريش وقافلة التجارة. **يقول الله تعالى:** ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾[1]، **ويقول سبحانه:** ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ

(1) الأنفال: 7 – 8.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[1].

لقد كان بإمكان الرسول وأصحابه بعدَّتهم وعتادهم أن يتغلَّبوا على عير قريش، وأن يحوزوا ما في القافلة مِن البضائع والأموال، غير أنَّ هذا الانتصار كان سيشكِّل لقريش مادَّة دسمة لتحريض العرب وقوى الشام واليمن ضدَّ محمَّد وأصحابه باعتبارهم خطرًا يتهدَّد طرق التجارة الدولية، والأمن الاقتصادي لشبكة المصالح العالمية، وبالتالي تجييش هذه القوى للانخراط في تحالف واسع للهجوم على المدينة. غير أنَّ الله تعالى دبَّر أمرًا خلاف ما أراده الرسول وأصحابه، فكان تدبيره خيرًا لهم وأصوب مع سنن الاجتماع والتغيير. فنجت العير ودخلت قريش في حرب خاسرة، نالت فيها هزيمة مدوِّية بلغ صداها أرجاء الجزيرة العربية.

هذا الحدث، يؤكِّد أنَّ الصادقين مِن العاملين لدين الله والمجاهدين في سبيله قد يقدِّروا أمرًا فيه مِن التبعات مفاسد قد تصيب دعوتهم أو وجودهم، فيصرف الله عنهم ذلك بتدبيره هو، لأنَّ (الصدق منجاة) وإن أخطأ صاحبه الحيلة، فالصدق نافع: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[2].

وعبر التاريخ الإسلامي، منذ عهد النبوَّة، ظلَّ العاملون للإسلام والمجاهدون في سبيل الله بين تقدير مصيب وتقدير مخطئ، مع بقاء الصدق

(1) الأنفال: 42.

(2) المائدة: 119.

رائدًا لهم في جميع الأحوال، ذلك أنَّ الصواب والخطأ أمر مرتهن بالمعلومات والتقديرات والتوقُّعات وآليَّة صنع القرار والاستجابة للحوادث الطارئة والمتغيِّرات، وهذه أمور وإن توفَّر الصدق معها قد يخطئ الإنسان فيها لأنَّها ترتبط بعوامل عديدة، ظاهرة وباطنة، وحاليَّة ومحدثة. وفي جميع المحطَّات يشمل الله تعالى عباده بتدبيره المنجي، وتقديره الأصلح لهم، بما يشعرهم بلطفه وخبره، فهو اللطيف الخبير.

لقد كانت معركة بدر التي لم يقصدها الرسول وأصحابه يومًا مشهودًا سجَّله القرآن الكريم بوصفه "يوم الفرقان"، رغم عدم التخطيط له بهذا الشكل. وهذا يجعلنا نتفكَّر في الارتدادات العالمية لحدث "طوفان الأقصى"، الذي قامت به حركة المقاومة الإسلامية (حماس) بغزَّة، في السابع مِن أكتوبر 2023م، والتي باتت تخترق مجتمعات الغرب التي عاشت في غفلة مسلوبة الإرادة ومخطوفة القرار مِن قبل الصهاينة الممسكين بعالم المال والإعلام والسياسة، لعقود طويلة، حتَّى أصبحنا نشاهد اليوم تعاطفًا عارمًا يغمر المدارس والجامعات والمحافل الفكرية والثقافية، والشوارع، والمدن، والعواصم.

لقد كان هدف (حماس) الأقصى الذي ترجوه هو حيازة عدد مِن الرهائن لإجراء عمليَّة تبادل مع الأسرى، وتعويق عجلة التطبيع التي بدأ العرب ينساقون وراءها بعمالة مفضوحة. ولم يكن في وعي القائمين بهذا الحدث العظيم أن تبلغ ارتدادات هذا الحدث بهذا المستوى على أهل غزَّة بالظُّلم والعدوان والإجرام، وعلى العالم باليقظة والصحوة والثورة والتعاطف والانتصار لغزَّة وفلسطين،

وفضح الوجه القبيح للصهيونية ولإسرائيل، في أكثر العواصم تبعيَّة وإسنادًا لها!

وما كان لهذا التحوُّل ليحدث لولا هذا التوحُّش والإجرام البشع والعدوان الغاشم الذي قاده المسئولون الإسرائيليون ضدَّ غزَّة وأهلها، على مرأى ومسمع مِن العالم أجمع، ودون أيِّ تقيُّد بدين أو خلق أو عقل أو عرف أو قانون أو ضمير. إنَّه ليس بمقدور المجاهدين أن يكشفوا حجب الغيب، وإنَّما مقدورهم والواجب عليهم أن يستجيبوا للواقع مع وضع احتمالات المستقبل المحتملة، إذ لا يقين بأيديهم حولها. والواجب الأعظم هو أن يكونوا صادقين في نواياهم وانقيادهم وتسليمهم لأمر الله، وفي مبادئهم وقيمهم ودعاواهم وعهودهم وتضحياتهم، عندها فقط يأتي توفيق الله لهم، ونصرته إيَّاهم مِن حيث لا يحتسبوا، ولهذا تكرَّر في القرآن الكريم أنَّ النصر يأتي لعباده المؤمنين في حالة قريبة مِن اليأس، والظنِّ بتحقُّق الهزيمة، وانقطاع الأسباب التي بأيديهم، كي يكون النصر نصر الله لا نصرهم.

وإنَّ مؤسِّسي وقادة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) مِن الصدق ما أظهرته الوقائع والأحداث منذ عقود، بحيث أنَّ كلفة الطريق لم تزدهم إلَّا ثباتًا ويقينًا ورضا بقدر الله وحكمه، فلم يرتدُّوا ولم ينهزموا ولم ينكسروا ولم ييأسوا ولم يتضجَّروا ولم يداهنوا أو يخونوا. وحريٌّ بهذا التاريخ ألَّا يخذل الله تعالى أصحابه وهو الحافظ والوكيل. فبشرى لهم اليوم وقد أتى "الطوفان" على أكثر ممَّا كانوا يرجون.. مِن الأهداف والمكاسب، والله غالب على أمره، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

هل انتصرت المقاومة؟

تمهيد:

ما إن أُعلن عن اتِّفاق إطلاق النار، بين الكيان الصهيوني الغاشم وبين المقاومة الفلسطينية (بكلِّ فصائلها)، وتراجع دخان المعركة حتَّى ثار غبار اللوم والعتاب، على إثر الحوار والجدل عن مدى ما حقَّقته حركة المقاومة الإسلامية (حماس) مِن وراء عملية "طوفان الأقصى"، والمكاسب التي يمكن اعتبارها لترجيح صوابيَّة قرار القيام بعملية بهذا الحجم. ورغم أنَّ الجراح لا تزال تنزف، والنفوس لا تزال مكلومة، والواقع الغزَّاوي تحت تأثير الصدمة التي تشكَّلت مِن عدوان وخذلان استمرَّا لأكثر مِن (450) يومًا، في ظلِّ مرأى ومسمع مِن العالم العربي والإسلامي والإنساني، إلا أنَّ إثارة التساؤلات انطلقت على أثير مواقع التواصل الاجتماعي لتوجِّه تفكير المتلقِّين والمتابعين مِن التجاوب مع ظروف غزَّة الحالية إلى جدل بيزنطي، لا يدخل فيه عمل نافع وواجب الوقت.

هنا، نحتاج أن نتأمَّل هذا الواقع وطبيعة المشهد الذي يراد تشكيله في المرحلة القادمة. لهذا سنحاول أن نجيب على عدَّة أسئلة لتوضيح الرؤية في هذا الشأن.

مَن السائل؟

التساؤلات هي أمر اعتيادي ومشروع، مِن حيث هي، فهي تعبير عن غريزة

إنسانية تبحث عن إجابة للإشكالات التي ترد أو تورد في ظروف معيَّنة، وبالتالي فهي تمثِّل عادة حالة صحِّيَّة إذا وجِّهت توجيهًا صحيحًا، ولغايات صحيحة. والذين يسألون عن مدى انتصار المقاومة الفلسطينية، أو هزيمتها، عقب أكثر مِن (450) يومًا مِن العدوان الغاشم، أصناف عدَّة:

– **هناك سائلون صادقون:** لديهم إخلاص، وشعور بالمسئولية، ولديهم شعور بحجم المأساة والمعاناة، ويحملون عاطفة جيَّاشة تجاه الحالة الإنسانية في غزَّة، ومِن ثمَّ فتساؤلهم ينطلق مِن خلفيَّة بريئة ومِن حساسية لحجم الخسائر التي تراها. وهذا الفريق يدخل فيهم، مَن هو صاحب وعي ومعرفة وخبرة، وآخرون ليس لديهم وعي ومعرفة وخبرة كافية، وبالتالي سيكونون نهشًا للإجابات الملغومة.

– **هناك سائلون فاشلون:** لديهم رغبة في التنفيس غن إخفاقاتهم، مِن خلال صرف الأنظار عنهم إلى غيرهم، وإهالة اللوم على العاملين والمبادرين، وهم لا يقدِّمون –عادة– كشف حساب عن إنجازاتهم في مثل هكذا أوضاع، وكلَّ ما يملكونه هو لسان ذرب في التنمُّر على الآخرين، وجعلهم مادَّة للوم والعتاب.

– **هناك سائلون بنوايا خبيثة:** وهم المنافقون، المعادون للقوى الإسلامية بمختلف توجُّهاتها، ومشاربها، وللجهود الإسلامية بغضِّ النظر عمَّا تواجهه مِن تحدِّيات ومخاطر، فهم يحاولون إدانتها واتِّهامها وتشويهها وإلقاء اللائمة عليها في كثير مِن الملفَّات. وهؤلاء طوائف، مِنها أحزاب علمانية وأنظمة عميلة وتيَّارات معادية للتديُّن والمتديِّنين.

– **هناك سائلون لديهم خلافاتهم مع تيَّارات إسلامية بعينها:** فهم ينفِّسون عن خلافاتهم بطرق مختلفة، مِن باعث الخصومة والخلاف، وضمن محاولات الإدانة لها، ولفت الأنظار إليهم باعتبارهم الأسلم نهجًا والأنجح طريقة.

– **هناك سائلون ليس وراءهم حمولة أيديولوجية**، مِن ذوي الاهتمامات بقضايا الأمَّة، فهم يستمعون لوجهات نظر مختلفة، وفي حيرة مَن حجم الجدل الدائر، وليس لديهم الخبرة للتعامل مع هذا الواقع.

– **هناك سائلون مِن داخل المجتمع الفلسطيني**، ممَّن أصيبوا بخسائر فادحة في الأرواح والممتلكات والأحوال، وباتوا تحت ضغط هذه النتائج التي تدفع بهم للسؤال عن مدى الانتصار الذي تحقَّق بالفعل، إذ أنَّ مشهد الدمار والخراب والأشلاء والدماء لا يمكن اعتباره انتصارًا.

هذه مقاربة يمكن الحذف مِنها أو الإضافة لها، لكنَّها تستعرض الشرائح الأكبر في خضمِّ النقاشات الجارية، حيث يمكن رصد أصناف أخرى، لكنَّ هذه هي الشرائح الأهم. وبالتالي، لا يمكن التعامل والتجاوب مع هؤلاء جميعًا، بمختلف شرائحهم، بمنطق واحد، ومِن خلال إجابة واحدة، لأنَّ الحكمة تقتضي إجابة كلِّ شريحة بما يناسب منطلقاتها ومرجعيَّاتها ومدى وعيها وفهمها، وقربها وبعدها مِن المعركة.

ما المقصود بالسؤال؟

السؤال في ظاهره المتَّفق عليه بين جميع الشرائح يقول: هل انتصرت

المقاومة الفلسطينية بعد هذه الحرب؟ وما ملامح هذا الانتصار؟ لكنَّه يحمل في بواطنه أسئلة أخرى تخفيها بعض الشرائح، **مِن قبيل:**

– إذا كانت المقاومة الفلسطينية قد انتصرت فأين المكاسب والغنائم لهذا الانتصار؟

– وإذا كانت المقاومة الفلسطينية قد خسرت فما هي التبعات التي ينبغي أن تتحمَّلها نتيجة لذلك؟

– وإذا كانت الخسارة بهذا الحجم فما جدوى المقاومة المسلَّحة؟

– وهل كانت عملية "طوفان الأقصى" التي تسبَّبت في هذه الحرب مشروعة؟

– وإذا لم تكن عملية "طوفان الأقصى" مشروعة فهل يمكن محاسبة المقاومة الفلسطينية عليها؟

أما المخلصون، الذين يوردون التساؤل عن براءة، فهم يبحثون عن إجابة تشفي جراحهم وتقنع شكوكهم حول ما يثار عن جدوى المقاومة، ومواجهة المحتل، في ظلِّ خسائر بهذا الحجم. فهم يريدون إجابة لتثبيتهم والشدِّ على أيديهم، ولإغلاق الظنون التي يثيرها المنافقون في نفوسهم.

وقد تعاطى القرآن الكريم مع هكذا أسئلة في الزمن الأوَّل، فقد قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ

﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾[2].

وعندما عقد الرسول ﷺ الصلح مع مشركي مكَّة، في الحديبية، ورأى فيه المسلمون هزيمة وخضوعًا لمطالبهم، ثبت رسول الله في المضي فيه، حتَّى نَزَلَت سُورة الفَتح، فلما نزلت وقَرَأَها رسول الله ﷺ على عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلى آخِرِها، قال عُمر: "يا رَسولَ الله.. أَوَفَتحٌ هُوَ؟"، قال: (نَعَم)[3]. فأشكل على عمر أن يكون الصلح الذي رأى فيها إجحافًا بالمسلمين فتحًا كما وصفه الله.

إنَّ السؤال الذي يبحث عن إجابة سيطلب كلَّ مظان الإجابة، ومِن ثَمَّ سيتواصل مع أصحاب الشأن والمعنيِّين به، ومع الخبراء والمختصِّين، ومع أهل العلم والرأي، بعيدًا عن الإثارة التي تلقي في نفوس المؤمنين الشكوك والظنون، وتبعث على الخلاف والجدل، وعن استغلال المنافقين لها للطعن في أهل الحقِّ وأصحاب القضية.

---

(1) آل عمرن: 154.

(2) آل عمران: 156.

(3) البخاري، رقم: (3182).

ماذا وراء السؤال؟ وما دلالات التوقيت؟

بعد خذلان الأمَّة للفلسطينيين لأكثر مِن (450) يومًا، لا يليق بها أن توجِّه لومًا وعتابًا، فضلًا عن طرح تساؤلات تحمل في طيَّاتها الإشكالات والألغام النفسية والعاطفية، خصوصًا وأنَّ المجتمع الفلسطيني اليوم بحاجة إلى المواساة والإغاثة والعون، والكثير مِن الجهود لتعويض خسائره التي تسبَّب بها العدوان الصهيوني، مع خطاب يثني على ثباتهم وصمودهم وتضحياتهم وصبرهم ورباطهم، ويشدُّ على أيديهم وعلى عزائمهم، ويحافظ على وحدتهم واجتماع كلمتهم، خصوصًا أنَّ هناك مَن يتربَّص الفرصة لبثِّ الفرقة والتحريش بين أبناء فلسطين، وإيجاد قضية للخلاف والخصومة والانشغال الداخلي.

ومِن المعلوم أنَّ التوقيت شرط في صحَّة كثير مِن الأمور، وأساس في نجاحها، كما أنَّ اختيار بعض التوقيتات يشي بالخبث والدهاء، لأنَّها تستهدف استغلال حالة الغليان أو اليأس أو الخصومة. وهناك مِن الأسئلة ما ينبغي تركها إلى حين، واختيار المستهدفين مِن رواءها. وهذا يجرُّنا للقول إنَّ كثيرًا مِن الأنظمة العربية، وأدواتها الاستخباراتية، تعمل عند كلِّ محطَّة انتصار أو تحوُّل على صرف الأنظار إلى غير الوجهة الأهم، والقضايا ذات الأولوية.

فهناك أسئلة ملحَّة يفرضها الوقت، وهي مِن قبيل:

ما مدى دور الأنظمة العربية في الانخراط، بشكل أو بآخر، في حصار غزَّة، ودعم الكيان الصهيوني، والتآمر على المقاومة؟

وما مدى حضور النخب المثقَّفة والأحزاب والجماعات ومنظَّمات المجتمع المدني في مشهد المقاومة؟ ولماذا أخفقت في التحرُّك نصرة للفلسطينيين إزاء حرب إجرامية متوحِّشة؟

وما مدى قيام الأفراد -مِن عموم الأمَّة- بمسئوليَّاتهم الشرعية والأخلاقية والإنسانية تجاه إخوانهم في فلسطين، وغزَّة خصوصًا؟

هذا ما كان ينبغي طرحه ومناقشته في ظلِّ الثبات والصمود الأسطوري الذي أظهره مقاومو قطاع غزَّة أمام آلة القتل والتدمير الصهيونية، وكلِّ تقنيَّات الرصد والتعقُّب والقصف.

لقد كان مِن الواضح أنَّ الأمَّة قصَّرت بشكل ملحوظ إزاء العدوان الذي جرى على غزَّة، وفشلت في الحركة والتأثير على مستوى الأقطار المحلِّية، وعلى المستوى الإقليمي. وكان ينبغي إيقاظها واستحثاثها للاستعداد والإعداد لهكذا حالة اشتباك ينال فيها الأعداء مِن أبنائها. خصوصًا وأنَّ التقصير كان واضحًا، مقارنة مع ما قامت به شعوب ونخب غير إسلامية على الصعيد الدولي.

لقد كان مِن الأولى طرح الأسئلة عن واجبات الوقت الراهن، واجبات الدعم والإسناد والإغاثة والعون، على مستوى الاقتصاد والتنمية والبنى التحتية والخدمات والاحتياجات الفردية (الغذاء، الدواء، الكساء، السكن)؛ خصوصًا وأنَّ العدو الصهيوني أسرف في البطش والتنكيل والتدمير.

فإذا كان لا بدَّ مِن السؤال كانت هناك قضايا أكبر ومواضيع أكثر إلحاحًا؛ لكن يبدو مِن الواضح أنَّ بعض هذه الأسئلة تريد توجيه البوصلة وتثبيط العزائم وتشكيك النفوس، خصوصًا أنَّ وراءها ما يسمَّى بـ"الذباب الإلكتروني"، وشخصيَّات محسوبة على أنظمة معيَّنة، وأشخاص ليس لهم اهتمام غير الطعن على الجهود الإسلامية، الدعوية والسياسية والعسكرية والإنسانية.

من المعني بالإجابة؟

وعلى افتراض أنَّ السؤال المطروح مِن قبل البعض سؤال ملحٌّ، فمَن المعني بالإجابة عليه؟ هل العامَّة على وسائل التواصل الاجتماعي؟ هل الأنظمة وأذنابها؟ هل النخب الفاشلة والفاسدة وذات الخصومة الموروثة مع التيَّار الإسلامي؟!

في الحقيقة، المعني بالإجابة على هذا السؤال هم أصحاب الشأن والاختصاص العلمي والخبرة العملية والرأي، أمَّا إجابة مَن دونهم لا تزيد الجاهل إلَّا جهلًا وضلالًا. **لهذا، ينبغي على الصادقين الاستماع إلى:**

– أصحاب الشأن الفلسطيني مِن داخل الفلسطينيين أنفسهم، ممَّن يرون آثار الأحداث على الكيان الصهيوني بالتوازي مع رؤيتهم لآثار الأحداث على الفلسطينيين.

– المختصِّين في العلوم السياسية والعسكرية والإستراتيجية، ممَّن يملكون المعرفة الدقيقة بهكذا أمور، فالمختصِّين أكثر دراية مِن أصحاب المعارف العامَّة.

– أصحاب الخبرة العملية، وفي طليعتهم رجال المقاومة الفلسطينية الذين خبروا تجارب سابقة مع الكيان الصهيوني، ويعرفون مدى آثار هذه الأحداث على الطرفين، فالخبرة تكرِّس المعرفة الصحيحة وعلى مستوى التنزيل لا التنظير.

– أصحاب الرأي، ممَّن يمتازون بالقدرة الفقهية والاستشرافية الواعية، حيث أنَّ تفكيرهم وتأمُّلاتهم ونظرهم للأمور يتجاوز اللحظة الراهنة والخبرة التاريخية نحو آفاق المستقبل، بحيث يُعرف عنهم التنبُّؤ بالاحتمالات المستقبلية.

وأيُّ إجابة خارج هذا الصنف مِن الناس لن يشفي عليلًا ولن يروي غليلًا.

هل الحكام "عقاب الله"؟!

في ظلِّ ما تعانيه الأمَّة الإسلامية اليوم مِن عدوان همجي بربري إجرامي، يمارسه الكيان الصهيوني المحتل، ضدَّ إخواننا المسلمين في غزَّة وفلسطين عمومًا، يظهر بعض الدعاة ممَّن لا فقه لهم بالواقع، ولا وعي لهم بالسنن، ولا فهم لهم بالنصوص على مراد الله وقصده، ليلقوا بشبهاتهم وأباطيلهم التي تحاول تبرير خذلان الحكَّام وخيانتهم للأمَّة، وقعودهم عن واجباتهم ومهامِّهم ومسئوليَّاتهم، موجِّهين أسهمهم للجماعات الإسلامية تارة، وللشعوب تارة أخرى، حدَّ أن يقول بعضهم: إنَّ ما يجري في غزَّة ليس إلا نتيجة ذنوب الشعوب! مبرِّرًا تقاعس الحكَّام وقعودهم عن نصرة إخوانهم في غزَّة وفلسطين.

وكلَّما أراد المصلحون تنبيه الناس إلى دور الحكَّام فيما يصيب الأمَّة مِن أزمات وكوارث وعدوان وبغي، يظهر هؤلاء ليدفعوا بالقول: إنَّ الحكَّام مسلَّطون على الشعوب بذنوبها، وأنَّه إذا أرادت الشعوب أن يرفع الله عنها بلاء هؤلاء الحكَّام فعليها أن تتوب إلى الله! وهذا الكلام قد يكون في ظاهره كلامًا سليمًا، إذ أنَّ بعض البلايا هي نتاج الذنوب، ولكن طرح هذا الاعتراض لا يخدم الإصلاح في الأرض بل يُعين على بقاء هؤلاء الحكَّام واستمرار ظلمهم وجبروتهم وفسادهم.

ويردُّ على هؤلاء بما يلي:

أوَّلًا: اعتبار أنَّ الحكَّام الظلمة الجبابرة تسليط ربَّاني لذنوب العباد لم يرد لا

في كتاب الله تعالى، ولا في سنَّة رسوله ﷺ، والأحاديث المروية في ذلك إمَّا أنَّها ضعيفة وإمَّا أنَّها تختصُّ بذنب معيِّن لا بإطلاق. **ففي الحديث:** (وما بخَس قومٌ المِكيالَ والميزانَ إلَّا أُخِذوا بالسِّنين وشِدَّةِ المُؤنةِ وجوْرِ السُّلطانِ عليهم)[1]، برغم أنَّ الحديث ذاته يقول: (ولا حكم أمراؤُهم بغيرِ ما أنزل اللهُ إلَّا سلَّط اللهُ عليهم عدوَّهم واستفقدوا بعضَ ما في أيديهم)، فدلَّ على أن تسليط الأعداء لانحراف الحكَّام لا لذنوب الشعوب.

ثانيًا: أنَّ هذا الكلام كلام عام إنشائي، يصحُّ أن يقال عن أيِّ أمر دون بيِّنة، علمًا بأنَّ ليس كلَّ بلاء عقوبة ولا كلَّ مصيبة بذنب، فمِن البلايا والمصائب ما يقع على المؤمن ابتداء رفعة لدرجته واختبارًا لإيمانه وتعظيمًا لأجره. فجعلُ كلِّ تسلُّط مِن الظلمة والمتجبِّرين هو مِن قبيل العقوبة على الذنوب تصرُّف مِن غير دليل، ولا بيِّنة.

ثالثًا: إذا كانت البلايا نتاج الذنوب فإنَّ تسليط الحكَّام الظلمة الفسدة على الشعوب يُعزِّز الذنوب ويزيدها، ويفتح على الناس باب شرٍّ أعظم، ومقصود العقوبة الإلهية الردع لا زيادة الداء وتعظيم العصيان. وإذا كانت الشريعة تمنع

---

(1) سنن ابن ماجة، رقم: (4019)، وهو ضعيف؛ وفي مستدرك الحاكم، رقم: (8623)، وهو ضعيف أيضًا. **وقال الشيخ خالد الحايك:** والخلاصة أنَّ هذا الحديث ضعيف بكلِّ طرقه، ولا يتقوَّى بالمتابعات والشواهد، لأنَّها واهية، تفرَّد بها بعض الضعفاء والمتروكين، ومَن هم ليسوا بأهل للتفرُّد ممَّن يكتب حديثهم ولا يحتجُّ به. انظر: عِللُ حديث: (خَمسٌ إِذَا ابتُلِيتُم بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَن تُدرِكُوهُنَّ)، خالد بن محمود الحائك، دار الحديث الضيائية، في: 10/ 5/ 1434هـ، على الرابط التالي: https://2u.pw/rQtgXS

إيقاع العقوبة إذا أدَّت إلى فساد أعظم[1] فكيف بقدر الله تعالى وعقوباته وهو أحكم الحاكمين؟! فإنَّه أحكم وأعدل مِن أن يعاقب عبادة المؤمنين بعقوبة تزيد في ذنوبهم، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال لبعض أصحابه -رضوان الله عليهم- وهم يُوقعون العقوبة على مذنب: (لا تعينوا الشيطان عليه)[2].

رابعًا: إذا كانت البلايا نتاج الذنوب، فالحكَّام يستوون في ذلك مع الشعوب، فإنَّ ما يقع عليهم مِن خروج ومنازعة، بالقول والفعل، هو مِن قبيل ذنوبهم، فليسوا بمعصومين، وليس لهم استثناء عن تسليط الله تعالى عليهم غيرهم لذنوبهم. فما الذي يجعل تسليط الحكَّام على الشعوب عقوبة ولا يجعل تسليط الشعوب على الحكَّام عقوبة؟!

خامسًا: أنَّ الشرع جاء بمدافعة ظلم الحكَّام وفسادهم وجبروتهم، وعندما بعث الله تعالى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعثه إلى فرعون وهامان وقومه، ولم يأت في نصوص القرآن الكريم توجيه واحد له بأن يطالب بني إسرائيل بالتوبة ليرتفع عنهم البلاء، فضلًا أن يجعل تسلُّط فرعون عليهم مِن باب العقوبة الإلهية التي تستوجب التوبة أوَّلًا. وهذه قصَّة موسى تتكرَّر في القرآن الكريم مرارًا فمَن وجد نصًّا واضحًا بيِّنًا في الأمر فليزوِّدنا به. فالواجب هو إنكار منكرهم، ومدافعة ظلمهم، وردُّ فسادهم، حتَّى مع افتراض ذنوب الناس، فإنَّ هذا شيء وذاك

(1) **ذهب بعض أهل العلم** إلى عدم إيقاع الحدود في مواطن الثغور خشية الفتنة على المجاهدين، رغم استحقاق المذنب للعقوبة.

(2) البخاري، رقم: (6777).

شيء، فلا يقرُّ ذنب لذنب آخر، ولم يعرف عن أئمَّة السلف المعتبرين أنَّهم برَّروا ظلم الحكَّام وفسادهم بذنوب الناس، بل أنكروا عليهم، ودعوا للإنكار.

سادسًا: أنَّ الشعوب لا تخلوا مِن ذنوب، وهذه الذنوب تختلف، فمِنها المستور الذي هو بين العبد وربِّه، وهذه قال فيها رسول الله: (كُلُّ أُمَّتي مُعافًى إلَّا المُجاهِرينَ)[1]، فلا يمكن أن يعفو عنهم ويسلِّط عليهم. ومِنها اللَّمم التي لا بدَّ لأيِّ إنسان مِنها، **يقول تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[2]، فهي ممَّا يغتفر ولا يؤاخذون عليه لسعة مغفرته ورحمته. ومِنها ذنوب خاصَّة يعذر فيها الناس، إمَّا بالجهل، أو بالخطأ، أو بعدم القصد، أو بالحالة النفسية، **وفي الحديث أنَّ الله تعالى لمَّا أنزل:** ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[3]، (قال: قد فَعَلتُ)[4]. ومِنها ما تكفِّره الصلوات والصيام والحجُّ والصدقات والوضوء والحسنات والاستغفار: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[5]، والآيات والأحاديث في هذا أكثر مِن أن تحصى. ومِنها ما يكفِّرها البلاء الخاص دون العام، **وفي الحديث:** (ما يُصيب المسلم مِن نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا

(1) البخاري، رقم: (6069).

(2) النجم: 32.

(3) البقرة: 286.

(4) مسلم، رقم: (126).

(5) هود: 114.

أذى، ولا غَمٍّ، حتَّى الشوكة يُشاكها، إلَّا كفَّر الله بها مِن خطاياه)[1].

سابعًا: أنَّ الغالب في أحوال الشعوب والمجتمعات هو تغلُّب الحكَّام الظلمة المفسدين، حتَّى في التاريخ الإسلامي، فهي ظاهرة عامَّة، ومنشأها تقصير الشعوب والمجتمعات بمسئوليَّاتهم في الشأن العام، فلو قُصِد بالذنوب هو انشغالهم بمعيشتهم وشهواتهم وشئونهم الخاصَّة دون العامَّة لكان هذا أصدق، لأنَّهم إذا لم يؤدُّوا الأمانات إلى أهلها ارتدَّ عليهم ذلك بتغلُّب الظالمين والفاسدين، وفي الحديث: (إذا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانتَظِرِ السَّاعَةَ)، قالوا: كيف إضاعَتُها يا رسول الله؟ قال: (إذا أُسنِدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتَظِرِ السَّاعَةَ)[2]. فالواجب تذكير الشعوب بأن تتوب مِن هذه الذنوب التي تؤدِّي إلى تسلُّط الظالمين والفاسدين، فهذا هو الذنب الذي يدفع بهم إلى البلايا والمصائب وتسليط أعدائهم عليهم، أمَّا الذنوب الأخرى فإنَّ الله تعالى جعل لهم عليها سبيلًا، وقال عنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]. فينبغي التنصيص على هذه الذنوب التي يغفل عنها علماء السلطان، وهي غفلة الأمَّة عن واجباتها ومسئوليَّاتها كأمَّة مسلمة شاهدة ذات رسالة ووظيفة، وأمانة ومسئولية. أمَّا التلويح على الشعوب بالقعود عن ظلم الحكَّام وفسادهم بدعوى أنَّها مذنبة، وكأنَّ الحكَّام ملائكة معصومين، أو أنَّه لا يمكن أن يتحقَّق لهم حاكم راشد

(1) البخاري، رقم: (5641) واللفظ له؛ ومسلم، رقم: (2573)، وفي روايته: (مِن سيِّئاته).

(2) البخاري، رقم: 6496.

(3) فاطر: 18.

عادل إلَّا أن يكونوا هم ملائكة معصومين، فهو الإرجاء الذي يخدم الطغاة ويزيدهم طغيانًا، وقد كان جنكيزخان يقول للمسلمين: أنا عقاب الله!

ثامنًا: أنَّ الشعوب الكافرة تحقِّق قدرًا مِن العدل والرشد في أنظمتها لأنَّها تقوم على السنن التي تحقِّق هذا الأمر، رغم كونها مذنبة، ولهذا قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الروم، مستحسنًا نهجهم مع الحكَّام: (وأمنعهم مِن ظلم الملوك)[1]، وجاء في ثناء النبي ﷺ للنجاشي، وقد ملك شأن الحبشة، رغم فساد أهلها: (إنَّ بأرضِ الحَبَشةِ ملِكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عندَه)[2].

تاسعًا: ينبغي أن يُقابل الحكَّام بمظالمهم وفسادهم وطغيانهم وذنوبهم، كما تُقابل الشعوب، إذ هم أولى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ فسادهم وظلمهم فساد لرعيَّتهم وضرر بخلق كثير. وروي أنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبي ﷺ، وقد وَضَعَ رِجلَه في الغَرزِ: أيُّ الجِهادِ أَفضَل؟ قال: (كَلِمةُ حَقٍّ عندَ سُلْطانٍ جائِرٍ)[3]. ولا يمكن أن يوجب الشارع إنكار المنكر على الفرد الذي يرتكب ذنبًا خاصًّا، ضرره خاصٌّ، ويدعو للسكوت عن مَن ذنبه عامٌّ، وضرره عامٌّ، ولا أن يرتِّب عقوبة على الأوَّل ويدع الثاني يفلت دون عقوبة تلحقه.

عاشرًا: إنَّ حمل سياط اللوم على الشعوب التي كبَّلها الحكَّام، وأفشلوها وخذلوها، وتمالؤوا على ظلمها وخيانتها، بكلام لا يمتُّ إلى التحقيق والتدقيق

---

(1) مسلم، رقم: (2898).

(2) سبقت الإشارة إليه.

(3) **قال شعيب الأرناؤوط**، في تخريج (سير أعلام النبلاء) للذهبي، سنده صحيح: ج1/ 208.

والوعي والفقه، وإنَّما على سبيل الوعظ البارد، غير المكلف، جور لا ينبغي للعلماء والدعاة أن يمارسوه، فإنَّهم ورثة الأنبياء، وإنَّما بُعث الأنبياء لمواجهة الملأ والطغاة والجبابرة، وتحرير الشعوب مِن ظلمهم وجبروتهم وفسادهم، لا لإسكاتهم وخذلانهم.

ختامًا..

إنَّ ما يتعرَّض له أهلنا في غزَّة وفلسطين بلاء يجب دفعه أيًّا كانت أسبابه، وبما شرع لنا أن ندفعه مِن جهاد ونصرة، خصوصًا وأنَّ فلسطين قد استنصرونا في الدين، لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾[1]، حتَّى على افتراض أنَّ ما أصابهم كان لذنوبهم، فهذا شيء وأن نقوم بالواجب الذي أوجبه الله تعالى علينا شيء آخر. وأيُّ حديث لتبرير العدوان عليهم، وخذلان الحكَّام لهم، وإقعاد الأمَّة عن نصرتهم، هو مِن كبائر الإثم ومِن أخلاق المنافقين، لأنَّ النصوص واضحة في وجوب النصرة بقدر الإمكان، وموالاتهم ونجدتهم، وإزالة كلِّ العوائق التي تعيق الأمَّة عن التصدِّي للعدوان عليها.

(1) الأنفال: 72.

خاتمة

انتهى بنا التطواف في الوحي والتاريخ والسياسة، في هذا الكتاب، حيث حاولنا أن نبقى على التخوم نتلمَّس المعالم ونعبِّد الطريق، ولا زال في الوحي سحائب غيث، وفي التاريخ أصداء حياة، وفي السياسة جولات اعتراك، وما زلنا بحاجة إلى التنقيب والبحث للوصول إلى مشكاة نور وسجِّل خبرة وخارطة طريق. فالكتابة إذا لم تكابد قضايا الوقت بأحبار المعرفة وأقلام التجارب تفقد طعمها وتأثيرها، وتبقى ترفًا خارج مهمَّة الإنسان المنوطة به كمستخلف في الأرض، يقيم الحقَّ والعدل والخير ويدافع الباطل والظلم والشر.

وممَّا لا ريب فيه أنَّ المسلمين اليوم فريسة هجمات عدَّة تتناوش ما تبقَّى لديهم مِن هويَّة ووعي وذاكرة، فقد تداعى الطامعون على ثرائهم وتراثهم وثرواتهم، وهذا يتطلَّب مِنهم أن يكونوا على صلة دائمة بالوحي، وارتباط وثيق بالتاريخ، وحضور مؤثِّر في السياسة. وهنا يأتي دور العلماء والمفكِّرين وأرباب المعرفة والثقافة بكلِّ مجالاتها ليرفدوا العقول والقلوب المسلمة بالإيمان الصحيح والمعرفة السليمة والرأي الحصيف، بحكمة تنتزع مِن الماضي أحسن ما فيه وتبتدع للحاضر أفضل ما يمكن. وإذا كان ولا بدَّ مِن العمل فلا بدَّ مِن الصدق والإخلاص، فهما خطَّا توجيه السير المتلازمان كي ما يتقدَّم دون عوج أو انحراف.

ونحن نخطئ لأنَّ طبيعتنا البشرية خطَّأة، فالإنسان همَّام حارث.. قوَّال

فعّال، وغير معصوم مطلقًا، وإنَّما ينزِّه عن الخطأ الربُّ سبحانه، أمَّا الخلق الذي لا يخطئ فهو الجماد الميِّت الذي لا إرادة له ولا فعل. فما أصبنا في هذا الكتاب فمِن توفيق الله تعالى وحده، وما أخطأنا فمِن أنفسنا والشيطان، والله يتولَّى تصويبنا وتصويبه بمنِّه وكرمه. ويبقى أنَّنا نحسن ظنَّنا بالله تعالى وأن تُغتفر الزلَّات في مقابل هذه الحسنات التي نبذلها رجاء أن ننتصر لدينه وأن تنهض أمَّتنا إلى لمكانتها ومجدها.

سنبقى "على التخوم" طالما بقي في أرواحنا رصيد مِن العزم ورغبة في التحليق وهمَّة للدفاع عن الحمى، فالفتح ترصُّد وزحف، وكرٌّ وفرٌّ، ودخول للأبواب.. فإذا دخلتم الأبواب فإنَّكم غالبون، وعلى الله فليتوكِّل المتوكِّلون.

عَلَى التُّخُومِ

تطوافٌ في الوحي والتَّاريخ والسِّياسة

أنور بن قَاسِم الخُضَرِي

كتابُ نظـــرٍ وتأمّل، يتقدّم بالقـــارئ إلى مواضع **الاشـــتباك العميق بين الوحـــي والتاريخ والواقع**؛ حيث تُستقرأ السنن، وتُمحَّص الوقائع، وتُوزن الأفكار بميزان العقل المنضبط والهداية.

صفحاتـــه تطـــوافٌ هـــادئ في **قضايا الملك والسياســـة والســـير والأحداث**، يُعيد وصل المعنـــى بأصوله، ويكشـــف طبائع الســـلطة، ويســـتنطق الخبرة الإنســـانية في ضوء البيان القرآني.

وهو تصنيفٌ يـــردُّ الفكر إلى محكمـــه، ويُقوِّم السؤال في موضعه، ويكفُّ الجدل عن التسيّب، حتى يفضي بالقارئ إلى وعـــيٍ متين، وبصيرةٍ مستنيرة، ونظرٍ نافذٍ في قضايا عصره.

HEKMAH YEMANYA

9 786258 990164